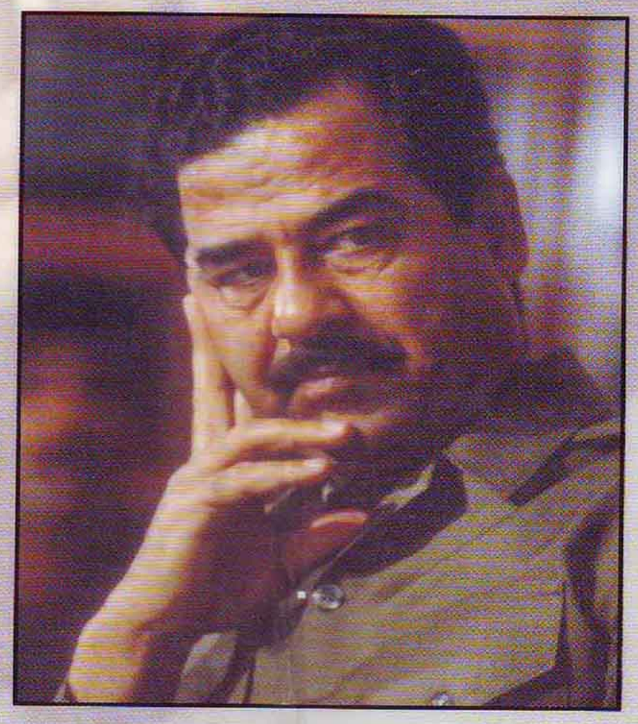
د. هيثم رشيد وهيب

في ظل صدام

«فضائح غير معقولة»

شهادة حية لرئيس البروتوكول



ترجمة: ميشيل خوري



د. هيثم رشيد وهيِّب

في ظل صدَّام

«فضائح غير معقولة»

«شهادة حية لرئيس البروتوكول»

ترجمة: ميشيل خوري

وفاءً لذكرى والدي اللواء رشيد علي الوهيِّب وقد قتله صدام حسين وحزب البعث في العام 1969 ليكن ذكره خالداً.

كما أهدي هذا الكتاب إلى والدتي الباسلة سعاد سلمان القاسي وقد دعمتني على الدوام وشجعتني على الصراع دفاعاً عن الحرية والعدالة.

مقدمة

باسم الله وباسم الشعب العراقي

يمكن لكتاب عن صدام حسين أن يظهر كمهمة بسيطة سهلة، غير أن الواقع غير ذلك... فحياة وأعمال وتصرفات الرئيس السابق معروفة للجمهور، لكنني أردت في هذا المؤلف أن أسلط الضوء على طريقة تفكير وعمل صدام وعلى تصرّفاته العميقة. والأمر ببساطة ليس وثيقة جديدة عنه، لكنه شهادة على واقع معاش.

كبرت في داخلي فكرة أن أقص وأحكي ما شاهدته، بمقدار ما كنت أرى تخلف وانحطاط بلدي الحبيب، العراق، وهو في قبضة من تصرف بمصيره. لزمت الصمت طويلاً، لحماية أهلي الباقين هناك، لكنني الآن أحسُّ بالواجب المعنوي لأكشف كلّ ما أعرفه.

خلال عقود فرض صدام حسين خوّة على بلادي واعتبرها إقطاعة خاضعة لسلطانه، وقد نجح في تحويل المنطقة الأكثر غنى وخصباً في الشرق الأوسط إلى دولة تنزف دماً كما تظهرها لنا الشاشات التلفازية في العالم كلّه. هذا

الرجل الذي يعلن عن نفسه وريثاً لنبوخذ نصر وصلاح الدين لم يهتم أبداً بكِبَرِ العراق. فعلى نَسَق مُلَيكٍ إقطاعي اعتبر البلاد التي يرأسها ملكية خاصة، مزرعة، عليه استغلالها لزيادة ثروته الشخصية. والعراقيون لا يمثلون أمام عينيه إلا أدوات لنجاحه، وعبيد أرض حديثين. أحكم قبضته جيداً، ولا يمكن لأحد معارضته.

بذريعة «حماية مصالح الثورة» مَنَحَ على شاكلة غيره من الزعماء السابقين المقرّبين منه السيطرة على موارد العراق الرئيسية، مع اللجوء إلى وسائل التخويف الأكثر عنفاً، وأخمد وقمع كل معارضة في مهدها. ولم يكتشف معظم العراقيين إلّا في وقت متأخّر جداً نوايا الطاغية الحقيقية.

على المستوى العالمي نجح صدام مدّة طويلة في حفظ صورته واستخدام موارد بلاده ليفرض على البلدان الغربية، وعلى روسيا عقوداً تدرّ ربحاً كلّف شعبه ملايين الدولارات. أتاحت له هذه الطريقة على سبيل المثال إسكات وساوس روسيا السوفيتية عندما ألغى وجود الحزب الشيوعي العراقي. اعتبرته الأوطان العربية المجاورة قائداً شريفاً إلى أن حطّم أوهامهم في العام 1990 بغزو الكويت مزدرياً الأخلاق المسلمة، وجميع الاتفاقيات الدَّولية.

شيئاً فشيئاً، حوّل صدّام العراق إلى سجن هائل يخشى فيه كلُّ رجل ظلَّه وكلُّ والد أبناءه. وغدا الخوف الرفيق اليومي لجميع العراقيين، وخاصة لأولئك الذين يعملون مع الجهاز الحكومي، المطّلع جيداً، وأكثر من الآخرين، على المصير المحتوم للمناهضين.

هيّأ لي وضعي في القصر الرئاسي إمكانية ملاحظة الأشياء بالتفصيل، أو تخمين الأحداث التي لا تصل أبداً إلى آذان رجل الشارع. مع ذلك فإن موقعي كمراقب لم يسمح لي دائماً باختراق مخططات «عمّنا»، كما يحلو للتقاليد تسميته. تُفرض الطاعة العمياء على جميع المقربين، وهم أيضاً يراقبون بعضهم البعض على غرار معلمهم، ويعتبرون بقية الشعب العراقي أحجار شطرنج تحرك وفق أهواء ورغبات صدام.

بينما يصارع الأشخاص العاديون للحصول على لقمة عيشهم، كان القصر الرئاسي يفيض بالأغذية الأكثر رفاهة والأطعمة الألذّ مذاقاً. والواقع، أنّهم لوحدهم مع حماتهم كانوا في مأمن تام من نتائج العقوبات الاقتصادية المفروضة على العراق من الأمم المتحدة بأمل انصياع الديكتاتور. ولتتويج هذه «الجهود» لمصلحة شعبه وقّع على بياضٍ ثلاثة حروب متتابعة خلال عقدين من الزمن.

هذا هو عراق صدام حسين.

عملت لهذا الرجل خلال سنوات، ولمكافأتي على أعمالي، حاول ثلاث مرات قتلي. وعندما نجحت أخيراً في الهرب من العراق سَجَن أمي وأخواتي وحاول بكل الوسائل إعادتي لألقى «عقابي» العادل. الآن وقد تحرّر شعبي من هذه القيود يمكنني أخيراً أن أعبّر بحريّة عن رأيي، دون خوف من تدابير انتقامية تحلُّ على أقاربي.

بينما كنت في اللمسات الأخيرة من هذه الرواية علمت بالقبض على الطاغية. إنّه يوم فرح لشعبي. أخيراً لن يخيم

بعد الآن على العراق أو عليّ بالذات ظل الرجل المخيف. وقبل أن يُفتَح الملفّ الرسمي ويقف أمام القضاء ليدلي بأقواله أسجل هنا شهادتي، حتى لا ينسى أحد كيف كان هذا الرجل وكيف عامل العراقيين. ولأحذّر الشعوب من محاولة الاستسلام «لعرّابين» من هذا النوع.

لم يبق لي إلا أن أكرر شكري لجميع الذين أتاحوا لي تحرير ونشر هذا الكتاب فليباركم الله جميعاً.

هيثم رشيد وهيِّب

1

الهرب للبقاء على قيد الحياة

تركت بلادي خفية في ليل 21 آذار 1993، وأنا في الثانية والأربعين من عمري مع زوجتي وولديَّ، الأوّل، وهو في الثالثة من العمر والثاني لا يتجاوز بضعة أشهر. كنت أعلم أنه حتى بوجود بعض العقبات أمامنا جميعاً، فإنه قرار إيجابي لأجلنا جميعاً. عدا عن أنَّه ليس لدينا خيار آخر.

قضيت شهرين ونصفاً في غيبوبة عقب «حادث» حرّض عليه رجال صدام حسين. وكنت محظوظاً لبقائي على قيد الحياة... غير أنّها لم تكن المرّة الأولى التي حاول فيها «الرئيس» وضع حدّ لحياتي، فقد نجوت مرتين من محاولات القتل.

كانت المرّة الأولى في تشرين الأوّل 1991 بعد زيارة قمت بها لأمي التي تقطن على الدوام في منزلنا العائلي، على ضفة دجلة، في مواجهة السفارة البريطانية. سرت محاذياً النهر عندما لاحظت سيارتين تلاحقاني تُبطئان عند تمهُّلي وتسرعان عند إسراعي. بعد عِدَّة دقائق من اقتفاء أثري وصلت إحدى السيارتين لمواجهتي وصدمت بابي، بينما بدت

السيارة الأخرى وكأنها تصطدم بي من الخلف. نوى السائقان بشكل واضح إلقائي في النهر، لكن لحسن الحظ كانت ضفة النهر منخفضة جدّاً في ذلك المكان، كما تبين لهما أن الحاجز أكثر صلابة مما كانا يتوقّعان. بقيت ثلاثة أيام في المشفى، للعناية بجراحي في الساقين والصدر (جراء اصطدامي بالمقود). عند عودتي للعمل في القصر الرئاسي لم ألقَ مهنئاً لشفائي العاجل أو للسؤال عن حالي. كانت الرسالة واضحة... عزمت على أن أكون أكثر حذراً في المستقبل. فقط، أصبحت أعلم أن من يُغضِب المعلم لن ينجو طويلاً من عقابه.

جرى «الحادث» الثاني في شهر آب 1992، وأذكر مدى شدّة الحرارة وأنا أقود مسرعاً سيارتي المرسيدس المكشوفة السقف. كنت عائداً من الحلّة، مسقط رأسي، في الشارع ذي الاتجاهين. عندما هشَّمت شاحنة ضخمة بوّابة مركبتي. إنّها طريقة دلّت على نجاعتها عند وفاة أبي قبل ثلاث وعشرين سنة. هذه المرة استغرق بقائي في المشفى أسبوعاً وغدت سيارتي حطاماً. لم يَعُد لديّ أدنى شكّ: حياتي في خطر. وبدأ الخوف يسيطر علي.

حَدَثت المحاولة الأخيرة وهي تكاد تكون مفجعة عند عودتي من احتفال بعيد ميلاد بعد عدة أشهر. كنت أسير باتجاه منزلي أقود سيارتي الجديدة شيڤروليه كابريس، وقد اكتويت من مغامراتي السابقة، واخترت السيّارة الأكثر ضخامة وصلابة مما استطعت العثور عليه! وعلى طريق بغداد ذي الاتجاهين صدم باصان صغيران يقودهما رجال

صدّام بشدّة سيارتي، وطرحوني بين الموت والحياة. بقيت في المشفى غائباً عن الوعي مدة شهرين ونصف. أعاني من جروح في وجهي خاصة (تلقيت بعدها عمليات تجميلة لإزالة الندبات).

قضت تعليمات المشفى بالنهوض على قدمي في أقرب فرصة (بتعليمات من الرئيس). إذن لا يوجد لدي أي أمل باقناع الطبيب لتعديل النشرة الصحية عن وضعي، فحرصت من جهتي أن يتمّ شفائي في أطول مدّة ممكنة. كنت أعلم أن جُندَ صدام سينطلقون في إثري وقد يتخلى الحظُّ عني هذه المرة. حاولت أن أعاكس جهود الهيئة الطبيّة. عندما أعلن لي ذات يوم أنّ باستطاعتي مغادرة المشفى سريعاً رفعت سريري إلى أعلى مستوى وتدحرجت عليه لأسقط في الجانب الآخر وأكسر ساقي. وعندما سألت الممرضات عما حدث لي زعمت بأنني أجهل ما جرى، وادعيت «سهواً» تناول كمية زائدة من الأدوية. الأفضل لي أن أكون مريضاً من أن أكون مطارداً من قتلة صدام.

جهلت عائلتي بالطبع كل هذه المحاولات المماطلة للبقاء في المشفى كما غابت عنها مخاوفي. تمسّكت مرة أخرى بأطروحة الحادث! استوعبت انتشار المكبّرات الصامتة في غرفتي، ووضغ هاتفي تحت المراقبة. أكّدت لأقاربي تلهفي للعودة إلى المنزل، وقد حماهم جهلهم.

خُصّت أشهر النقاهة الأربعة للتدقيق في وسيلة للهرب مع زوجتي وابنتي والمولود المنتظَر للهرب. يجب ألا أعود مطلقاً للعمل في القصر.

لم أدهش لتلك المعاملة قطّ. جميع المقربين من الرئيس ينتهون إلى وضع عدم رضا الرئيس عنهم ويصبحون رجالاً يجب تحطيمهم. قيل في أحد الأيام إنني أعرف الكثير وإنني غدوت خطيراً. في البدء حاولت عدم التصادم والابتعاد ثم تبنى الزملاء موقفاً متحفظاً، بل وعدوانياً.

قاومت مدة تفوق معظم المقرّبين من صدام. في العادة يفقد معاونوه سريعاً الحظوة لديه، لكن الصحيح أنني منذ بعض الوقت أخذت أتعرض للأخطار. وبدأ هدوئي يتصدّع. لم أعد أحتمل الحضور دون اعتراض على مساوئ النظام. تعذّر عليّ السكوت. فمنذ غزو الكويت لا أحد يمكنه أن يحجب وجهه: إنّنا على صلة بوحش دموي يسخر كليّاً من العراق والعراقيين. عمليات قوات التحالف دمّرت البنى التحتيّة لعدَدٍ كبير من العراقيين وَجَبَ عليهم الاستغناء عن الكهرباء والمياه الجارية. حتى ذلك الوقت حافظت على رباطة جأشي، غير أنني لم أعد أستطيع السكوت على الأكاذيب، والقتل والشراسة التي صبّها صدام حسين على شعبه، وعلى شعبي. أخذت أتساءل بصوت عال عن مستقبل بلادي. علم صدام دون شكّ بالانتقادات التي تجرأت على صياغتها. ونبهت إلى أنني أسترسل في كلامي غير أنني لم أستطع التزام الصمت. علمت أن عليّ الرحيل.

منذ ثلاث عشرة سنة وأنا أشغل وظيفتي رئيساً للبروتوكول المرتبط مباشرة برئيس الجمهورية. تعلّمت جيّداً معرفة الرجل، وعرفت إذن عدم إضاعة دقيقة من الوقت. كنت أخشى في كل لحظة أن أُوقَّف وأُسجن بل وأُقتل.

كنت أرى نفسي مراقباً باستمرار، يجب ألّا أفكر أن صدام ينساني. قدَّرتُ الخطر وبدأت أتفادى سرّاً أمي، وأخواتي، وأعمامي، وخالاتي، لخطورة مركزي وضرورة بقائي منفيّاً. بقيت زوجتي، وهي الأكثر اهتماماً بأمري، تجهل موقفي. بقيت حتى النهاية في جهالة، كنت أخاف أن تتعرض لخدعة ما. أنا لا أجهل مدى قدرة صدام على معاقبتها لأقل شبهة عن نواياي. بارك المقربون مني مشاريعي، بينما كانوا يتوقّعون بعض المضايقات بعد رحيلي.

كنت على يقين كامل أن صدام عندما يعلم بهروبي، فإن ضباط استخباراته سيهرعون لسؤال جميع المقرّبين إليّ، وأن الوسيلة الوحيدة لإنقاذهم تقتضي استنكاراً عاماً لموقفي الغادر ومغادرتي البلاد. أجبروا على الاعتراف بأنني خنت العراق، وألحقت العار بأهلي وعشيرتي؛ وبما أنّ هذا الأمر يتعلّق بأسوأ خزيٍ يتعرّض له عراقي كنت على يقين من الاقتناع به مما سينقذ حياتهم. فتهيأت لهذا الموقف.

في الواقع حضر ضُبَّاط الاستخبارات يسألون العاملين لدينا منذ الاستدلال على «هَرَبِنا». وجه عشرة منهم إلى المرأة المسكينة التي كانت تُحضِّر لنا الخبز وابلاً من الأسئلة، وهي معمّرة، ومصابة بالسكري، أوشكت أن تموت هلعاً. بديهي أن لا علم لها بكلِّ ما جرى. لكنّ أمي وأخواتي وأفراداً عديدين من عشيرتي اقتيدوا إلى السجن.

لم تتوقّف الانتقامات عند هذا الحدّ. فبعد انتفاضة 1991 الناجمة عن الهزيمة العراقية أمام قوات التحالف استغل صدّام الردع الجاري ضد العصاة وعَمَد إلى إعدام ستمئة وثمانين

رجلاً من عشيرتي، عشيرة شمَّر، ومنهم يافعون لم يتجاوزوا الثالثة عشرة أو الرابعة عشرة من أعمارهم. أمّا أمي وأخواتي فقد قُسِروا على التأكيد أمام عدسات التلفاز العراقي، وعلى الهواء مباشرة، أنني لست واحداً من عائلتهم. لكم أن تتصوّروا ما يمثّل هذا الأمر لأمٍّ. خاصة وأنني ولدها الوحيد! استنكرت عائلتي بكاملها عقوقي؛ كنت قد توسَّلت إلى أهلي للقيام بهذا الإجراء.

عرفت أمي من جهتها الإقامة في سجون عديدة، لا يتجاوز بعضها الإقامة لأسبوعين أو ثلاثة أسابيع خلال العقد الفائت. كان آخرها في فترة سقوط صدام. حرّرتها قوى التحالف بعد سقوط بغداد وهي في الثامنة والسبعين من عمرها!

بعد رحيلي صادر صدام حسين جميع أملاكي وهي 14000 هكتار من الأراضي الموروثة عن أبي. أمّا البيوت والأملاك الأخرى غير المنقولة فقد صودرت وبيعت مع محتوياتها بالمزاد العلني على الطرقات العامة، ابتداء من المفروشات حتى التحف - وبعضها ذات قيمة لا تقدّر، لأن صدّاماً لم يكن أهلاً لتقدير إلا الذهب والأسلحة، فقط أعطاني التحف الفنية التي كان يتلقاها كهدايا. بيعت حتى ثيابنا وثياب الأطفال. غير أن والدتي نجحت في إنقاذ بعض الأشياء والأثاث بعد إخفائها في إحدى المزارع العائلية.

لن أُخدَعَ قطّ: الأمر يتعلّق بإنذارات لا رجعة عنها تهدف إلى إخراسي، وخاصة بعد المؤتمر الصحفي الذي عقدته في

لندن في العام 1995. «توقف عن نقدي، وإلا..».. مهما يكن الأمر، كنت على حقّ في اتخاذ جميع الاحتياطات الممكنة عند هروبي خلال شهر آذار من العام 1993.

* * *

عندما حان موعد الرحيل سعيت جاهداً لأتصرّف بشكل طبيعي جداً. ترتّب عليّ رسمياً أن أسافر إلى الأردن لإجراء بعض التحاليل الطبية لمدة أسبوع بصحبة عائلتي. كل شيء طبيعي جدّاً. ألححت على حمل أمتعة قليلة، إذ خشيت أن يشي أحد الجيران بأمرنا للسلطات. غدا الأمر في العراق مدعاة للشكّ بأيٍّ إنسان.

لم تعلم زوجتي بالحقيقة إلا بعد اجتيازنا الحدود الأردنية. كشفت لها عن حقيقة الإصابات الثلاث في السيّارة، بينما كنت أؤكّد، في لحظة حدوثها، الادعاء بانزعاجي من ارتفاع الضغط نتيجة السُكَري، أو لإفراطي في الشراب خلال المرّات الأخرى.

في 21 آذار من ذلك العام استأجرنا سيارة تكسي لنقلنا إلى عمّان. لا حاجة لنا باستخدام إحدى سياراتنا مما يكشف بسرعة أمرنا. زيادة في الاحتياط عمدت إلى إطالة لحيتي وشاربي، وارتديت «دشداشة»، وهي الثوب العراقي التقليدي. لا وقت للتأنُّق، وقد دُهِشَت زوجتي من مظهري الجديد، غير أنني شرحت لها أن الدشداشة تيسّر لي راحة أكبر وقد مَلَلت من حلاقة ذقني يوميّاً. بوصولنا للحدود الأردنية ادّعيت فوق ذلك أنني تاجر بسيط من جنوب العراق.

حاول رجال الجمارك العراقيون مصادرة آلة التصوير المحمولة لأدعم أطروحة سفري المؤقّت. اعترضت في البدء، غير أنني خشيت الشبهة ـ اعتاد شعبنا على الابتزاز دون تذمُّر ـ فصرّحت لرجل الجمارك أن بإمكانه الاحتفاظ بها غير أنّها تحوي صوراً لأطفالي وأنا حريص على قيمتها المعنوية؛ واقترحت أن يشير إلى احتجازها لديه في آخر جواز سفري لأسترجعها عند عودتي من السفر، فتخلّى لي عنها. سألني عن مهنتي فأخبرته أنني تاجر أعمل في الاستيراد والتصدير.

لم تنته همومنا عند هذا الحدّ، وقفنا منتظرين نحو ساعة ونيّف إلى أن انتهوا من تحري جوازاتنا ـ رغم أنّها مزيّفة (أخفيت جواز سفري الدبلوماسي في فراش طفلي) لم أعد أحتمل، دخلت أخيراً إلى مكتب الحراس، شارحاً بصوت ضعيف أنني لا أريد استعجالهم، ولكن ابنتي الصغيرة بحاجة إلى قضاء حاجة. أجابني أحد الرجال بخشونة سوقية بأنه لا وسيلة إلا بتركها تقضي حاجتها علي. على ذلك أجبت بأنني سأعمل وفق توجيهاته بكل سرور إن أعاد لي جواز سفري. أعجبته طرفتي أو حماقتي الظاهرة وسألني عن اسمي فأعطيته الاسم الوارد في جواز سفري المزيّف؛ ففتش عن الأوراق وقذف لي بأوراقي. وانطلقنا دون مضيعة للوقت!

نجحنا في مغادرة العراق. نجونا... قلت في نفسي، غير أنني أبديت صيحة الظفر متسرعاً فعلينا اجتياز حاجز الشرطة الأردنية.

قدّمت مجدداً جوازات سفرنا، كانت الدقائق تمضي

مسرعة بدون أن نستفيد منها. أُدخلت أخيراً إلى مكتب جلس فيه رجلان. أدركت فوراً وأنا الخبير بالدوائر الحكومية أنّهما ليسا من رجال الجمارك العاديين إنّما هم من المخابرات. أُفٍّ. ها أنا أتعرّض لمساءلةٍ لا نهاية لها. الاسم، المهنة، هل أعرف القراءة والكتابة؟ (قليلاً - أجبت). هل أجريت دراسات ما؟ (كلّا). سبب سفرك تمسَّكت بهويتي المزيّفة.

فجأة حدّق أحد مخاطبي في وجهي: «أعلم أنك لا تنطق لنا بحقيقة أمرك. إنّك تشغل وظيفة هامة جدّاً في العراق ونحن نحب أن نعرف لماذا تسافر بهويّة مزيَّفة». اعتقدتُ أنّه يخدعني وتمسّكت بموقفي البدائي: سيدي الضابط لست سوى تاجر بسيط. ثمّ توقعت أن هذا الرجل يعرف مع من يتكلّم. حانت لحظة الحقيقة، وستحدّد الدقائق المقبلة مصيري.

غامرت بالكلِّ لأربح الكلّ فاقتلعت بغضب غطاء رأس بداوتي إشارة غضب شديد صادرة عن إنسان عربي:

- اسمعني جيّداً! إذا حاولت إعادتي إلى العراق، سأقطعك إرباً! أنا لا أمزح وأنتمي إلى قبيلة شمّر، لي أبناء عمٍّ أقوياء جداً في الأردن وعلاقاتٌ ذات مقام عال جدّاً. وأنا أعرف حتى ملككم (المقصود به الملك حسين في حينه)!

وعدته بأن أشكو هذه المضايقات الإدارية للأميرة بسيمة، أخت الملك، وقد عرفتها خلال إقامتي في باريس. وقُدِّمت إليها خلال احتفال كبير جرى في فندق موريس في العام 1977 احتفالاً بشفائها بعد حادث تزحلقٍ على الجليد في جستاد.

رأيت أن هذا الفيض التفصيلي بدأ يضعضع مخاطبيّ، فاقترحت عليهما الاتصال بالأميرة للتأكُّد من هويتي. غاب الرجلان لحظة ولا أعلم إن كانا هاتَفَا القصر أو اكتفيا بحسن نيتي؛ ولاحظت عند رجوعهما تغيّر موقفهما تماماً.

- سيدي (غدوت «سيدي» في الوقت الحاضر) هل تحتاج إلى شيء ما؟ سألني أحدهما بكل احترام.

أجبت برغبتي في متابعة طريقي مثل أيِّ مسافر عاديٍّ. المعاملة الخاصَّة ستدمّر تغطيتي وتوجّه حتماً أعوان صدام نحوي.

في تلك اللحظة فقط اعترفت أخيراً لزوجتي بالمغزى الحقيقي لرحيلنا. لامتني سريعاً لعدم إبلاغها في الوقت المناسب، ولتعريض أهلها للخطر لمرافقتي في هذا الهرب، أجبتها بأن عائلتها تواجه الخطر ذاته، مع صهر معارض للحكومة أو صهر هارب، وعلى كل حال لا يوجد أحد يلوم زوجة طيبة عند طاعتها لزوجها.

بعد كلّ هذه الأحاديث الطويلة المملّة، أطلّ الصباح واستيقظ الأولاد وكانوا جائعين. ها نحن بعد أن منحت سائق الأجرة نفقات سفره، وقد طلبت منه زيادة في الحذر أن يضعنا أمام موقف أحد الباصات - هكذا لن يستطيع الإجابة عن وجهة سفرنا عند سؤاله - لم يبق معي فلساً واحداً! كي لا أثير انتباه السلطات سافرنا دون أن يملك أي منا أكثر من مئتي دولار للشخص الواحد. كنت أعلم أن إرسال نقود إلى

جهة خارجية يُعَدُّ من الجرائم غير المغتفرة في نظر صدام - إلا إن كان هو مرسلها طبعاً! - وأعرف الوسائل عديمة الشفقة لاستعادة المبالغ المختلسة: التي تتضمن سجن عائلة المذنب وتعذيبها حتى يعود المال إلى العراق مع مرتكب المخالفة. هكذا هجرنا المنازل، والملكيات، والسيارات، والأثاث والحسابات المصرفيّة. بهذا الثمن الباهظ فقط، نستطيع الأمل بالنجاح.

ماذا أفعل؟ لا مجال طبعاً لسحب نقود من المصرف: أو إرسال بطاقة بريدية لصدام. تخليت عن عزة نفسي وكبريائي، وتوجّهت إلى خادم مقهى خلا من الناس وشرحت له أنني لا أملك مالاً، لكنني أحتاج لإطعام أطفالي وسأمر لتسديد الحساب لاحقاً. لم أنهِ عبارتي حتى وضع الرجل الشهم يده على ذراعي:

- لا تقلق بشأن المال إنني عراقي مثلك. كم تحتاج؟

قدّم لي السامري الطيّب ما أشبع نَهَم عائلتي، وسجّلت اسمه وعنوانه لأدفع له لاحقاً.

تركت زوجتي وطفليّ على مقعد ظليل وذهبت لزيارة صديق ثريّ. أحد رؤساء قبيلة شُمَّر الجربا، الفرع الأردني من آل شُمَّر الذين عرفتهم في باريس. في الواقع قدمت لي إقامتي في باريس عوناً ثميناً أثناء الهرب. ذُهِلَ صديقي لرؤيتي أصل دون سابق موعد، وخاصة بهذا الزي المضحك! ذكرت له إنني سأعود فيما بعد لأروي له مغامرتي، لكنني أحتاج لبعض المال لإيواء زوجتي وطفلي تحت سقف ما؟

دون أن يطرح أيَّ سؤال، قدّم لي خمسة آلاف دولار. وعدته بالمرور مساء اليوم نفسه لأشرح له الوضع.

لم نبق في عمان، المدينة خطرة جداً بالنسبة لنا. فالعاصمة الأردنية تعجّ خاصة بالمخابرات العراقية في تلك الفترة، حتى أنّها لُقّبت «عاصمة العراق الثانية». حاول أحد الهاربين، الدكتور راجي التكريتي، أن يختبئ في تلك المدينة، علمت بذلك منذ عدة سنوات. حُشِر دون أيّة مراعاة، في صندوق سيّارة السفير العراقي لإعادته إلى الحظيرة، ولما كان سفير العراق بالذات هو من يقود السيارة، تركت السلطات الأردنية السيارة تغادر دون تفتيش. لم أشأ التعرّض لهذا المصير، ولا لرؤية زوجتي وطفلي يعانون عاقبة الاختطاف.

استأجرنا شقّة هادئة في إربد، على بعد ثلاثين كيلومتراً من عمان. وبعد توقيع العقد تركت زوجتي وعدت إلى قريب قبيلة شمّر الجربا الذي اقترح أن يرسل رجالاً من عشيرته لحراستنا، لكنني اعتذرت عن العرض: رأيت من الأفضل إبقاء الأمر طيّ الكتمان. على كل حال لا أنوي البقاء مدة طويلة في الأردن، وستقتصر على الفترة الملائمة للتحضير للمرحلة المقبلة، إذ من السهل تتبع خطانا إلى هناك.

في اليوم التالي أوقف رجال صدام بعض أفراد من عائلتي الباقين في بغداد والحلة وفتشوا منزلنا بدقّة شديدة. لم أعلم بهذا الأمر إلا لاحقاً، لكنني شككت وأنا في إربد من

هذه الإجراءات. لن يتأخّروا في اكتشاف موقعنا، خاصة وقد تجهّزنا بأوراق مزوّرة، فبدا لي من الأنسب الرحيل إلى تركيا.

باقترابي من القنصلية لاحظت أنه يتم أخذ صور لجميع الداخلين والخارجين. من المتعذر أن أسعى إلى سمة خروج بهذه الشروط. اقتربت من رجل أسأله عن كيفية الحصول على سِمَةٍ دون الوقوف في الصفّ. فأجابني بوجود وكيل سفريات يؤمّن المطلوب لقاء بعض المال: دفعت خمسمئة دينار أردني على كل شخصٍ؛ وتمّ الاتفاق.

بعد بضعة أيام أقلعنا مع مجموعة من مسافرين إلى تركيا. ما كدنا نصل إلى الفندق المستأجر من الوكالة حتى غادرنا دون استئذان من رفاق الرحلة لنلجأ إلى فندق آخر، علمت عند ذلك بأننا لا نستطيع البقاء طويلاً في تركيا القريبة جداً من العراق، حتماً بدأت حملات لمطاردتي.

كانت وجهتنا التالية قبرص التركية، ويمكن بلوغها دون الحاجة إلى سمة دخول. بقينا فيها نحو شهر قبل أن نصل إلى لبنان. لكن ظلّ صدّام كان يخيّم حولنا باستمرار. أصل كثيراً إلى لحظة أعلم فيها بوساطة أصوات مبهمة بأن كلابه الضارية تقترب مني، وعلي الهرب من جديد. تنقلات كثيرة ودفع إكراميات لا نهاية لها من أجل عدم تدقيق هوياتنا التي دفعنا ثمنها غالياً. اتصلت مجدداً أطلب مساعدة الرجل المتفضّل، الذي عبّر لي عن ارتياحه بسلامة الوصول، وتحويله مبلغ عشرين ألف دولار موضوعة لصالحي في أحد المصارف المحليّة (أكدّت له حرصي على تسديد هذه المبالغ

حتى آخر فلس، مثلها مثل بقية الديون التي أمدّني بها أصدقائي في تلك المرحلة الصعبة).

بعد عدة أشهر قضيتها في لبنان حصلت على سمات دخول إلى المغرب. تجوّلنا أولاً في تونس. ومن هناك وبفضل إحدى وكالات السفر وصلنا صقلية، ثم إلى روما، ثم ميلانو! - ومنها مررنا بالحدود السويسرية في القطار! - دون سمة دخول باتجاه جنيف.

خلال إقامتي المؤقّتة في الأردن، عثرت بمصادفة مدهشة، على صديق مصري قديم كنت قد فقدت أثره منذ سنوات. أمر لا يصدق، سبق أن التقينا في ڤيشي على الأرض الفرنسية، وكنا نتبّع دورة في اللغة الفرنسية. لا أعرف إلا اسمه، عادل؛ وجهلت حتى مكان سكنه، لم نلتق منذ العام 1974 وها نحن نجتمع فجأة في بهو فندق إنتركونتيننتال في عمّان خلال أمسية من شهر آذار 1993 وتعارفنا مجدداً وسريعاً.

- عادل؟ تساءلت مدهوشاً.

- هيثم، أهذا أنت حقاً؟

سألني ماذا أفعل هنا فرويت له قصتي. كنت واثقاً منه. أخبرني أنه يتمتع بوضع مميّز في مصر، وأعطاني عنوانه، ووعدته بالاتصال به عند الحاجة.

قرّرت في جنيف أن أستفيد من ضيافته؛ وهكذا أجرينا المسافة العكسية: جنيف - ميلانو - روما - صقلية - تونس ومنها اتصلت بعادل.

يمكنه أن يؤمّن لي ملجأً دون انتظار، إنّما على زوجتي وولديّ التذرّع بالصبر ليؤمّن لهم سمة دخول. تركت عائلتي في فندق آمن ووجب عليهم في النهاية الانتظار ثلاثة أشهر قبل الالتحاق بي في القاهرة.

كنت معجباً بمصر، إنّما عليّ في الوقت الحاضر أن أجد بلداً غير عربي يستقبلني ويمكنني الاستقرار فيه، واستعادة وضع طبيعي بعيداً عن صدام حسين. قررت السفر إلى أثينا ثم إلى تسالونيكي، وزرت بعدها البلقان لأكتشف أن ما من بلد يخلو من الخطر. عدنا إلى اليونان قبل الالتحاق بمصر، وشرحت لعادل بعد تفكير وتمحيص أن هنالك بلداً واحداً نشعر فيه بالأمان: لندن. اقترح علي السفر إلى كندا التي تمنحني تأشيرة الدخول مع عائلتي بطريقة أسهل من المملكة المتحدة. لكنني تمسّكت بفكرتي. حصلت على جوازات سفر مزيّفة دانماركية، دخلنا بموجبها إلى إنكلترا بعد ذهاب وإياب إلى أثينا، منعاً لتعقّب أثرنا. وهي رحلة تكلّف غالياً، عدا عن الخطر المسيطر نتيجة تعقب أثرنا. سافرنا في الدرجة الأولى مع كومة متاع للتمويه. تُراقب أمتعة سفر الأغنياء بشكل أقل تدقيقاً على ما يبدو. وعندما سئلت عن سبب سفري إلى لندن لم أُجب «لألجأ إليها» بل للقيام بتحاليل طبيّة. وهو جواب غريب بالنسبة لدانماركي، وخاصة أنه لا يتمتع بشقرة الشماليين، غير أن رجل الشرطة لم يَبدُ عليه الاستغراب.

بعد أن عبرنا ما لا يقلّ عن سبعة عشر بلداً خلال أكثر من سنتين بقليل، انتهت بنا الرحلة الأوديسية إلى لندن، حيث نقيم اعتباراً من 28 أيلول 1995.

لكن حتى في هذا البلد لم ننعم بالأمن. أنا أعرف أن صدّاماً أمر ابنه وذراعه الأيمن قُصّي بالقبض عليّ. إنّه يريد تدمير الشبكة التي اطلع بواسطتها على الوضع في العراق ـ لأنني بقيت على اتصال مع بلدي ـ وكنت أعلم باضطهاد عناصر صدام من أجل ارغامي على الاعتراف. خصّص قسم كامل من مخابراته، أي نحو مئة عنصر، لمتابعتي؛ وهو شرف تمكنت من مراوغته.

كان من السهل جدّاً اغتيالي، لكن صدام أرادني، لحسن الحظ حيّاً. ولحماية نفسي منه قدر الإمكان، أشعت حيازتي على شبكة أكثر أهمية مما هي في الواقع.

* * *

عند وصولي إلى لندن، قرّرت تنظيم مؤتمر صحفي كبير أُعرِّف فيه عن نفسي. وهكذا، إن نجح صدام بقتلي فسيحدث الأمر ضجّة. فقتل شخصية معروفة أصعب من قتل هارب غير معروف. وهذا هو الحل الأهم لحمايتي. أردت أن أعلن للعالم كلّه ما يحدث في بلادي. فحتى لو هشّمت حرب الخليج صورة صدام الذي كان يُعَدُّ في الغرب زعيماً «متطوراً» وأنه خير سور أمام تنامي الحركات الإسلامية ـ الجمهور العام مايزال يجهل في الواقع المعالجة التي يدّخرها لمعارضيه ولكل شعبه. وبصفتي من المقرّبين للدكتاتور يمكنني أن أدلي بشهادة ذات وزن بهذا الخصوص، وأساعد المجتمع العالمي خاصة في القضاء على سمعته. كنت أرجو التوصل إلى هدم جدار الرعب الذي أقامه صدام حسين بينه وبين شعبه.

ضمّ مؤتمري الصحفي في 12 أيلول 1995 ثلاثمئة وخمسين صحافياً وأثار مشاعر خمسة وعشرين مليون مشاهد عن طريق الأقمار الصناعية. بعد المؤتمر بيومين عبّرت للصحافة العالمية في بلاغ أعلنت فيه عن نفسي عضواً في المعارضة العراقية المستقلّة، وأكّدت أنني لا أنتمي لأيّة حركة سياسية. كنت بذلك أوّل رسمي عراقيٍّ يكسر جدار الصمت، ويكشف للعالم كلّه الوجه الحقيقي لنظام صدام. لا أحد قصّ من قبل وسائل التعذيب والقتل المرتكبة داخل أسوار القصور الرئاسية بالذات، وهذا دون شك السبب الذي دفع الديكتاتور بصورة خاصة إلى إسكاتي.

في يوم المؤتمر حدث استفتاء في العراق ذهب بعض الصحافيين لتغطية نتائج هذا الاستفتاء، وعادوا بسرعة من بغداد للمشاركة في إظهار الحقيقة.

بعد المؤتمر سألني أحد أعضاء الفرع الخاص المكلّف بحماية اللاجئين السياسيين على شاكلتي، وبلهجة تنمُّ عن بعض الاستهجان، مستغرباً عدم التزامي بالصمت وتكوين حياة عائلية طبيعية. أجبت إنّ الواجب يقتضينا أحياناً إسماع صوت الحقيقة، إن أردنا الاستمرار في مواجهتها فعلاً.

أُشير إلى مداخلتي اثنتا عشرة مرة في اليوم نفسه من قبل شبكة الأخبار الأمريكية CNN المنقولة إلى الشرق الأوسط عبر القمر الصناعي MBC.

أفادني إدوَارْد خادم صدام فيما بعد، وكنت أقيم معه على الدوام علاقات ممتازة، أن صداماً كرر وعيده ثماني مرّات عندما شاهدني على شبكة CNN وكان بصحبة ولديه

عُدَي وقصيّ وسكرتيره الخاص عبد حمود (قبضت عليه القوات الأمريكية عند تدخّلها في العام 2003). كان بمنتهى الغضب.

- لا تقتل هذا الكلب! وكرّر لقصيّ.

- أريده حيّاً.

ثم التفت إلى عبد حمود:

- لم يخيل لي قطُّ أن ابن العاهرة يفعل ما فعل.

كانت مدرستي جيّدة إذن...

فعلت كل ما أستطيع لأؤمن على نفسي، إنما بقي علي أن أحمي أولادي. إذا كانت الشرطة البريطانية عرفت كيف تحميني فأنا متيقن أن ابني وابنتي سيبقيان قربي تحت رحمة التهديدات التي يطلقها صدام ضدي. فكّرت في أن أقترح على زوجتي انفصالاً رسميّاً لأحمي بذلك صغيريَّ. لكنني كنت أعرف شجاعتها. إنَّها لن تقبل مطلقاً مفارقتي في هذه المحنة وبعد كلّ هذه التجارب التي عانيناها معاً.

لم يبق أمامي إلا حلٌّ واحد: أن أغدو زوجاً سيّئاً إلى حدّ تتخذ فيه قرينتي قرارها طواعية. عندما ننفصل عن بعضنا ستتوقف ممارسة الضغوط علي من قِبلها ومن قِبل عائلتها وستتمكن فوق ذلك من الانصهار في مجتمع لندن مع طفلينا. تصرفت إذن ككائن خسيس، أدخل في أوقات غير مناسبة، أترنّح سُكراً، أعاشر نساء أخريات وأقامر. لم أدع الفرصة تفوتني، ونسجت الأحداث الماكرة، ولم تتأخّر زوجتي في

إبعادي، ثم ألزمتني بطلب الانفصال. لم أحظ من قبل براحة مثل تلك التي دعيت فيها للمثول أمام القضاء لإجراء الطلاق.

لم يَعُد أمامي حالياً إلا الاهتمام بسلامتي الخاصة ومشاكلي الذاتية ولديَّ منها الكثير. حصل لي غالباً فيما بعد تعذّر اقترابي من طفليّ خلال بضعة أشهر متواصلة لإبعاد صلتي بهم، متيحاً بذلك لبعض سيّئي النية بتوجيه اللوم واتهامي بعدم محبتي لأولادي. وقد وجب عليّ أن أتصل بهم عبر كابين الهاتف دون القدرة على ضمهم بين ذراعي. دام هذا الوضع حتى سقوط صدام حسين.

لاحظت باستمرار مجهولين يتبعونني في الشارع. لم أَعُد أعلم إن كنت قد أصبت بالهذيان، أو أنني معرض لضغوط دبلوماسية تلاحقني، إنما لزمني وقت غير محدد للحصول على وضع لاجئ قانوني. فجأة بدا لي أن جواز سفري لم يعد ساري المفعول أو أن صفحة منه مفقودة... لاحظت رجالاً ينتظرونني أمام شقة بيتي وبادرتهم بالتهجّم عليهم في مناسبات عديدة. إنّهم لا يسعون لقتلي، وإلا لفعلوا، إنهم يريدون إخافتي. هذا التنكيد المتواصل يثقل علي حتى أنني اضطررت للنوم في الشارع مع المتسكعين لأنعم بالراحة. كنت أنزل مزوّداً بغطاءٍ وأتمدد إلى جانب أحد المشردين، وأغمر وجهي بطرف الغطاء لأتمكّن أخيراً من التراخي والنوم.

كنت أشعر مع ذلك ببعض الانسجام مع هؤلاء الأشخاص التعساء. اكتشفت مصادفة في أحاديثي الليلية أن زميلي على

المقعد الملاصق لي عراقي أيضاً. لاجئ مثلي وهو مثلي أيضاً لا يستطيع العمل. ليس من السهل أن أتوجّه إلى المصرف أو إلى أحد الصرافين لأقترض نقوداً لأصدقائي. الملاحقة ستتابعني باستمرار. كنت أعاني باستمرار من نقص المال؛ وعندما يشتد بي الجوع ألجأ إلى مزابل مكدونالد أو إلى البقايا المرمية في المناطق المجاورة، دون خجل من الاعتراف. لكن حتى في اللحظات القاتمة لم أندم لهربي من العراق. من الأفضل أن أتغذى بفضلات الطعام على أن أتناول عشائي في أطباق مذهبة على مائدة صدام. بدا لي أخيراً أنني نجوت من نفوذه السيء.

لاحظ صدام عدم توصّله إلى شيء بحرماني من المال، فعمد إلى تغيير خطته وبدأ بإرسال وسطاء لبنانيين، وفلسطينيين، وعراقيين وإنكليز أو فرنسيين - يحملون لي رسائل فاخرة وصناديق محشوّة بالأوراق المالية. أعتقد دون شكّ مثل كثيرين غيره أن لكل إنسان ثمناً. إن امتثلت إليهم، وفقاً لأقوال أهل الغواية، فسأغدو مليونيراً. صرفتهم واحداً بعد الآخر مبدياً لهم ازدرائي. كنت أعلم أن قبولي بعرضهم يَعْني الرضى بحكم الموت.

لم تكن المحاولة الثالثة أقل مهارة على الإطلاق، فهي تشتمل على عفو دون شروط إن توجهت إلى سفارة العراق في لندن لأقدّم اعتذاري للنظام رسميّاً. كانوا يحسبونني بحق كأحد الأطفال وأنا أذهب بملء خاطري إلى هذا العائق العراقي المسدود على الأرض البريطانية!

سقطت محاولة صدام الأخيرة لإعادتي إلى الحظيرة

العائلية بحظٍ غير متوقع. فقد وفد رسول ذو مظهر رقيق يشرح لي أن والدتي، المريضة جداً، تتبع معالجة طبيّة في إسبانيا، وهي تريد أن تراني قبل أن تسلم الروح. وعرض علي تأمين بطاقة السفر بالطائرة إلى مدريد، رفضتها شاكراً. اشتريت بطاقة سفري غير أن العناية الإلهية تدخّلت في زيٍّ رجل عائد من العراق، الذي أخبرني أن والدتي ليست في المنزل. سألت بحذر إن كان يعلم بسفر والدتي إلى الخارج.

ـ كلا، أجابني، إنّها الآن في السجن.

كدت أعلق بالصنارة تماماً هذه المرة، فلو ارتكبت الخطأ وسافرت إلى إسبانيا فسيتم اختطافي سريعاً وترحيلي في أول وسيلة نقل متوجّهة إلى بغداد.

أمكن لسقوط صدام وحده أن يسكت مخاوفي. أخيراً عدت مجدَداً وأنا حالياً، أشارك في إعادة بناء العراق بوساطة عدة منظمات (حزب العراقيين الخضر الجُدُد، ومشروع تنمية وإعادة إعمار العراق الجديد، والمنظمة العراقية للعدالة والتنمية، والوكالة العراقية لتجديد المعلومات). وأنا أعمل الآن مستشاراً في إحدى الشركات الأجنبية الراغبة في أن تتمركز في العراق والعالم العربي.

علاوة على ذلك فأنا أعمل معلّقاً وبامتياز إلى جانب وسائل الإعلام الأوروبية، والأمريكية، حول المواضيع المتعلقة بنظام الحكم السابق وحول مستقبل العراق

غير أنني تلقيت ولمدة طويلة تهديدات الموت برسائل أو عبر هاتفي الخلوي بينما كان على صدام، الهارب، أن ينشغل

باهتمامات أكثر إلحاحاً من الاهتمام بمعارضيه القدماء.
كان قريبي شيخ فرع شمّر الأردني، ذلك الذي مدّ لي يد المساعدة قبل عشر سنوات عند هروبي، قد قُتِل بعد وقت قريب من موت عُدي وقصي أمام منزله في عمان. بينما يقال إن طبق الانتقام يؤكل بارداً...

2

كان عليَّ أن أخدم قاتل أبي

اسمي هيثم رشيد وهيِّب. وُلِدت في العام 1951 في الحلة من محافظات بابل القديمة على بعد ثمانين كيلومتراً من بغداد، وسط سهول الفرات مهد الحضارة. أنتمي إلى سلالة من التجّار كبار ملّاكي الأرض المقيمين منذ ثمانية قرون في تلك المدينة، التي يشغلون فيها موقعاً من المستوى الأوّل. عمي محمد الوهيّب، بقي مدّة طويلة رئيساً لغرفة التجارة.

اسم عائلتنا الوهيِّب - تعني «الشهم» - وهي واردة من جدّ لُقِّب بهذا الاسم لأنه كان يمنح دون حساب للفقراء. لم يكن لهذا الرجل المتدين إلا عيب واحد سبّب موته، وهو عدم ثقته بالتقدم العلمي. ألمَّ به المرض، ورفض ركوب السيّارة إلى بغداد ليلقى العناية اللازمة. ورغم حزن ابنه «علي» كان يؤكد حتى النفس الأخير أن السيّارة عَمَل من الشيطان.

مازلنا نملك مساحات واسعة من الأراضي في تلك المنطقة، رغم كل ما صادره صدّام قبل وبعد رحيلي. فأنا على كوني من المقرّبين إليه لم أنجُ من جشع الرئيس، الطامع على الدوام في استملاك الأراضي الخصبة. وهكذا استولى في

نهاية سنوات 1970، على أراضٍ من ضفة الفرات تعود إلى عائلتي منذ أجيال عديدة، لبناء قصرٍ له. وعندما استقر في ذلك القصر الرائع، وبالرغم من حراجة الموقف، دعاني إليه لأشهد غروب الشمس على ضفة النهر من شرفته. أَمِلتُ أن أفهمه شغفي بدوري لرؤية هذا المكان -، بل ربّما خطرت لي فكرة تعويض متأخّر - شرحت له أنني غرست بنفسي أشجار النخيل المحيطة بنا. نخلات «برحتي» تنتج أفخر تمور العالم، وقد قدّم لي غرساتها أصدقاء من البصرة، منطقتها الأصلية. هل تعتقدون أن ملاحظتي ضايقته؟ أبداً. كان جوابه ملائماً لنموذجه:

- هل لنا أن نتصوّر أن هذه الأشجار من النخيل ستتشرف بجذب انتباه صدام حسين؟

- في الواقع، كلا، يا سيادة الرئيس. أجبت وفي القلب حسرة.

* * *

غدوت بموت أبي المبكّر رئيساً للعائلة وأنا في الثامنة عشرة من العمر، عدا المسؤولية المعنوية في رعاية أُختين صغيرتين:

كان أبي جنرالاً مقرّباً من الرئيس البكر، وغاب عنا في العام 1969 فيما يسمى «حادثاً». على نسق ما كان يمكن أن يحدث بدوره لي بعد سنوات. صُدِمت عربته عمداً بشاحنة «هوجاء». كان أقل حظاً مني (أو أن سيارته أقل صلابة)، وفقد حياته. جريمته الوحيدة هي صحبته للرئيس البكر حيث يصبو صدام لاغتصاب سلطته. شكّ صدّام بتحالف الرجلين

ضده، وهي نظرة من شأنها أن تقلقه لما يتمتع به أبي وقبيلته من تأثير كبير في البلاد.

كنت أعلم على الدوام أنه قُتل، لكنني لم أكشف قطّ عن ذلك حتى لأمي ولأختيَّ.

بعد وفاة أبي دعاني الرئيس البكر إلى القصر ليقدّم لي تعازيه، وليؤكد لي دعمه إن احتجت إليه يوماً. بفضله ونتيجة لدراساتي الجامعية، دخلت في وظيفة جيدة تعود لوزارة الخارجية. إنما لم نتطرق في أيّة لحظة خلال مداولتنا، أو ما بعدها، أنا والبكر إلى الظروف الحقيقية التي أحاطت بوفاة أبي ودفعت بي إلى ترؤس العائلة.

كان أبي رئيس قبيلة مثل أبيه وجدّه. لفهم التاريخ العراقي يجب الإطلاع على مفهوم القبيلة أو العشيرة. عشيرة صدام بكاملها مثلاً، التكريتيون - سكان تكريت - أوصلته للسلطة، والمعاملة التي فرضها على السكّان العراقيين ليست في الواقع إلّا ازدراء مجموعة وصلت إلى سيادة مهيمنة نحو مجموعات أخرى لم يحالفها النصيب ذاته. وليس من المصادفة أن تتعرّض قوات التحالف لأشد الهجمات والخسائر من قبل العشيرة التكريتية.

منذ أن بلغت السابعة من العمر اعتاد والدي على اصطحابي معه إلى اجتماع مشايخ رؤساء القبيلة، وهو يساهم فيها بصفته رئيس شُمّر، إحدى العشائر الأكثر أهمية

في المنطقة كنت أصغي بصمت إلى مناقشات كبارنا وأتعلّم منهم. كان أبي رجلاً تقدّمياً بمعنى لامبالاته ببعض العادات العشائرية، وخاصة تلك التي تجذّر المظالم القبلية وتشجّع دون وجه حقّ الملكيات الواسعة. علّمني التواضع، الفضيلة الرئيسية في ناظريه، مما دفعني إلى معاناة المشقّات خلال عملي في القصور الرئاسية، لأن أبناء الرئيس لا يبالون بحياة العراقيين، وكنت أبذل المساعي لإبدال أحكام الإعدام بأحكام سجن، عندما تتاح لي الفرصة.

إلى جانب هؤلاء الرؤساء التقليديين تعلمت أيضاً القيام بأعمال المطبخ للاحتفالات الشيعية التقليدية. مثل كثير من العراقيين، أعلنت مع أختّي انتماءً دينياً مختلطاً لأن أبي شيعيٌ وأمي سنيّة (متحدّرة من عشيرة العزّة القوية). قبل أن يتدخّل صدام وحزب البعث ليعملا على خلط وضرب الجماعات والطوائف بعضها بالبعض الآخر، فقد كانت الأديان والمذاهب تتعايش بسلام في العراق مشكّلة فسيفساء حضارة رائعة.

بفضل هذا الانفتاح الفكري تقرّبت إلى آية الله الخميني، الذي درس إلى جانب والد جدّي في الحوزة (المدرسة الدينية الشيعية) في النَجَف، المدينة الشيعيّة المقدّسة في العراق. حتى أن الخميني عندما طرد في تشرين الأول من العام 1978 من العراق، وقد كان لاجئاً فيه بعد طرده من إيران، طلب أن أرافقه شخصياً إلى باريس إكراماً للروابط القائمة بين عائلتينا. أنا المقرب والمتعاون مع الرجل الذي طرده! ربّما فكّر أن وجودي يشكّل حماية له. سافرت معه على الخطوط الجوية العراقية إلى باريس. خلال الرحلة تعرّض لذكرياته مع



والد جدّي. سألني إن كنت متديّناً وأمارس الصلاة. رأيت أن لا فائدة من معاكسته، فأبديت رأيي المؤيّد لموقفه بشدة، إنّما دون تحديد، وذكرت له أنني من هواة الشمبانيا!

بعد دراستي لدى الآباء الأمريكيين في كليّة بغداد تابعت دراسة الحقوق والعلوم السياسية في جامعة المدينة، ونلت الأستاذية في العام 1971، ثم شهادة الدكتوراه في العلاقات والمنظمات الدولية العام التالي. عملت دائماً بجدٍّ وبشكل كبير. تابعت لإتمام دراستي محاضرات مسائية في علم النفس واللغة الإنكليزية، والفرنسية، وكنت أتردد باستمرار على المعهد الفرنسي في العاصمة، وأكنُّ هوىً حقيقياً لكتابات جان بول سارتر.

في نهاية دراساتي سألني الرئيس البكر إن كنت أرغب في العمل الحكومي، وبما أنني محبٌّ للأسفار اخترت وزارة الشؤون الخارجية، وعيّنت في دائرة البروتوكول.

* * *

النجاح في مهمة ليس دائماً في مصلحتنا، لم أتأخر في كشف الواقع بالتجربة والاختبار. كنت أعمل في دائرة البروتوكول في الوزارة عندما تعرَّفت على صدام حسين في العام 1973، وكان آنذاك نائب رئيس للبكر (أحال الأخير للتقاعد في 16 تموز 1979). كُلفت بتنظيم عشاء رسمي لرئيس الوزراء التشيكي في حفل يترأسه صدام. أظهر العراق مزيداً من البذخ لاستقبال ضيفه، وأذكر ترف الترحيب في قدوم الضيف. شاركت بالعشاء كمترجم. أما صدّام فقد تصرّف كرئيس دولة.

على نَسَق طغاة كثيرين كان يحبُّ الأبّهة. أُعجب بما أنجزت من عمل لإنجاح تلك الأمسية، فطلب من حارسه الشخصي صباح ميرزا أن يستفسر عن وضعي الشخصي، سواء على المستوى الخاص أو المستوى المهني.

بانقضاء الأسبوع طُلبت إلى مكاتب قيادة الثورة حيث يعلم كل فرد أن صدام يسيطر على مكاتبها. كنت في وضع قلقٍ وعانيت كل متاعب الدنيا لإخفاء مخاوفي وتوتّري عندما أعلمني النقيب علي العبيدي، أن صدام ذاته يريد لقائي. لم أكن أعلم ما ينتظرني وتوقّعت بارتياب أسئلته. دام لقاؤنا عشر دقائق، خُيّل إليّ فيها أنها دهر طويل. بينما كان صدام يطرح أسئلته بدا لي إن الطبيعة غيرت قوانينها وإن الدقيقة ليست ستين ثانية فقط، بل هي سنوات كاملة... استعدت بعض هدوئي وأنا أردُّ على أسئلة سيّد المكان، دون مواربة، لكنني كنت أجهل سبب استدعائي على الأقلّ هل كان مسروراً لتعرّفه بي.

عند خروجي من مكتب نائب الرئيس التقيت مجدداً بالنقيب علي، كان آنذاك يحمل هدية لي: ساعة ذات سلسلة من ذهب. جوهرة لم أشهد أو أملك مثيلاً لها من قبل. غير أن دهشتي تعدّت الأمر لأنه قدّم لي ظرفاً، اكتشفت احتواءه على خمسة آلاف دينار، وهو مبلغ يسمح، في حينه، بشراء منزل جميل في بغداد!

بدوره هنّأني عدنان الحمداني مسؤول الترجمات في المجلس على جهودي في تنظيم العشاء الفاخر، وأعلن لي عن نيّته في تكليفي بمركز مناسب داخل مكاتب صدّام حسين نفسه.

كنت بالتأكيد واعياً للمهمة التي تنتظرني إنّما دون وهم عن الرجل الذي سأعمل لديه مباشرة، فبرؤيتي أرفع مقاماً يرفع عني كابوساً لأنني سأخدم مباشرة ويومياً الرجل الذي قتل أبي منذ أربع سنوات، غير أنني لا أملك الخيار: إذ أني لن أرفض مركزاً إلى جانب رجل الحكومة القوي.

غير أنني نجحت بالتعديل لالتماسي خلال مقابلتي التالية مع صدام الإذن «بتحسين لغتي الفرنسية لخدمة سيادتكم». الواقع إن كانت لغتي الإنكليزية صحيحة فإن فرنسيتي تحتاج إلى تقويم. نجحت المناورة ووافق صدام على إيفادي لدراسة اللغة الفرنسية في باريس. عندما أعلمني مدير المكتب بنقلي المتوقّع إلى قصر الرئاسة أمكنني الإجابة بأن سيادته قرّر إرسالي أولاً إلى باريس. بذلك ربحت استراحة - ورحلة!

في العام 1973 نُقِلتُ بأمر من صدَّام إلى البعثة الدبلوماسية العراقية في باريس، وكان يديرها في تلك الفترة صالح مهدي عمّاش وقد عمل سابقاً في موسكو. وجب عليّ إلى جانب عملي في السفارة اتباع حلقات الدرجة الثالثة في الجامعة. هكذا حصلت في العام 1976 على درجة الدكتوراه في العلاقات الاقتصادية الدولية من السوربون، ثم بعد ذلك بعامين، ومن السوربون أيضاً، على دكتوراه العلاقات السياسية الدولية. هذا سيدهش دون شك أولئك الذين يسمعونني الآن، لكنني أتقنت الفرنسية بشكل مقبول آنذاك.

* * *

عرفت باريس وكنت قد زرتها لأول مرّة وأنا في

الخامسة عشرة بمفردي، مع ما اقتصدته من نقود. وعدني أبي بإجراء رحلة، وأجبته إن مدّخراتي تكفيني. في النهاية سدّد ثمن بطاقة السفر بالطائرة وأمدّني بألفي فرنك. رغبت بزيارة مدينة البؤساء والأوديون، ليون والساحل اللازوردي... حاولت أن أذهب لأشهد استعراضاً في الطاحونة الحمراء لكنني منعت من الدخول لصغر سني!

في هذه المرة كان مقامي مختلفاً. أُنزلت أولاً في شقّة فاخرة من فندق جورج الخامس . وهو أمرٌ لابأس به بالنسبة إلى ملحق ثقافي حديث العهد في السفارة، فقد كانوا يعلمون بالتأكيد أنني أعد من المقربين لصدام.

إلى جانب الوظائف المكلّف بها في السفارة، وجب أن أتعلّم اللغة الفرنسية، فسُجِّلت أولاً في معهد برليتز. خلال شهر من الدروس الخاصة بدا لي أنني راكد مثل ماء آسن. استشرت مديرة المعهد. أذكر أنها ابتسمت وهي تقول لي:

- سيّد وُهيِّب، اللغات، ليست برميلاً من البترول!

ما ينقصني هو الممارسة العمليّة. ليكن. لكن ما هو الحل المقترح؟ دون أيّة حيرة استدعت السيّدة شابة شقراء ذات عينين خضراوين وأعلنت لي:

- أقدم لك كارول. اعتباراً من الآن ستكون صاحبتك.

دُهشت.

- لماذا؟

- في فرنسا مَثَلٌ سائر يقول إن أفضل مدرسة هي السرير. وبالفعل إن أفضل وسيلة لتعلُّم الفرنسية هي الخروج

مع فرنسية. أضافت معلقة: لحسن التطبيق عملياً يجب أن تقيم كارول لديك.

ـ غير أنني لا أعرفها! ثم من الممكن ألا أعجبها؟

لا أعلم من أين جاءت هذه الفكرة. من المديرة الرومانسية قليلاً أو من كارول التي أعجبتها. وهكذا وفدت شابة مجهولة لتشاطرني المعشر لثلاثة أشهر من تعلُّم اللغة الفرنسية.

لم أكن أعلم إن كانت السفارة تنظر بعين الرضا لهذه الطريقة التربوية على قِلّة أدبيها، فرأيت من الأفضل ألا أفشي سرّ شريكتي في الإيجار. اكتشفت بعد فترة وجيزة أن صديقتي يهودية، وهذا لا يرضي قطّ الحكومات العربية التي تشك على الدوام برؤية عملائها يقعون بين مخالب جاسوسة موساد حسناء.

عرفت هذا التفصيل مصادفة، عند لقائي على مدخل المنزل ـ وكنت أسكن من الآن فصاعداً شقّة جميلة مجهزة بمصطبة على جادة فوش ـ فقد لاحظ زميلي في السفارة، أن كارول تحمل حول عنقها نجمة داوود السداسيّة الصغيرة، فأخذني جانباً بسرعة:

ـ أتخرج مع يهودية؟

ـ ما سبب اعتقادك أنّها يهودية؟ أجبتُ بصورة قاطعة تنمُّ عن سذاجتي.

نوّرني بما لا يدع مجالاً للشكّ؛ وأدركت أن هذه القضية تلحق بي الضرر، فأسرعت إلى الإدعاء بأن هذه الشابة ليست

صديقة لي، بل هي جارتي عند سلّم الدرج، وحييت كارول وانطلقت مع زميلي.

عند عودتي مساءً شرحت القضية إلى «شريكتي في السكن»، ولحسن الحظ كانت الأشهر الثلاثة منتهية. قلت لها إنني أعرّض نفسي للخطر بخروجي معها والاستمرار في رؤيتها. بدت متأثرة بفسخ هذه العلاقة وأظهرت تعلقها بي؛ ووجب عليّ أن أظهر بعض النذالة لتنفر من رؤيتي.

لُدِغْت بالتجربة فقررت التخلي عن معهد برليتز. بفضل كارول أصبحت أتكلم الفرنسية وأتمكن أن أنتسب إلى السوربون.

تعهّدت صديقة جميلة أخرى بتحسين مظهري. يجب الاعتراف بأنني لم أكن أنيقاً على نسَقَ معظم الطلاب الشرقيين. كنت قد تعرّفت على شانتال بعد وصولي إلى باريس ذهبت إلى مطعم «دوم» في جادة مونبارناس بناءً على توصية بوّابة فندق جورج الخامس. كانت المائدة المجاورة لي مشغولة بشابة رائعة الجمال، سمراء ذات عينين حالمتين مع أناقة باريسية، وكانت خلافاً للمألوف تقرأ رواية «الشيخ والبحر» لهمنغواي باللغة الإنكليزية.

طلبت طبق حساءٍ مطيب ببقول معطرة: بما أنني أملك نقوداً فلماذا لا أنتهز المناسبة؟ لاحظت أن جارتي رمقتني بنظرة مندهشة. لم أبلغ الخامسة والعشرين! وبعد لحظة دفعها الفضول إلى سؤالي بالإنكليزية عن البلد الوافد منه.

ـ من العراق أجبت.

ـ من إيران؟

ـ لا من العراق.

ـ وماذا تفعل في باريس؟

ـ إنني طالب (وهذا سبب إقامتي الرسميّة في باريس، ولم أرد كشف علاقتي بالسفارة).

ـ أراك تسخر مني!

ـ لماذا؟

ـ لأن الطلاب لا يتعشون في الـ «دُّوم» ولا يرتدون هذا الزيّ، وليس لهم سائق ينتظر عند الباب.

ـ آه، قد أكون طالباً ذا وضع خاصّ جداً؟

ضحكت. عرضت عليها أن نضمّ الطاولتين، رضيت وجَلَست في مواجهتي. عرفت أن اسمها شانتال وأنّها تعمل في قسم التجميل لدى ديور. سألتني بعد العشاء عن مشاريعي في السهرة، وأضافت أنها ستذهب للرقص في تلك الأمسية. وبما أنني لا أعرف العاصمة جيّداً، فقد اختارت علبة ليل، نسيت اسمها، في شارع فرنسوا الأول.

ألِفت فيما بعد طراز الحياة الباريسية في السبعينيات: ريجين ـ إليزيه ـ ماتينيون ـ أڤتور ـ نادي المغنية داني... غير أنني توقّفت عن زيارتي لهذا الموقع الأخير بناء على نصيحة أحد أمناء السرّ في السفارة، الذي أكّد لي أنه يُعّد مأوى شهيراً لعملاء المخابرات الفرنسيين، وخشيت أن أقع في الفخّ. جهلت حقيقة الأمر وفضّلت الامتناع درءاً للشكوك عن ارتياد المكان.

أيّاً يكن الأمر عند خروجنا ذلك المساء من علبة الليل اقترحت على شانتال أن نصعد إلى شقتي لاحتساء شراب ما. أُعجبت بالفكرة، وأظهرت بالفعل إنني طالب خارج عن المألوف.

ـ من أنت؟ سألتني مجدّداً.

اكتفيت بالضحك.

ـ سأهتم من الآن فصاعداً بك، أبلغتني.

ـ بأيّة طريقة.

ـ بكل الطرق الممكنة!

عندما نقلت هذا الجواب الأخير لصدّام حسين، أثناء زيارة إلى بغداد، اعتبرها مثيرة للضحك، وسألني إن كانت صديقتي ماتزال «مهتمة» بي. أجبت نعم، فقدّم لي عندئذ هديةً هي عبارة عن طقم مجوهرات مزيّن بالألماس تقدمة منه «لصغيرتي الفرنسية». أهديته لأمي: كنت أحب شانتال، لكن ليس لدرجة تغطيتها بالأحجار الكريمة!

إنني أدين لها بكثير من حسن الهندام. لقد أفهمتني شانتال بعدم زيادة التأنّق في الملبس، إنّما يكفي المجانسة فيها وإكمال لواحقها. أضافت إن عطري دون المستوى المطلوب؛ وجعلتني أتبنى «سوڤاج» من ماركة ديور المتميّزة.

* * *

أجرى صدام خلال إقامتي في باريس زيارتين رسميتين للعاصمة، بدعوة من الرئيس ڤاليري جيسكار ديستان ورئيس

وزرائه جاك شيراك، وكانت الأولى في آذار 1975 والثانية بعد ذلك بسنة واحدة. لم أحضر اجتماعات الوفد العراقي مع السلطات الفرنسية، لكنني أعددت مجموعة وثائق سرية من أجلها. علمت بإجراء مناقشات تجاريّة، وشراء بترول ومعدّات محتملة من اليورانيوم المخصّب لمفاعل تموز النووي.

أذكر أننا أعددنا للمناسبة مائدة فخمة يُقدَّم فيها بشكل خاص سمك عراقي مميز، إنه يشبه السومون قليلاً وهو يُصاد في دجلة. سألني صدام ما يثير اهتمام الفرنسيين من الناحية الغذائية. فأجبت إن تلك البلاد تتمتع بمقوّمات استثنائية جداً، إنّما ليس السمك «المسقوف» الخاص بنهرنا. حطّت طائرتان تحملان المؤن الضرورية لتلك الوليمة العراقية. استخدمت إحداهما لنقل السمك خاصة، والثانية لإحضار الطهاة الأكفاء لتقديمه بالطريقة التقليدية. يفتح هذا السمك في الواقع من ظهره لا من بطنه لإفراغه، ثم يُشوى بعد بسط قسميه على وهج نار هادئة من الحطب مما يضفي عليه نكهة لذيذة مميّزة - إنّه متعة - وهو يقدم مقترناً بالمشروبات المتنوعّة. وقد طلبت بعض الحلويات العراقية الخاصة التقليدية مما يُقدم في الحفلات والأعراس، وهي المثيرة للذكورة. عندما قصصت النكتة الطريفة، حملت عدة سيّدات كميات صغيرة في أكياس خاصّة من الورق أودعنها في أسفل حقائبهن النسائية. كل ذلك تحت نظر صدام المنبهر والمقدّر.

يضاف إلى ذلك برميلان من الـ Pickels «حموض كيميائية منظّفة» لسكبها في حجرة القيادة، وبذلك ترتفع الفاتورة

الباهظة الثمن إلى ستة وسبعين ألف دولار كلفة تنظيف الطائرة! غير أن صداماً عبّر عن سروره بنجاح الاحتفال.

* * *

منذ وصولي إلى باريس، كانت تشغل بالي فكرة ملحّة: وهي خلو العاصمة من تمثيل لبلدي جدير به. إيران منافستنا التقليدية تمتلك في ذلك الحين «منزلها» الخاص في الشانزليزيه والحسد يستبد بي كل مرّة أمرّ أمامه. غدا امتلاك واجهة مماثلة للعراق بالنسبة لي هاجساً. في العام 1979 غدا صدام رئيساً، واقترحت عليه وسيلة ليتمثّل العراق في «أجمل شارع في العالم»: إقامة مكاتب شركة الطيران العراقية في تلك الجادة. أعجبته الفكرة وطلب موافاته بقطعة من الورق. بالطبع لم تكن بحوزتي. انتهى إلى الكتابة بسرعة على ظهر دفتر شيكاتي لشراء منزل في الشانزليزيه لرفع السارية لشركة الطيران الوطنية العراقية! هكذا أخذت شركة الطيران العراقية مكانها في الشانزليزيه.

* * *

في شهر كانون الثاني 1980 دُعيت إلى بغداد، حيث انتدبت من وزارة الشؤون الخارجية إلى المكتب الشخصي لصدام حسين، وكُلفت بشؤون البروتوكول.

عندما أعلنت لأمي أنني سأعمل من الآن فصاعداً في القصر الرئاسي انهمرت دموعها. كانت تجهل على الدوام أن صدام مسؤول عن موت زوجها، ولم يكن من المناسب أن تنتبه في الواقع لهذا الأمر! غير أن غريزتها الأمومية كانت تحدثها عن انخراطي في طريق خطر، وبالرغم من أنّها لا

تتعاطى الأمور السياسية تجنّبت التطرق إلى الموضوع، وهي لا تكنّ للرئيس إلا احتراماً تافهاً. هو في رأيها وصوليّ لا يؤمن له. وكما يقال في العراق «قلب الأم دليلها». غير أنّ لا خيار لها إلّا أن تتظاهر بالقبول، وتقبل تسميتي بمظهر اعتزاز. ومثل سائر الشعب العراقي تعلّمت التألُّم بصمت، وتحمُّل، دون شكوى أو تذمّر، مما تفرضه الحياة.

عندما سألتها عن سبب بكائها ـ وكأنني أجهله ـ أجابت إنّها لا تعلم ما حصل لها. هي لا تجهل أن لا خيار أمامي إلا القبول مع ابتسامة للتسمية، غير أن توصيتها الوحيدة كانت:

ـ افعل كل ما سيطلبونه منك، لا تعارض هؤلاء العتاة وإلّا سيقتلونك.

الواقع، لم يؤدِ بدء العمل في القصر الرئاسي إلى تهدئة مخاوفي، مما سنتحدث عنه لاحقاً. غير أنني بقيت رئيساً للبروتوكول في القصر الرئاسي من العام 1980 إلى العام 1993.

3

ولادة وحش

ولد صدام حسين في 28 نيسان 1937. وفد إلى الدنيا في بيت بسيط من العُوجة (تُلفَظُ أحياناً العَوجَا) الواقعة على بعد ثمانية كيلومترات جنوب تكريت شمال مركز العراق، في قلب إحدى المناطق الأكثر فقراً في البلاد. العَوجَا التي تعني «الخط المتعرّج» تشغل منعطفاً ضيّقاً على نهر دجلة. وهي ضيعة صغيرة من أخصاص ترابية لا يصل إليها الطريق وهي دون ماء أو كهرباء. بعد أن غدا صدام رئيساً أنشأ فيها قصراً لذويه كلّف به المهندس الفرنسي بويغو، فحوّل المنطقة إلى ركن نعيم على الدجلة. لا يحقّ إلا لعائلة الرئيس من الآن فصاعداً الدخول إلى العوجة: مكان حُرِّم على الغرباء، حتى من سكان تكريت. جدران عالية تحيط بالمسكن العائلي. في أواسط السبعينيات تمّ استثناء الضيف، جاك شيراك، وهو رئيس وزراء، وعمد صدام إلى بناء قصر له مجهز بحدائق نُسخت على الطريقة الفرنسية من بلدة ڤرساي (إنّما بشكل مصغر بالطبع!). ولنا أن نتصوّر ارتباك رئيس المُستقبَل الفرنسي عندما أعلن له صدام النبأ خلال زيارة لبغداد. قام شيراك بزيارة (قصره الصيفي) على ضفاف دجلة، مبدياً

افتتانه بأدب جم، لكنه بالطبع لم يسكنه قطُّ. إنّه يتعلّق طبعاً بهدية رمزية على الطريقة الشرقية، لم يتوقع أحد أن يراه قابلاً لها. شُغِلَ القصر فيما بعد بصدام وعائلته.

غير أن ظلاً من الشكّ يهيمن على ولادة طاغية العراق. بعض المصادر تؤكد إطلالته على الحياة في العام 1939، ولكنه صحّح التاريخ في لحظة قرانه بساجدة، المولودة في العام 1938، لأن التقاليد تنظر بشؤم لزواج رجل بامرأة أكبر سناً منه. إنّما يبدو أن 28 نيسان هو تاريخ مشكوك به، لأنّ مواليد العائلات العراقية الكبيرة وحدهم كان يتم تسجيل ولاداتهم بدقة. لتسهيل مهمة ضابط الأحوال المدنية اشتُهِر عن جميع الفلاحين الصغار تسجيل ولادتهم في الأوّل من تموز. فقط، كانوا مجبرين على تسجيل سنة الولادة بدقة، يقال أنّه نظر بعين الحسد لصديق طفولته عبد الكريم الشيخلي - سليل عائلة كريمة في بغداد - وهو يمتلك تاريخ ولادة (صحيح) أحبَّ صدام استعارته.

لا يمكنِ القول إن ولادته أغرقت العائلة في حبور، فالواقع أن أُمّه صُبحة طلفاح حاولت إنهاء حياتها وحياة جنينها بعد وفاة ولدها ابن الثانية عشرة من العمر (توفي من وَرَمٍ في الدماغ)، أمّا الأب حسين المجيد، فقد توفي بدوره ضحية سرطان رئة وزوجته حامل في شهرها الرابع. كانت صَبْحة أعجز عن الاستمرار في الحياة بعد أن فقدت على التوالي زوجها وابنها. حاولت في البدء أن تلقي بنفسها تحت إحدى العربات - في شوارع بغداد - غير أن السائق كَبَح سريعاً سيارته في الوقت المناسب. في هذه المرّة صممت أن

تشعل النار في جسمها بعد أن غمرته بسائل سريع الاشتعال، لحسن حظها، وليس لحسن حظّ العراق ـ شاهدتها عائلة مجاورة لها وهرعت لنجدتها. من سخرية القَدَر عندما نعلم أن العائلة التي أنقذت والدته من الحريق يهودية، وهم أهل الجوار الذين نقلوها إلى المستشفى الجامعي في بغداد (وقد سُمي لاحقاً بمشفى صدام حسين).

بعد عدة سنوات تزوّجت صبحة مجدّداً من الحاج إبراهيم الحسن الملقب «حسن الكذاب»، لأنه انتحل كذباً لقب الحاج المدّخر لمن يؤدي مناسك الحج في مكة. أمكن لإبراهيم أن يتخلّى طواعية عن ابن امرأته من زوجها الأول... هذا الرجل المشاكس المتهيء على الدوام للتضارب، عامل الفتى بقسوة، وكان يضربه في كلّ الأيام تقريباً.

ينسب بعضهم قسوته إلى الاعتقاد بأنّ ذلك الفتى ابن غير شرعي، فوالده لم يقترن بصبحة، غير أنّ الأمر يفتقر لدليلٍ فعشيرة صدام لم تتنكّر يوماً للابن الشاب. مع ذلك فهذه الشائعات تترك جراحاً ذات أثر، ففي العراق كما في جميع البلدان العربية يُعَدُّ الولد المحروم من الأب بمثابة «الابن اللقيط» الذي لا يعرف من أين أتى. حتى إن بعضهم فكّر أن صدّاماً ليس عراقياً في الواقع. غير أن هذه الفرضيات تفتقر للواقعية.

أياً يكن الأمر لا تبدو الحياة ورديّة في العُوجة على الدوام، وإذا كانت المنطقة تؤوي بعض المجالات الزراعية

المزدهرة في البلاد، عبر مجتمع شبه إقطاعي في العراق، حيث كان الفقراء لا يتمتعون بأيّة فائدة، فصدّام اليافع ينام على فراش من القشّ، مع البهائم، في كوخ حقير من أرض مبتذلة. أما الغذاء فشحيح: قطعة خبز دهنت بمسحة من الزيت أو الخلّ «اليَخَنة» مع قليل من الأَرز الجاف. كان اللحم عند العراقيين الفقراء طعاماً فاخراً نادراً ما يستهلكونه، ويعوضون عنه بالجبن المحضّر من حليب النعاج أو الماعز.

عَمَد صدام لمساعدة ذويه إلى رعاية الماشية العائلية القليلة. كان بديهياً أن تُعَدَّ أيامه الماضية في الحقول من أفضل ذكريات طفولته. فبعد أن غدا ثريّاً من أصحاب الملايين كان يعمد إلى اللعب مثل أيّ راع في ملكياته الواسعة متنكّراً ببزة تقليدية ومجهّزاً بعصا ضخمة. تسلّت ماري أنطوانيت قبله وعلى شاكلته في قصر التريانون الصغير... حتى لو بذل جهداً طوال حياته ليكون بمنأى عن الحاجة ـ مثل ذويه ـ كي لا يجدّد حرمان طفولته، احتفظ صدّام بكثير من عادات تلك التربية المتواضعة. فهو على سبيل المثال لا يعنى كثيراً بالمآكل الشهية مع الإسراف في إعدادها.

لا يتوافر إلا حلّان لسكان المنطقة: إمّا أن يعيشوا بالتقتير في قريتهم، أو أن يؤجروا خدماتهم عُمالاً زراعيين أو خَدماً في تكريت. غير أن سكان العُوجة وجدوا منذ زمن طويل مورداً آخر لمداخيلهم. استغلوا موقع قريتهم على شرفة عطفة من دجلة، فانصرفوا إلى القرصنة مطالبين «بالضُبا». كانت القوارب تتجوّل عبر النهر، وهو في تلك الفترة الطريق التجاري الأوّل الواصل بين الموصل شمالاً والعاصمة.

الغريب أن اسم القرية يعني أيضاً «الأعوج» أو «غير المستقيم»، وفي فترة شباب صدام اكتسب مواطنوه تلك الشهرة من العنف، حتى أن بعض المحلّات التجارية في تكريت كانت تعمد إلى إغلاق متاجرها عند نزولهم المدينة.

لا يوجد في العوجة مدرسة. أهل اليسر في المدينة يرسلون أولادهم إلى بغداد، أما باقي الأولاد على نَسَق صدام الصغير فعليهم الاستغناء عن المدارس. عدم الراحة وضيق المساكن الملائمة تقود أولاد القرية للعيش في الشارع. صدّام ورفقاؤه كانوا إذن ممن يُسمّون أبناء الأزقة. وفي هذا العالم القاسي وَجَبَ على رئيس المستقبل العراقي أن يقاتل ليخرس ألسنة المتهكمين عليه، ممن يعتبرونه «ابناً لا أب له».

في العاشرة من العمر رحل صدام ليعيش لدى خاله خير الله طلفاح، وهو عسكري قديم طرد من الجيش، معجب كبير بالأيديولوجيا النازية، وقد قضى فترة كبيرة في السجن خلال الحرب العالمية الثانية لمساندة الثورة المضادة لبريطانيا (نذكر أنّ العراق كان واقعياً حتى ثورة 1958 محميّة من التاج البريطاني).

عندما التحق صدام بمنزل خاله كان خير الله معلماً، وبالطبع رأى من واجبه تثقيف ابن أخته ليستدرك تأخره الظاهر. بدأ صدّام على الأرجح تلميذاً موهوباً، يتعلم بسرعة، ويمتلك ذاكرة جيّدة. في مطلع الخمسينيات استقرت عائلة الابن المتبنّى، رئيس المستقبل، في بغداد حيث تولى خير الله إدارة إحدى المؤسسات.

بدءاً من تلك الفترة يمكن أن نؤرّخ لبداية الوعي السياسي أو هل يجب ذكر الطموح لدى ذلك الفتى؟ احتفظ الخال في مسلكه عبر الجيش بصداقات عسكرية عديدة، من بينها أحمد حسن البكر، رئيس المستقبل العراقي، وقد غدا صدام الرجل التالي في الأهمية ووليَّ عهده.

في الخمسينيات ساهم بحماس في التظاهرات ضد حكومة فيصل الثاني، وهو آنذاك ملك العراق. كان من كبار المعجبين بعبد الناصر، الذي تمكّن من الوصول إلى الحكم متخلصاً في آن واحد من الملك فاروق ومن البريطانيين. وتوطّدت شيئاً فشيئاً سلطة صدام زعيماً طلابيّاً. لكنه بعد أن ساهم بالانقلاب العسكري الدامي منهياً بجدارة الملكية العراقية، لم يتأخّر في الإقلاع عن غروره، بهدف المساهمة ـ في 7 تشرين أول 1959 ـ في محاولة قتل رئيس الدولة عبد الكريم قاسم. ألقي به في السجن، وانضمّ إلى حزب البعث، حزب مرشده أحمد حسن البكر، وكان عليه أن ينفى إلى سورية، ثم إلى مصر.

كانت تلك أولى محاولاته في حمل السلاح؛ لكنها ليست أولى أحداثه في القتل. فقد سفح الدم لأوّل مرّة قبل ذلك بسنوات. كانت ضحيته أحد أبناء عمومته سعدون التكريتي وكان يشغل مركزاً هاماً في وزارة التربية. عندما أقال هذا خاله خير الله طلفاح من وظيفته كمدير مدرسة، خاصة بسبب صداقاته النازية السابقة، قضى عليه صدّام في أحد أزقة بغداد القاتمة. أوقف مع خاله لكن سرعان ما أُخلي سبيلهما لانعدام الأدلّة. شائعة ثابتة تؤكّد أنها لم تكن أول محاولة قتل

للرجل اليافع. ففي الرابعة عشرة من العمر حاول صرع أستاذ عاقبه وعاش الرجل متغلباً على جراحه، وأُخمِدت الفتنة في مهدها بعد تهديد عشيرة صدام بالانتقام من المعتدى عليه في حال تقديم شكوى، واكتفى الرجل بمغادرة المدينة.

في كتاب سيرته المرويّة «الأيام الطويلة» يدّعي صدّام قيامه بدور بطولي في الاعتداء على اللواء قاسم. إن صحّ تلقيه رصاصة في ساقه فقد كان دوره ثانوياً جداً في المؤامرة. رغم ذلك يُقدَّر أنّه يتحمل جزءاً كبيراً من المسؤولية في فشل المشروع بسبب رعونته وجبنه.

في منفاه الدمشقي تعرّف صدام حسين على رجل سيؤثر بشكل عميق في تربيته السياسية، ذلك الذي سمّاه «عرّابه» ميشيل عفلق، رئيس حزب البعث في سورية. يُعَدُّ الرجل من الأشخاص النادرين الذين يستمع إليهم الرئيس العراقي السابق ويحترمهم ويصغي إليهم، كان يمثّل «أمل الأُمَّة». غفر صدّام أصوله المسيحية. وبوصوله إلى السلطة طلب من خاله خير الله طلفاح أن يهدي عفلق إلى الدين الإسلامي، وأن يقنعه باعتناقه والإيمان به. ولكن المناورة باءت بالفشل. ربما لأن اختيار صدام لهذا الأستاذ كان سيئاً - فالواقع أن خير الله طلفاح لم يكن المسلم الجيد - (وزياراته إلى باريس كان هدفها الأول حضور استعراضات ملهى الكريزي هورس)! أو ربما لأن ميشيل عفلق كان أكثر تعلقاً بدينه الأول على غير ما اعتقده صدام. غير أنّ صدام لم يكن فظاً مع والده الروحي. قدّم له مجموعة بيوت في شارع فرانكلين روزفلت في الدائرة الباريسية الثامنة بكلفة خمسة وستين مليون دولار، وجعل من

ابنه ممثّلاً للعراق في اليونسكو برتبة سفير يتمتع بالحصانة الدبلوماسية، وعندما توفي عفلق أنشأ لصديقه القديم حَرَماً يمتد لمسافة عشرة كيلومترات.

بعد الإقامة في سورية، استقر المنفي في القاهرة حيث تابع دراسة الحقوق من 1959 - 1961. كان يمارس حياة ماجنة انتهت به مساء يوم بعد إفراط في الشراب وتدخين الحشيش بمغامرته مع عاهرة محليّة رفضت عروضه، لأنها وجدته على ما يقال قبيح المنظر! انتهى به الأمر إلى الوقوع في حادث سير.

كان يسكن على الدوام في العاصمة المصرية، عندما تزوج رسمياً ابنة خاله ساجدة. ابنة خير الله طلفاح. تمّ الزواج بالمراسلة. نذكر أن التقاليد الإسلامية تسمح بهذه الزيجات المتباعدة التي لا تصبح فعالة إلا بعد لقاء الزوجين: ليلة الدخلة.

* * *

في 8 شباط 1963 قام انقلاب بقيادة أحمد حسن البكر أطاح بالجنرال قاسم. غدا البكر رئيساً لمجلس الوزراء إلى جانب الرئيس الجديد عبد السلام عارف. بعد أسبوعين وصل صدام إلى بغداد، وتمّ زواجه الفعلي بساجدة. أهّله ولاؤه وعلاقاته مع الأوساط العليا للحصول على وظيفة غامضة «عضو في المجلس الرئاسي».

لم يربح البكر وأعوانه اللعبة بعد، حيث أقيل من وظائفه في تشرين الثاني 1963 ووُضِع قيد الإقامة الجبرية في منزله وصدرت مذكرة توقيف ضده، فتوجّه صدام إلى دمشق، حيث

أعدّا انقلاباً ضد الرئيس عارف حظي بالفشل: وجب عليه هذه المرّة أن يدخل إلى السجن في نهاية العام 1964. قبل ذلك بعدّة أشهر، في 17 تموز غدا أباً لأوّل مرّة بولادة عُدَيّ. وفق عادات الثوار كانت ساجدة تحمل إليه رسائل من أصدقائه بعد إخفائها في أقماط طفلها. نجح أخيراً في الهرب بوساطة نقل السجّان وشراء حرّاسه.

في 15 نيسان 1966 انتهت ولاية الرئيس عارف بشكل مفاجئ في «حادث» طائرة مروحيّة. اعترف صدّام فيما بعد لأحد أبناء عمومته أنَّه وضع جهاز تفجير في المروحية، بالاتفاق مع البكر. اتفق العرّابان على الاستيلاء على السلطة وقد أصبحت شاغرة، لكن الجار المصري الكبير عبد الناصر كان أكثر سرعة منهما، وأحلّ في السلطة العليا الأخ الشقيق للمرحوم عبد الرحمن عارف.

أخيراً في شهر تموز 1968 تفاهم إبراهيم عبد الرحمن الداوود، رئيس الحرس الرئاسي ورئيس مجلس الوزراء، عبد الرزاق النايف، مع البكر وحزب البعث لإسقاط الرئيس. هذا ما لم يفكّر به أحدٌ من قبل ما دامت شهرة هذه الحركة مكروهةً. لقد اعتقدها القوميون مرتبطة بالمخابرات الأمريكية CIA أو بغيرها من دوائر الاستخبارات الأجنبية. لم يكن ذلك في تلك الفترة مغلوطاً. «وصلنا إلى السلطة في قطار أمريكي»، وفقاً لقول صدام وهو يتهكّم غالباً. سخرية القَدَر، وَجَبَ أن تأتي قافلة أخرى عابرة الأطلسي لتغلق مجدّداً بعد خمس وثلاثين سنة قوس ذلك النظام.

في 17 تموز 1968 كان الرئيس عبد الرحمن عارف في زيارة رسمية خارج البلاد: اللحظة تبدو مثاليَّة لإزاحته واستبداله بحكومة مدعومة من الجيش. فأُعْلِن البكر رئيساً للجمهورية، واحتفظ عبد الرزاق النايف لنفسه برئاسة الوزراء. لم يطالب صدّام لنفسه بأي دور في الحكومة الجديدة، واكتفى ببقائه سكرتيراً عاماً لحزب البعث وأن يمسك بيده جهاز الأمن ليقوده حتى النهاية. غير أن البكر والمقربين منه لم يهدؤوا، كانوا يشكُّون في أن يزيلهم عبد الرزاق النايف ويبقيهم خارج اللعبة بتوزيع مراكز السفراء على المشاغبين منهم...

في 30 تموز 1968 أسقط الثنائي البكر/ صدام حسين حكومة عبد الرزاق النايف، وبذلك أمكن للتطهيرات أن تبدأ. كان الرجلان يتكاملان بشكل عجيب: «إنّهما الرأس والساقان». فيما بعد عندما وصل صدام إلى قمة السلطة، امتنع بصورة عامة عن حمل السلاح بنفسه: سيكتفي بمنح مسدس أو رشاش لعضو في مكتبه أو لمستخدم في القصر ليقوم بالمهمة القذرة. إلّا في حالات استثنائية، فبعد فترة وجيزة لانسحاب القوات العراقية من الكويت دعا اللواء الممتنع عن استخدام الأسلحة الكيميائية وبصق في وجهه. «أنت تبصق في وجه من عانقته سابقاً»، صرّح اللواء. تناول صدّام بسرعة سيفاً وغرزه في قلب الرجل.

«استقال» الرئيس عارف بشكل مهذّب. كما وجب على البكر أن يفعل لاحقاً، في نهاية عام 1963. أعلن لوسائل الإعلام «انسحابه من الحياة السياسية ليبقى في بيته ربّ عائلة طيبة». طبعاً كان سبب انسحابه الحقيقي مؤامرة مُدبَّرة.

سُمّي فيما بعد سفيراً في تركيا كما أن عبد الرزاق النايف الخائن غدا بدوره سفيراً. عمد صدّام إلى قتله في سنوات السبعينيات أمام فندق لانكستر غات، في لندن. وأُرسِل اللص الرابع الداوود إلى الأردن، وسمي المشرف العام على القوات العراقية في الأردن، حيث قام بتوقيفه اللواء النقيب.

غدا البكر رئيساً في كانون الثاني 1969، وعيّن صدام معاوناً للنائب العام في مجلس قيادة الثورة ونائباً لرئيس جمهورية العراق.

عُدَّ شهر تموز 1968 من الآن فصاعداً في التاريخ العراقي، «شهر الثورة».

* * *

بعد بضع ساعات من استيلاء حزب صدّام على السلطة قال الأخير لأخيه غير الشقيق برزان: «انتهت أيام الفقر. من الآن فصاعداً ستكون لنا اليد العليا على جميع خيرات العراق». لم ينس أيام القِلَّة التي دمغت مرحلة طفولته.

سجّلت سنوات السبعينيات صعوداً رائعاً لقدرة صدّام حسين التكريتي، كما كان يُسمّى في تلك الفترة للتذكير أنه مع البكر ينتميان إلى قبيلة واحدة.

حاول البكر في العام 1978 لجم طموحات رجله الثاني الذي كان يهدد بخروجه عن السيطرة، لكن الوقت فات. مشروع وحدة سورية والعراق في الانضواء تحت راية حزب البعث وحده يمكن إيقافه. لكن الرئيس السوري حافظ الأسد تردَّد، موصداً الباب أمام العراق.

في العام 1979، وصل صدّام إلى رئاسة الجمهورية ملزماً

الرئيس أحمد حسن البكر على الاستقالة من مركزه «لأسباب شخصية». نحّى في المناسبة نفسها جميع المستحقين والموظفين الآخرين من أعضاء حزب البعث ممن اعتبرهم منافسين له.

* * *

غدا صدّام حالياً مساوياً لأبطاله ونماذجه، حيث تثير قائمتهم الدهشة. في الواقع على الرغم من كرهه الإيديولوجي المعلن للشيوعية - أزاح بسراياه المميتة جميع الشيوعيين البارزين في العراق، وهم نحو خمسين ألف شخص - كان يُكنُّ إعجاباً غير متوقّع لعدد من الزعماء الحُمْر، وخاصة ستالين، الذي كان يصفه بكل طيبة خاطر «الرجل الشريف جداً»، وقد أوحت له طرائق حكمه باتّباع الأسلوب نفسه. فقد سجّل في المناهج الثانوية كتاباً يخصُّ دور ستالين العسكري خلال الحرب العالمية الثانية. كما كان يُقدِّر أيضاً خروتشيف وماو تسي تونغ. سئل عن هذا التناقض الظاهر فبينَّ إنّه من المعجبين بالولاء الوطني الذي لا لبس فيه لهؤلاء القادة. وسار على نهجه كقائد كبير في الغوص دائماً محاطاً بأسطول من المعجبين - هم في الواقع حرسه الخاص. هو يعتقد إنّ ذلك يظهر حيثما وُجد محبة العراقيين والحظوة بدعم شعبي.

يُعَدُّ فيديل كاسترو أيضاً من أصدقائه المقربين. بالرغم من تنافسهما أحياناً على التفوق داخل بلدان عدم الانحياز(*).

(*) بلدان عدم الانحياز: منظمة أنشئت في العام 1961، وهي تضم في الأساس دول العالم الثالث، المهتمة بتشكيل قوة ثالثة مستقلة عن القوة الغربية والقوة السوفيتية.

كان كاسترو يرسل إليه كل شهر علبة تحوي مئة من سيجار «الكوهيبا» المخصّص له. توطّدت صداقتهما بشكل خاص عندما أنقذ الرفيق الكوبي حياته تماماً. كان صدّام يتضايق من الحرارة، كما ينزعج منها جميع سكان المناطق المشهورة بحرارتها عالمياً. ففي العام 1975 وُضع نظام تكييف هوائي في مكتب قصر الجمعية الوطنية، وللاستفادة من معظم الهواء البارد أقام الجهاز المبرّد خلف كرسيّه تماماً. النتيجة: آلام في الظهر انتهت به إلى شللٍ جزئيٍ. حضر أطباء من سويسرا وإنكلترا وفرنسا والولايات المتحدة، لكن لم يتوصّل أيٌّ منهم إلى معرفة سبب المشكلة. كان صدام يستقرُّ في سريره عاجزاً عن الحركة، غير أن جميع هؤلاء النطاسيين أكّدوا عدم تشخيصهم لأيّة مشكلة عضوية. أخيراً أرسل إليه صديقه القديم فيديل كاسترو طبيبه الشخصي الدكتور رفاييل كامبروس، وتمكن الدكتور من حصر المسؤولية بمكيّف التبريد في غرفة المريض. هذه الآلة أدّت إلى ضمور تقريبيٍّ في ظهر صدام. شُفي الرئيس الأعلى لدولة العراق في المستقبل بعد معالجة فيزيائية دامت شهرين. وتقديراً وشكراً لخدمات الطبيب المخلصة والطيّبة أنعم كاسترو على الطبيب بمقعد في اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الكوبي؛ كما سمح صدّام بدوره للطبيب بالحضور إلى العراق سنوياً لتمضية إجازته.

كانت مقبرة العظماء (البانتيون) في أفكار صدام حسين تستقبل بتشويش كبير، وينستون تشرشل، (وهو ميكافيللي

اعتنق شعار فلورنتين «الغاية تبرر الوسيلة»)، المارشال تيتو وغاندي (لأجل أدوارهما المحترمة في حركة دول عدم الانحياز)، جمال عبد الناصر (قدوته)، كينث كاوندا، ديغول، وجيمس بوند! مجمع النخبة الأقل انسجاماً...

حدّثني أحد الوزراء أن صدام عندما كان نائباً للرئيس سنحت له الفرصة للقاء بناصر في العام 1969. في نهاية المداولة سأل الزعيم المصري الوزير المتحدث، مشيراً إلى صدام، كيف تسنى للبكر العثور على «هذا الفتى».

- كن حذراً منه: إنّه أحمق ووغد، أضاف.

إنّه حكم منصف تقريباً... ولكن عندما نقل الوزير المعني الحوار إلى البكر، عقّب الأخير بالقول إنّه لا يثق بجمال عبد الناصر، الذي ما فتئ يتآمر على الحكومة العراقية. وهكذا بقي الإخطار دون أيّة قيمة.

بالمقابل، في نظر صدام حسين، ما من رئيس أمريكي، يبدو جديراً بأثرٍ يتركه للتاريخ. كان يشرح ارتيابه بواقع أن الرؤساء في الولايات المتحدة نادراً ما ينتخبون بما يزيد عن 51% من الأصوات. وهذه الأغلبية ضئيلة جداً ولا تمكِّنه من العمل وفق سلطة حقيقية... ما يثير الشعور بالفعل انتخابٌ بنسبة 100% من الأصوات! هذا ما يفسّر دون شك الفكاهة الجارية بمناسبة الاستفتاء الشعبي في العام 1995 وقد جرى بمناسبة غريبة في ذات الوقت الذي تمّ فيه مؤتمري الصحفي اللندني الأوّل. فقد استفتي الشعب بمناسبة التجديد للرئيس لمدة سبع سنوات. وكما كان متوقعاً، وصلت نسبة القائلين «نعم» 99.66% من المقترعين.

ـ رائع، يا صاحب السيادة: بضع عشرات من الأصوات لم يجيبوا بنعم، أعلن له أحد مستشاريه. ماذا تطلب أكثر من ذلك؟

ـ وافني بأسمائهم! عقّب صدام.

مع ذلك كان بطله الحقيقي، دون شك... صدّام حسين نفسه، الذي أعاد كتابة وتجميل أسطورته الخرافية في كل لحظة. كان مستعداً أن ينفق ثروة ليأتي نسّاب مجامل «ويكتشف» أنّه من سلالة الإمام عليٍّ، صهر النبي.

كان هدفه أن يغدو الزعيم العربي، وصاحب النفوذ الأكثر أهمية في الشرق الأوسط والخليج. جَهَد أن يخلق فراغاً حول الرئيس المصري أنور السادات، وأن يعمد إلى طرده من الجامعة العربية بعد التوقيع على اتفاقيات كامب ديفيد في العام 1977. كان السادات قد نظم مؤتمراً عربياً، مما دفع صدّام لإقامة مؤتمر آخر تحت قيادته الخاصة. لكن موقف رؤساء الدول المدعوة كان واضحاً بعدم قبوله في الموقع الذي أعد نفسه له، والذي اقتنع أيضاً أنه أهل له. ولهذا فإن العقيد القذافي، الزعيم الليبي، سمح لنفسه بالوصول متأخراً خمساً وعشرين دقيقة، مدَّعياً أنه آت من زيارة أحد كبار أعمامه، موسى الكاظم، أحد الأئمة الأكثر احتراماً لدى الطائفة الشيعية، في بغداد مقرّ إقامته! أما صدام فقد أرغى وأزبد من الغضب.

4

رئيس البروتوكول

بعودتي من باريس غرقت مجدداً في الوضع العراقي، بعد أن ابتعدت عنه خلال السنوات السبع الأخيرة. غدا كل ما كنت أعرفه عن صدام حسين في مركز ثانوي، حتى لو استمعت إلى حكايات عديدة عن إساءته وشرور النفوس اللعينة العاملة معه. بدا لي كل ما كنت أراه من شقّتي في شارع فوش أو من السفارة في حي لافيزاندري، في الحي الخامس عشر، ضرباً مشوباً بالأوهام. غير أن بضع ساعات كانت كافية لتذكّرني مع من سأعمل جنباً إلى جَنْبٍ...

كنت أتوقّع بنزولي من الطائرة، التوجُه إلى أمي لمعانقتها، وترتيب أغراضي والتمتّع ببعض الراحة قبل أن أمثل أمام الرئيس. غير أن صدام أعطى تعليمات مخالفة كليّاً: سريعاً إلى القصر. حيث قام أحد أنسباء الرئيس ورهط من سبعة أو ثمانية حراس باصطحابي إلى جولة في أرجاء الأمكنة. للإيضاح: كان القصر الرئاسي في بغداد ضخماً لا يقتصر على مبنى بسيط، بل إنّه مدينة حقيقية داخل المدينة، مجهّز بسجونه ومطاعمه وعيادته الخاصة الفائقة الحداثة،

حيث يوجد في الطابق التحت أرضي تجهيزات الراديو والتلفزيون، وهي تعمل بشكل دائم أربعاً وعشرين ساعة متواصلة.

فجأة، وفي منعطف حديقة، وصلنا إلى بهو مايزال رطباً بالدم. هناك رأيت جثامين جُثَثٍ مضرّجة بالدم ومعلّقة على أعمدة إنارة. شُرحَ لي إنّها جثامين عشرة من الخونة ـ الحرب مع إيران محتَّمة والمناوشات متكررة على طول الجبهات ـ حتى أن «عمَّنا»، هكذا وجب علي من الآن فصاعداً أن أعتاد على مناداته، نفّذ شخصياً حكم الإعدام بهم. لم يكتف بقتلهم؛ بل أفرغ رشة من الكلاشينكوف في جسد كل منهم. ومن هنا انتشر الدم الذي لطّخ أرجاء البهو. وجب أن تُعرَض الجثامين عدة أيام، عبرة لمن يتصوّر أن بإمكانه خيانة صدام. علمت بعد ذلك أن جميع الحاشية في القصر استفادت بإحكام دقيق من هذا الإنذار ذي الصنف الرديء.

بعد هذا الاكتشاف المرعب قمت بزيارة المكاتب الرئاسية قبل أن أستدلَّ على المكان الذي سأشغله. لم أدخل إلى مكان صدام ـ لا يمكن الدخول إليه إلا بدعوة معجّلة من الرئيس. اكتشفت فيما بعد أنّه قد خُصَّ بقاعة فسيحة، قاعة رقص حقيقية تشغل مساحة مسبح أولمبي مع فتحة مزججة عريضة تطلُّ على حدائق القصر.

اكتشاف جديد مزعج آخر كان ينتظرني. علمت في الواقع أنني لن أعود إلى منزلي هذا المساء. يجب دائماً أن نقضي ليلة من كل ليلتين على الأقل في القصر خلال الأزمة، ويحصل لنا أحياناً عدم مغادرة الأسوار لعدَّة أشهر! حدث لي خلال

السنوات الثلاث عشرة الماضية قضاء ليالٍ في القصر تزيد عن تلك التي قضيتها في منزلي.

سمح لي في اليوم التالي بالذهاب لتحية أمي. ارتميت بين ذراعيها:

ـ ماذا فعلت لأستحق ما جرى لي؟

كان المشهد الذي جرى لي عشية ذلك اليوم كافياً ليؤكّد لي الحالة التي كانت ماتزال تراودني دون شكّ في ذلك الحين عن تعذّر انسحابي من ذلك المستنقع...

بصفتي رئيساً للبروتوكول المرتبط بمكتب الرئيس الخاص كنت أشغل موقع معاون خاص يساندني رديف لي. كان علي الوصول في الساعة السابعة والنصف صباحاً موعد استيقاظ صدام. كل يوم يجتمع كبار الموظفين أمام مكتب الرئيس ينتظرون جميعاً وهم وقوف في صف واحد، وبكامل الاستعداد تقريباً، استعراض صدام لهم مثل فرقة عسكرية. كنت الشخص الوحيد المتجرّئ بالرد جلياً على تحيته؛ أما الباقون، فهم مرهقون لا يستطيعون النطق، يكتفون بإحناء الرأس.

يأخذ صدام، عند بقائه في القصر، نحو العاشرة والنصف مع المقرّبين منه وجبة الطعام الأولى في «مطعم الزعيم»، وهو أفخر مطاعم القصر، المخصّص لكبار الموظفين. يخرج بعد ذلك إن سمح له الوقت ليتجول قليلاً في الحدائق، بناءً على توصيات الطبيب الكوبي الذي يُعنى بظهره. طلب منه هذا النطاسي الماهر، للاحتفاظ بتقلصات

بطنه وعضلاته الظهرية، السير على الأقلّ ساعة كل يوم. كان صدام يوسع الخطى عبر سيره اليومي في القصر خلال ستين دقيقة، وهو يتبادل الكلام مع حراسه المقربين، صباح ميرزا، وعبد حمود وأرشد ياسين الرشيد التكريتي زوج أخته غير الشقيقة. في فترة ما كان صهره حسين كامل من المقربين إليه، كان يرافقه على الدوام في نزهاته الصحية.

* * *

خلال شهري الأوّل في القصر أجريت عملاً روتينياً، ينظم العمل اليومي للرئيس ليستقبل زوّاره أو يحوّل مراسلاته، واتصالاته الهاتفية وأسفاره، ومواعيده. لأسباب أمنية كانت جميع خطابات صدّام ومداخلاته مسجّلة مسبقاً في القصر. كما سبق أن ذكرت، كان الطابق تحت الأرضي يتضمن قاعات مجهزة بشبكة محطة إذاعة ومحطة تلفزيون وطنية، لتحل محل الإذاعة العادية في حال حدوث طارئ.

كنت أرافق صدام في زياراته إلى محافظات العراق، ومع ازدياد شدة التوتر مع إيران كنت أشكّل الواجهة الرئيسية بين صدّام من جهة ووزير الدفاع عدنان خير الله طلفاح ابن خال صدام وضبّاط الأركان وغيرهم من المسؤولين العسكريين من جهة أخرى. فكانوا يجتمعون في ملجأ مضاد للطائرات في الطابق تحت الأرضي من القصر، حوِّل للمناسبة إلى مركز قيادة عسكرية. عند نشوب الحرب في 17 أيلول 1980 مع إيران، كان يُعْقَدُ اجتماع التعليمات النهائية في قاعات سريَّة من وزارة الدفاع وفي مركز قيادة القوى الجويّة وفي القصر الرئاسي، وأيضاً في أحد قصور صدّام. وكان مجلس الوزراء

يجتمع وفقاً للحاجات المحدّدة. كنت أشكل فصيلاً من الأشخاص المطّلعين بتحديد مواقع الاجتماع. قضت التعليمات سلوك الطرق المختلفة وتغيير الاتجاه لمرات عديدة حتى لا يعرف الزائر إلى أين أقوده.

بالطبع كان من واجبي الترحيب بكبار الزوار الأجانب وإعداد برامج إقامتهم: زيارات، وحفلات غداء واستقبالات الخ. في معظم الوقت يتضمّن هذا البرنامج جلسات تصوير - ذات أهمية كبيرة مع صدام - فقد كان يحظى في ذلك الوقت بهالة واسعة في الشرق الأوسط والغرب: علينا ألا ننسى اعتبار إيران الخميني الرجل «الكريه» في تلك الفترة، بينما كان العراق يحظى بتأييد القادة العالميين...

تطلب دوري العمل على تلطيف الأجواء، واستدراك أخطاء بقية أفراد الحاشية الرئاسية. أذكر عند زيارة الملك حسين إلى بغداد، أراد صدام اصطحابه لزيارة موقع عملياته العسكرية واستعراض قواته العسكرية بالنسبة إلى قوات العدو الإيراني. بشكل طبيعي، المنطقة تحت الحراسة الدائمة وهنالك حارس مسؤول ولديه المفاتيح، ولكن عند منعطف السلم التقيت بالحارس الذي يبدو بكل وضوح مغادراً مكان الحراسة. لحسن الحظ كنت دائماً أسبق الضيوف بعدة أمتار، الأمر الذي سمح لي بالإشارة إليه لتلافي الوضع وإتمام طريقه وكأن شيئاً لم يحدث، ليعود أدراجه ويسرع من المدخل المقابل ويتخذ موقعه قبل وصول الرئيس وضيفه. أجريت دورة بسيطة مع الضيوف لأترك له فسحة من الوقت لالتقاط أنفاسه، وعندما وصلنا أمام الباب كان الحارس في موقعه

تشوب وجهه بعض الحمرة. أنقذتُ كرامتي، وكرامة زميلي، وجنبت الحارس عقوبة شديدة.

في مجمل الأمر وجب أن أكون على اطّلاع بكل ما يجري في القصر، والتصرُّف دون أي تأخير وبمنتهى الفعالية، والعمل على أن أكون تحت إمرة صدام. عندما يحاول الاتصال بي مثلاً يجب رفع السماعة مع رنينها الثالث، وإلا انقضّت عليّ «صواعق عمّنا». هل في هذا مجال للشك؟ عدا ذلك يجب الامتناع مطلقاً عن مناقشة أوامره، أو طرح أيّ تساؤل عنها.

كان صدام يقدّر خاصة ذاكرتي الممتازة.

- هيثم، إن لك ذاكرة مدهشة، قال لي يوماً. بالاعتماد على هذه الذاكرة يمكنك حسن التصرف دائماً.

يُعَدُّ هذا التصريح تنبؤياً... لكنني لم أكن أعرف ذلك في حينه. مع ذلك رأيت بكلامه شيئاً من الإطراء.

- يا صاحب السيادة، هل تعلم أن الإمبراطور نابليون كان يؤمن بالشيء ذاته؟ وهو يردد على الدوام أن موهوبي الذاكرة الجيدة يعيشون مدة أطول ممن يملكون السيء منها. إنما لا أحد أدرك ذلك باستثنائك. أنت بحق أكبر قائد في التاريخ (مع التنويه إلى أن اللغة العربية تتيح عن جدارة تفخيم مثل هذا الكلام دون حاجة لأي تهكّمٍ).

باختصار، أفترض أنني لعبت إلى قربه، بطريقة ما، دور مفكّرة حيّة. وإليكم المثَل: في أحد الأيام وجب عليه التوجّه إلى مأتم نسيب له قُتِل في معركة ضد إيران. طلب على التوالي

من حرسه الخاص، ومن كبير قادته العسكريين اللواء صباح ميرزا، ومن صهره حسين كامل موعد بدء الجنازة. في الواقع جرت العادة في العراق أن تستمرّ التقاليد الجنائزية أسبوعاً كاملاً. وللتدليل على ولائه لقبيلة المرحوم، سبق أن أرسل صدام لعائلة اللواء ثلاث سيارات مرسيدس وشاحنتين تحملان خمس مئة رأس من الأغنام، وبنادق صيد، وكذلك كمية من المال مما يتطلبه الحفل.

لم يجد الجواب لدى الذين توجه إليهم بالسؤال حول موعد المأتم ، فاستدار نحوي، وقد تواجدت حينها في مكتبه، لترتيب بعض الوثائق.

- وأنت يا هيثم، هل تعلم موعد بدء المأتم؟

- نعم يا صاحب السيادة سيكون البدء غداً.

- وكيف علمت بذلك؟

- لأنني رأيت أخ القائد عند حضوره يلتمس هداياكم الكريمة.

- مرحى لك!

بعد ذلك ألقى نظرة ازدراء على الآخرين قبل أن يدير ظهره. من المدهش أن يسود، بعد ذلك، جوٌّ كريه في القصر!

في اليوم التالي عمد صدام لإرسال ممثل شخصي إلى قصر العوجة حيث كنت أعمل ذلك اليوم، لينبئني بوجوب اللحاق بالموكب الرئاسي إلى تكريت لحضور الجنازة معه. اعتبر هذا التكريم الكبير بمثابة تقدير لا يحدث عادة إلا للمقرّبين من أفراد عائلته، أو لكبار رجال الدولة من الألوية

والوزراء وشيوخ القبائل. لا مجال للتأكيد بأن هذه الظاهرة وطّدت بجلاءٍ وضعي في القصر...

إضافة إلى عملي كرئيس للبروتوكول كلفت بتمثيل بلدي، العراق، في ثماني دول أفريقية (أصبحت برتبة سفير) وقد أقمت في أفريقيا عدة مرات، كانت أطولها في السنغال، حيث أمضيت فترة سبعة أشهر، الأمر الذي دعا بعض الصحفيين للتأكيد بأنني مقيم في داكار. والواقع أنني كنت على الدوام ذا مقر دائم في القصر الرئاسي.

كُلفت أيضاً بتقديم هدايا يرسلها الرئيس إلى رؤساء الدول الآخرين أو غيرهم من الأجانب أصحاب المقامات الرفيعة. كانت على الأغلب ساعات فخمة، أو جواهر أو تحفاً فنيّة. أذكر أنني «سلّمت» في باريس، مع تقدير شخصي من الرئيس سجّادة مصنوعة يدوياً خصيصاً إلى جاك شيراك، وكان آنذاك عمدة باريس. استقبلتني السيدة شيراك في دار البلدية، فقد كان زوجها منشغلاً. بسطت السجّادة تحت ناظريها: كان الرسم يمثل الرئيس الفرنسي المستقبلي. دُهِشَت السيدة شيراك وقالت: «إن السيّد صدّام يغمرنا بالهدايا». بادرت طبعاً، إلى الإضافة، إن شخصية عمدة باريس أكثر تميّزاً من الرسم الممثل على السجادة. كان صدام يحب أن يوصل إلى من يُعجَب بهم هذا النوع من التذكارات.

اقتضى الواجب أيضاً أن أرافق صدام إلى أماكن لهوه؛ كان يقضي بعضاً من وقته الحرّ، المحدّد تقريباً، في الصيد

أو السباحة مع مجموعة من «الحاشية». على الدوام. كان ينتظر مني أن أرفه عنه برواية بعض الفكاهات. يفضل الماجنة منها. كان يعجب بالحكايات ذات الدعابة المثيرة للضحك. أذكر أنه أعجب كثيراً بقصة المغامرة التي جرت مع شيخ سعودي في نيويورك. تعرّض الشيخ للسخرية من حسناء طموحة دفعته إلى أن يغادر الولايات المتحدة خجلاً. حصلت منه على حجر ألماس بقيمة مليون ونصف مليون دولار، لقاء ليلة غرام واحدة، وفي اليوم التالي قصّت ابنة الهوى مغامرتها لجميع صحف الفضائح.

بالمقابل لم أقدم له نصيحة حول أي موضوع، حتى عندما يحتاج إليها. صدام لا يطلب أبداً نصيحة خارجية. إنّه مقتنع أن سلطته تضمّ كلَّ العراق، وهو يؤمن بأنّه لا يقهر، وهو عليم بكلّ شيء. في الواقع، وبالرغم من أنه درس رسمياً الحقوق في جامعة القاهرة، كان يجهل تماماً العلاقات الدولية ولا يفهم شيئاً عن الغرب. ومستشاروه الأكثر قرباً منه يماثلونه في ضيق أفقه. نقاط تماسّه الوحيدة مع الغرب تتمُّ بوساطة محطة CNN العالمية، كما كان يشاهد القنوات العربية عن طريق الأقمار الصناعية.

* * *

أعترف، دون ادعاء الخجل، أن مجاملة صدام حسين تمثّل بالنسبة لي الجناح الثاني بالنسبة لعملي. وهي أيضاً الوسيلة الوحيدة لاستمرار العيش في القصر، ولتهدئة عدم ثقة الديكتاتور. حيث أن مداخلاتي لم ترق للحاشية المقربة منه كما سبق وذكرت.

عرفت على الدوام في الواقع أن نظام صدام لن يستمر إلى الأبد وأن من الواجب عاجلاً أو آجلاً أن أحاسب على سلوكي خلال تلك الفترة دون التطرق إلى حسابي أمام العلي القدير يوم الحساب، لذا حرصت على أن أكون عادلاً ومنصفاً وأن أهرع لمساعدة من يمكن مساعدتهم على قَدْر استطاعتي. الأمر لا يتعلق بحسابات في نظري. نشأت على تقليد عربي يفرض على الأقوياء تقديم العونَ للضعفاء. أقول في نفسي، بفضل بعض الأعمال الخيرة شملني الله مع أهلي برعايته خلال السنوات العشر الأخيرة منذ مغادرتي العراق.

لم يجذب سلوكي المعتدل إلا الأصدقاء. أبناء صدّام مثلاً لا يقدّرون، كما سبق أن ذكرت، المساعي التي أبذلها لأستبدل حكماً بالسجن بدلاً عن حكم بالإعدام. عندما يتسنى لي الأمر ما أن أرى صداماً في مزاج حسن حتى أحاول في الواقع الحصول على حفنة من الإعفاءات الرئاسية. وكنت أنجح أحياناً.

عمد ابنه قُصيُّ يوماً إلى سجني وتعذيبي لثلاثة أشهر لأنني أظهرت الحنوُ والرأفة. خلال الحرب ضد إيران كان الرئيس يوزّع بشكل منتظم ميداليات على عائلات الشهداء الذين استشهدوا في ساحة الشرف ـ كتعزية هزيلة. لأن المستحقين لهذه الميداليات كانوا كُثُراً بسبب شدة المعارك على طول الجبهة.

كان القصر الرئاسي بناءً قديماً شُيّد لملوك العراق، ونظامه في التكييف يعمل بشكل سيّء مما يجعل الحرارة في شهر آب خانقة في داخله. صف طويل من المساكين ومعظمهم

من الفلاحين ـ في زمن الحرب، هذه الشريحة الاجتماعية من البشر هي التي تدفع على الدوام الضريبة الأغلى ضريبة الدم كانوا ينتظرون إرادة الرئيس الطيّبة. بينما الحرّاس التكريتيون يسخرون منهم، ومن ثيابهم المتقشفة، ومن لهجتهم، ورائحتهم، ولا يخفون اعتبارهم لهم كونهم صنفاً ثانياً من خلائق الله؛ وآلام هؤلاء الخَلق لا تهمّهم.

لم أعد أحتمل، أمرت الحراس أن يحملوا الماء وبعض المقاعد للزائرين، وجلست أمامهم على كرسيٍّ لأفهم مطالبهم. فجأة، وجدت نفسي ملقىً على الأرض. اعتقدت في البدء تَخلُّعاً في رجل الكرسي بتأثير ثقلي أو ترنُّحي. لاشيء من هذا: إنّه قصيٌّ الذي قلب الكرسي بضربة من جزمته غاضباً. عندما أردت النهوض لاحظت أن قدماً تضغط على عنقي وتمنعني من الحركة. مضت فترة إلى أن أتى حارسان وأجلساني بقسوة على ساقيَّ، بينما قصيّ يلطم وجهي شاتماً:

ـ كلب قذر! من أمرك بإحضار هذه الحثالة إلى هنا؟

ذكرت له أن هؤلاء الناس منحوا الحياة لأفراد عائلته، وللعراق وللرئيس غالباً. فضربني من جديد.

ـ يا ابن الزنا! لا يحق لك إدخال هؤلاء الأشخاص القذرين إلى هنا!

حاول بعض الحاضرين الحيلولة دون ضربي، وبيّنوا له أنني أسعى فقط لمساعدتهم، لكنَّ قصياً أخرسهم. طُرِد الزائرون ورميت في السجن لثلاثة أشهر! في الصباح كان ابن الرئيس الأصغر يمر، وقد أثملته الخمرة، لجلدي. أشعل النار

في زنزانتي وكدت أختنق. تركت هذه الحادثة آثارها على جهازي التنفسي.

الذهاب من القصر الرئاسي في بغداد إلى السجن يُعَدُّ بمثابة احتقار: نوجّه إليه مباشرة، دون التوقف عند نقطة المرور وحتى دون الخروج من حَرَم القصر. الواقع أن هذا القصر يتضمّن مراكز اعتقال خاصّة به. إنّها على مرمى اليد، إن تجرّأت على القول.

يوجد نظامان قمعيان: نظام القمع المسمّى «الخفيف» الخاص بأحكام تقلّ عن خمس سنوات سجن مع الأشغال الشاقة، ونظام القمع «الشديد» غير أنني (لحسن الحظ) لم أمارس إلا الأوّل منها. ثلاثة أبنية، وفق معرفتي، مخصّصة لهذا الغرض؛ يحوي كل منها ثمانية طوابق، أربعة فوق الأرض، وأربعة تحتها. شروط العيش قاسية جدّاً فيها ويمارس التعذيب يومياً. من الأفضل تجنّب التذمُّر لأن فيه ما يزيد من قسوة المعاملة ويطيل مدة السجن...

* * *

حتى عندما تعمل في المحيط المباشر لصدّام - أو بالأحرى الانتماء لعائلته - لا يكفي لتكون في مأمن من صواعقه، وقد عانيت هذه التجربة عدة مرّات.

في أحد الأيام منعت ابن عمّ الرئيس من الدخول إلى القصر. فهناك قاعدة صارمة تحرّم في الواقع كل شخص مسلّح أن يدخل حاملاً سلاحه والسهر على تنفيذ هذه التعليمات يدخل ضمن صلاحياتي. تملّك ابن العم الغيظ

واشتكى إلى حسين كامل، صهر صدّام المقرّب إليه، وهو في تلك الفترة من أقرب المقرّبين إلى السلطة، وقد اتهمني، لتبرير فعلته، بأنني كنت قاسياً فظاً. في اليوم التالي دعاني حسين كامل لأبرّر عملي. قصّصت عليه المشهد بتفاصيله غير أنني لست عضواً في عائلة الرئيس... إذن أنا مخطئ.

بعد يومين تلقيت الأمر ـ الالتحاق بالجبهة للقتال ـ حدثت الواقعة في شهر شباط 1985 أي في مرحلة الحرب الحاسمة ضد إيران. اقتضى الواجب أن أنخرط في الجيش، وإذا سارت الأمور كما يشتهي حسين كامل فإنه سيقضى علي بسرعة وهذا ما يتمناه، وما أتوقعه. الواقع أن حسين كامل اختار من أجلي وحدة من القوّات الخاصة المتمركزة على بعد كيلومترين تماماً من خطوط الأعداء. خلاصة القول إن حظي بالبقاء حياً كان تافهاً...

من حسن حظي أنني كنت على علاقات طيّبة مع عدة عمداء عرفوا والدي سابقاً. لم يُخفِ رائد تلك الوحدة دهشته لرؤيتي آنذاك أمثل أمام مقر القيادة العامة. أدرك للحال سبب إرسالي إلى هناك؛ فعندما يفقد شخص من مستواي الحظوة يتجه الاهتمام إلى التخلص منه، حتى لا ينتشر ما يحمله من أسرار وتنكشف الخفايا التي يحتفظ بها.

دعا ذلك الضابط احتراماً لذكرى أبي، عمّي، وهو عسكري أيضاً، وصل بعد عشر دقائق يركب سيارة عسكرية ذات زجاج عاتم. كان برفقته ثلاثة رجال مسلّحين اصطحبوني معهم. علمت فيما بعد أن المركز الذي كنت أشغل فيه موقعي تعرّض إلى هجوم إيراني مفاجئ بعد أقل

من نصف ساعة من رحيلنا. نتج عن ذلك موت خمسمئة جندي. ومن السيارة التي أقلّتني بعيداً عن المذبحة كنت أحس بالارتجاجات الناتجة عن القصف.

وصلنا بعد ساعتين إلى القيادة العامة للقوى العراقية، وقام فيصل مسحان الفيصل، أحد قادة قبيلة شمّر في منطقة الموصل، وكنت على علاقة طيّبة به، بأن يأخذ على عاتقه العمل على إنقاذي بالرغم من أوامر حسين كامل. ألحقني بالصحراء لأنضم إلى قافلة تنتمي إلى عشيرته. تملّكت الرهبة الجمّال الذي عهد بي إليه وردّد دون انقطاع: «ولكن لماذا؟».

فضلت أن أتجنّب الدخول في جَدَل يعرّضني للخطر.

- لا علاقة لك بالأمر. أجبت بتصميم على دعوة الرجل الطيّب. إنها أوامر من القيادة العليا.

أقمت عند هؤلاء الرجال الشجعان مختبئاً مدة شهر.

علم حسين كامل أنني كنت الوحيد الذي نجا من القصف الإيراني، ولكني كنت جريحاً، أخيراً وبعد مرور شهر «شفيت» واستدعيت مجدداً إلى القصر وكأن أمراً لم يحدث. ادّعى حسين كامل فيما بعد أنه يجهل كيف يمكن أن يتم مثل هذا الخطأ، وأنّه سيعمد إلى معاقبة «المذنب». أُتهم أحدهم وعوقب فعلاً.

5

مغالاة وجنون عظمة

أظهر صدّام مثل أي طاغية البرهان على نرجسيّة تجاوزت الحدود، وقد عرف ممالقوه كيف يستغلون ذلك الميل. كان الرئيس على غرار غراب الأسطورة، يمكن أن يتخلّى عن الملايين لمصلحة من يتمكن من إطرائه.

وهكذا، وفق اعتقاده الشخصي، لم يكن يوجد كفاية من الصور الشخصية له: كان جاهزاً ليجلب المزيد منها! وليجزل العطاء بشكل كبير إلى الذين يعرفون كيف يحصلون على نعمياته. أحياناً لقاء تحف فنية قيمة، وأحياناً لقاء أعمال عادية.

على مدى سنوات ما فتئت نرجسية صدّام تتزايد. جميع طرقات البلاد كانت تزدان بصوره. دهشت صحافية أمريكية دعيت من قِبل وزارة المواصلات لتغطية مهرجانات عيد ميلاد صدام حسين بمشاهدة وجه رئيس الدولة في كل الأمكنة ـ في المطاعم والمقاهي والحدائق العامة في مقالها كتبت: من المعروف بشكل عام أن العراق يصل في عدد سكانه إلى أربعة عشر مليون نسمة، وهذا خطأ، الواقع أنها اكتشفت وصول

عدد البشر فيه إلى ثمانية وعشرين مليون شخص... إذ يوجد على الأقل أربعة عشر مليون صورة لصدام! هذا إذا أنقصنا بعد كل احتمال الرقم. فبعضهم يتحدّث عن ثلاثين مليون صورة للزعيم العراقي... لم يستسغ صدام أبداً هذه السفاهة. وعمد إلى إقالة الموظف المسؤول عن دعوة هذه الصحافية من عمله وسجنه، ولو استطاع لعمد دون شكّ إلى شنق صاحبة المقال. حاولت الصحافة التملُّق إليه والتقرُّب منه دون طائل. على كلّ حال، إنَّه لا يحب مطلقاً تلك المهنة وهو يردد على الدوام أن الصحافيين جواسيس مجهّزون ببطاقة تجسس.

فكاهة أخرى سَرَت من هذا الصنف... شكا أحد الكويتيين متأوّهاً:

ـ لن تكتمل مجموعتي مطلقاً. كيف سأتوصل إلى جمعها كلّها؟

استُفسر عن مشكلته. ماذا يريد الرجل بالفعل؟ تبينّ أن الشخص يجمع صور صدام حسين...

* * *

أشهر اللوحات على الإطلاق صورة بطول خمسة أمتار وعرض مترين، أُوصيَ عليها رسّام بريطاني مختصٌّ بالعائلات المالكة والشخصيات الشهيرة الأخرى من قريب لصدام لعب دوراً هاماً في برنامج الطاقة النووية في العراق. اقتضى هذا العمل من الفنان سنة كاملة ليحقّق تلك اللوحة انطلاقاً من الصور الفوتوغرافية، متخليّاً عن مشاريعه الأُخرى لينصرف كليّاً إلى هذا العمل الفني، مقابل أجر

وسطيّ يقدّر بثلاثة ملايين دولار. يتمثّل صدام في تلك الصورة ببزة رسمية لجنرال في جيش المشاة، وهي صفة نسبها لنفسه بصفته قائد الدولة وبالتالي القائد العام للجيش، رغم غيابه الكلّي عن التشكيلة العسكرية. حمل سيفاً احتفالياً تحيط به الأوسمة الممنوحة له من زعماء العالم كلّه. إنهم يعلمون ذوق الرئيس العراقي الميال للمفاخر وقد غمره القادة في الواقع بالميداليات للحصول على العقود البترولية المناسبة لهم... بالمناسبة حصل كاسترو على اثني عشر مليون دولار عندما منحه وسام كوبا الذي أتاح له تأثيراً معتبراً على دول العالم الثالث.

في تلك اللوحة كانت يد صدام تستقرُّ على منضدة تعود إلى آخر قياصرة روسيا.

مع انتهاء اللوحة سُمِّيتُ للتوجه إلى لندن لاستلام صورة رئيس الدولة. إنها إحدى الأسفار العديدة التي أجريتها على متن أسطوله الجوي الخاص. مع عودتي إلى العراق حملت معي على الفور التحفة الفنية تحت حراسة جيدة إلى المَرْبَض الذي كان يقيم فيه الرئيس آنذاك. أسندنا اللوحة إلى الجدار الأكثر علواً في البناء ننتظر لحاقه بنا. وعندما وصل إلى الغرفة وقف جامداً كأنّه تحوّل إلى تمثال. لكنه بقي واقفاً أمام صورته المهابة نحو عشرين دقيقة، يقترب منها أحياناً ليبدي إعجابه التفصيلي، أو ليمسّ بحنوٍّ ورِقَّةٍ اليد المرهفة. كان مفتتناً لحسن حظ الفنان المنذهل.

كانت جميع القصور الأخرى تعجّ بدورها أيضاً بصور صدام الملتقطة في أوضاع مختلفة: في الصلاة، مع أولاده

وأحفاده، ممتطياً صهوة حصانه، يقطع سنابل القمح، سابحاً في نهر الفرات، يدخن السيجار الكوبي الشهير، وكلها بالطبع في بزّة عسكرية. أمّا لوحته الشهيرة الممثلة له وهو على صهوة فرس قتال فقد تطلّبت بعض استعدادات مسبقة، فصدّام لا يحسن جيداً ترويض الخيول؛ مما دفع مُدرّب الخيول في حرس الجيش الرائد خالد عبيد لاختيار أهدأ الأفراس والإمساك بعنانها طوال الجلسة. اضطر هذا الرجل في وقت لاحق للهرب إلى الأردن مع عائلته. ألحقه الملك حسين للعمل في نادي الفروسية الملكي الأردني.

أعلن يوم 28 نيسان من كل عام (يوم عيد ميلاد الرئيس) عيداً وطنياً إجبارياً، ينصب تمثال جديد للرئيس، وتكرّس له جميع الفعاليات في العراق. في العام 2003 تبادل الشعب العراقي التهاني بإلغاء هذه الاحتفالات المسربلة بالعار.

* * *

حتى غزو الكويت أظهر كثير من قادة دُوَل الخليج، إضافة لذلك، استعدادهم للانتظار أياماً لنيل شرف التقاط الصور مع قائدنا العام وهذا ما وطّد زَهْوَ صدام.

تنعكس مغالاة الرجل ونظامه في الأريحية التي برهن عليها لأولئك الذين يطمحون إلى الإثارة أو المكافأة. لسوء الحظ لم يكن الشعب العراقي مدرجاً على تلك اللائحة... ساعات أودمار بيغه، وباتك فيليب، وشوبار، ورولكس، وفاشرون كونستانتن، وكونكورد - إلخ... كانت تُحفَر برمز شعاريٍّ على هداياه (أو كارتييه وبوشرون وشومه، للمهدى إليهم من الدرجة الثانية)، قلائد وأساور وخواتم عليها

صورته... ولم تكن هدية صدام تقلّ إلا نادراً عن عشرة آلاف دولار.

عندما تزوّجت أخت جعفر ضيا جعفر، مدير البرنامج الذري العراقي أهدى صدام الزوجين ساعتين باتك فيليب متألقتين، وشلّالاً من الألماس لبطلة الملحمة.

بعد سفره إلى كوبا لحضور مؤتمر البلدان غير المنحازة، قدّم لفيدل كاسترو خمساً وعشرين سيارة مرسيدس مصفّحة.

في العام 1983 اجتاز ابنه عدي خطوة إضافية في عبادة الشخصية. اشترى صانع ساعات سويسري، قام بنقل معامله إلى بغداد، وأطلق عليها اسم الشهرة الجديد «بغداد». غدت «بغداد» من الآن فصاعداً تنتج حصراً ساعات تحمل شعار الرئيس لتوزّعها على جميع مستحقيها.

عندما حصل عُدَي بطريقة تعسفيّة كلياً على شهادة دبلوم في الهندسة من جامعة بغداد، أمرني حارسه الخاص، عزّام، بإعداد مئتي ساعة فاخرة لتوزع على رفاق دورته وأساتذته. إنه عيد التخرج الذي كلّف الشعب العراقي نحو 400.000 ألف دولار تقريباً.

بين أعوام 1991 و2003 وبنتيجة العقوبات الاقتصادية المفروضة على العراق، توفي 650.000 طفل، غير أن عدياً كان ينفق كل سنة مبالغ طائلة للاحتفال بعيد ميلاده، وصلت إلى 3000.000 دولار في العام 2002.

في كلٍّ من قصور صدّام، كانت عدة غرف تستأثر

بالهدايا الحاوية على ما لا يُصدَّق من أكداس الساعات، والأساور، وأزرار القمصان، والخواتم، والقدّاحات، وأقلام الحبر، وكلّها من الذهب المرصع بالجواهر وكذلك السجّاد الثمين. كان شراء وتوزيع هذه الهدايا يتمّ تحت رقابة الإدارة المالية في القصر الرئاسي الذي يتصرّف أيضاً بالنفقات الشخصيّة لصدام وعائلته.

لم يكن الرئيس عقوقاً عندما تؤدّى له خدمة. فعندما شكا من الحساسية استدعي إلى سريره أشهر طبيب دانماركي. لم يكتشف النطاسي أيّة حساسيّة ورفض تناول أي أجر. أمرني صدام بأن أقدم له هدية لتلك المناسبة. اخترت له سجاجيد قديمة نادرة، وأقلام حبر، وقداحات، وقلادة ذهبية وألماسية لزوجته. قُدِّرت القيمة بنحو 500.000 دولار، وبما أنني أحظى بإعفاء دبلوماسي فقد كنت أكلَّف شخصياً بتأمين هذه الهدايا لتجنّب أيِّ ارتباك جمركي!

* * *

يتجلى جنون العظمة أيضاً عند صدام حسين من خلال طموحاته الأدبية وتلبّسه جلد راعي الفنون الشاعر المقاتل، على غرار الخلفاء العباسيين.

كان عمله الأول «الأيام الطويلة» سرد سيرة ذاتية، أعدها بشكل مسلسل يومي، أدى فيه دور صدام صديقه حسين كامل. وُزِّع الفيلم على سفارات العالم أجمع، لكن لم يبق منه أي نسخة فقد أتلفت جميعها بعد هرب حسين كامل إلى الأردن، وأحرقت جميع نسخ الكتاب.

ألّف صدام حسين أيضاً كتاب «زبيبة والملك» وهو قصة

رمزيّة كُتِبَت بعد حرب الخليج، وفيها يُنقِذُ الفارس الشهم مُمثَّلاً بصدام الحسناء زبيبة (العراق) من محاولة اغتصاب (الغزو الأجنبي). بكل بساطة أهدى هذه التحفة الفنيّة إلى «الإنسان الذي كُتِبَت له».

آخر مؤلّفاته «وراء الشياطين» لم تُنشر، كانت قيد الإعداد أثناء سقوط نظامه - يروي فيها قصة إبراهيم وأحفاده الثلاثة حزقيال، وعيسى، ويوسف؛ الذين يمثلون أنبياء الأديان الثلاثة الذين جاء ذكرهم في الكتاب موسى، يسوع، محمد. يعتبر هذا المؤلف مرافعة عنصرية هدفها تمثيل الوضع في الشرق الأوسط. أرسل صدام النسخة الأولى من هذا المؤلّف إلى مترجمه سمّان عبد المجيد ليصحّحها قبل بضعة أيام من بداية الحرب! كان القلق حول المستقبل يخيم على العراق والعراقيين، في حال التدخل الأمريكي، بينما ينشغل الرئيس بكتابه.

* * *

كان صدام حسين يملك خمسة وستين قصراً (مجددة). ونحو مئة مقر أكثر تواضعاً.

يأتي في المقام الأوّل - ولكل مقام مقال - القصر الرئاسي في بغداد، وقد أنشئ في بداية الخمسينيات من قِبَل مؤسسة بريطانية خصيصاً لمقر ومكاتب الملك فيصل الثاني. حدثت ثورة 1958 قبل انتهاء الأعمال، وبقي البناء مهجوراً حتى وصول حزب البعث إلى السلطة بعد ذلك بخمس سنوات. إذ فضل اللواء قاسم أن يبقى في وزارة الدفاع.

أحضر صدام شركة ديكور داخلية فرنسية لتجديد هذا

القصر، والقصر الآخر الأصغر منه المخصّص للجمعية الوطنية. هُدمت بالمناسبة جميع المدافئ الجدارية الجميلة، ولم يتردّد أحد في إلقاء كل الأثاث القديمٍ والسجاجيد التي لاتقدّر بثمن إلى سلّة المهملات. لم يُكلّف مخلوق نفسه بتوضيح قيمتها الحقيقية، فرميت في أقبية القصر، ولم تلبث أن تعفّنت. استُبدل بكل ذلك أثاث حديث، أو أثاث مقتبس عن التحف الفنية القديمة، مع إضاءة جديدة وذوق يلائم العصر. حتى الأسقف الرائعة للغرف شوهت بوضع سقوف مستعارة. وعلى الجدران علّق صدام صور محاربين وأبطال عرب، ولنفسه طبعاً! احتفظ مع ذلك، لاستعماله الشخصي، بالعرش الملكي مستبدلاً بشعار الملك شعار الرئاسة. كانت صنابير المياه مثل قبضات الأبواب مطعّمة بالذهب، والنجمة الإسلامية الثمانية الوجوه ترتسم على النوافذ والأبواب وغيرها.

لم يتراجع عن ارتكاب أية حماقة، فاستورد بين خمسة وعشرة آلاف ديك بري فرنسي لحدائق القصر الرئاسي وقصر الجمعية الوطنية. كلّ ذلك، لأنه شُغِفَ خلال رحلة صيد إلى سولوني مع جاك شيراك، وهو آنذاك رئيس وزراء ڤاليري جيسكار ديستان بريش تلك الطيور.

بعد مرور ثلاثة أو أربعة أشهر لم يبق في تلك الحدائق إلا بعض الديوك الرومية. سألت نسيباً لصدّام عما حدث: هل وُجد داخل القصر صياد مخالف أو هي جائحة وبائية؟ هل يُعَدُّ لحم الديك البري الفرنسي متمتعاً بفضائل قريبه العراقي «الدرّاج البري» المشهور بفوائده المنشطة للقدرة الجنسية؟ اكتُشِفَ أن هِرَرة الجوار ازدادت سمنة بعد صيدها ديوك

القصر البرية... لا أحد يستطيع منع الهررة من التوغل في الحدائق حتى صدام نفسه! دُمِّرت الديوك كلّها مثل جميع أعداء الرئيس البشريين خلال تلك الفترة.

كان صدّام يرغب في قضاء بعض وقته متمتعاً بمزرعته في الأروانية، قرب مطار بغداد (المسمّى آنذاك مطار صدام حسين الدولي). الواقع، بعد اجتياز عدة حواجز شرطة، يمكن الوصول إلى قصر فخم مدعّم ببحيرة اصطناعية. هناك يربي صدّام الغزلان والخراف والحملان. ويتنزّه بنفسه مرتدياً ثياب غنّام، «إيشماغ» أحمر وقبعة كبيرة وعصا. ببعض تفصيل يميّزه عن غيره من الرعيان: جيش صغير من الحرس يُعِّسس في مكان غير بعيد عنه.

في أحد الأيام غامرت وعرضت عليه كلاب رعاة، مثل تلك المستخدمة في اسكوتلندا.

أجاب: بأننا نحن، معاونيه نقوم بهذه المهمة!

من أجل استمتاعه بهذه الصحبة من الغزلان والخراف والحملان إلى الحد الأقصى، كان يقدّم لها غذاء خاصاً معطّراً بحبّ الهال، يضمن رائحة ونَفَساً مُعطَّرين! إنه الذوق المُرهَف في المكان غير المناسب.

في ذلك الوقت لم يكن الشعب العراقي يتغذّى بحبّ الهال؛ كل ما يمكن قوله إنّه لم يكن يأكل حتى عندما يجوع.

من قصوره الأثيرة يتمثل أيضاً قصر الحبانية، وقد شيده بويوغ على ضفة بحيرة. فصدام لا يحبّ السكن إلّا قرب الماء،

حول نهر أو بحيرة. غير أنّ الأكثر إسرافاً من مقراته العديدة بلا منازع «قصره الخفي» السري، وهو حصن عملاق أرضي يقع على بعد ساعة تقريباً من بغداد، في قلب معسكر مغروس بوحدات تدين بالولاء الكامل للرئيس. ميزته الإضافية وجوده قرب المقرّ العام للقوات الجوية.

قرّر صدام بناءه خلال الحرب مع إيران وعهد بالمخططات إلى مهندسين ألمان شرقيين. أنجزت الأعمال وانتهت كليّاً من قِبَل مهندسين وعمال عراقيين، بعد بدايتها في العام 1981. اقتيد العمال إلى هناك وأعينهم معصوبة، على نسق الرجال الذين شيّدوا الأهرامات. كان الزائرون النادرون يصلون إليه في سيارات معتمة، يستخدم السائقون فيها طرقات متعرجة للحيلولة دون معرفة سبيل الوصول إليه.

استلزم العمل أربع سنوات و180 مليون دولار. شيد هذا الحصن المنيع على أرض مساحتها (1800 متر مربع)، ولم يستخدم في النهاية مطلقاً. للتمويه على الفضوليين، وفي حال تسرّب صور للأماكن زُرِعَ فوق الحصن أشجار استحضرت من جميع مناطق العراق، بحيث لا يمكن لأيَّة صورة تحديد موقعه ضمن أراضي العراق. في الحصن ثلاثة طوابق تحت الأرض على عمق نحو 20 متراً لا تكشفها الأقمار الصناعية. يمكن لخمسين شخصاً الحياة فيه لمدة سنة؛ فهو يحوي مولّده الكهربائي الخاص وأنظمة اتصالاته المستقلة ـ وكلّها منتمية لقمة التكنولوجيا ـ مع الساحة الرياضية ـ وقاعة السينما وثلاثة مسابح مجهّزة بالسونا، وصالة في الطابق الثالث مخصصة لصدام وعائلته، يتمُّ الانتقال إليها داخلياً

بسيارات كهربائية ـ اشتريت في العام 1992 بعد حرب الخليج ـ وترتبط مختلف الطوابق بسلالم متحركة. اعتباراً من مركز القيادة يمكن مراقبة الحصن بكامله بفضل نظام الكاميرات.

كان هذا الحصن مصمماً ليقاوم زلزالاً أرضياً يصل إلى 6 درجات على سلم ريختر، وقنبلة ذرية معادلة لتلك التي ضربت هيروشيما. لكنه لم يُستخدم مطلقاً، فعند اقتراب الجيش الأمريكي من بغداد رأى صدام حسين أن من الحكمة الهرب بدلاً من المحاصرة في قصره.

في العام 1991 ومع نهاية حرب الخليج، لم تكن بغداد إلا حقل دمار، فأعلن صدام آنذاك برنامجاً واسعاً لإعادة البناء. لكن لم يخطر بباله توجيه ذلك البنيان لشعبه التعيس. كلا فالأمر يتعلّق بالنسبة إليه في إعادة بناء قصوره. بدئ بأول ورشة في قصر السجود، إنّه «قصر ساجدة» وقد قُدِم إليها هديةً لعيد ميلادها. ذُهِلَ صدام من الأضرار الواقعة على مقرّاته، فأقسم أن يبني كل سنةٍ قصراً جديداً، وهكذا ملك عشية الحرب الكثير منها.

امتلك صدّام أيضاً يختاً بطول ثلاثمئة متر أطلق عليه اسم «القادسية» تيّمناً بشهرة السفينة العربية التي كبّدت الفرس هزائم قوية. أطلق عليه فيما بعد اسم «المنصور»، هذا الزورق الضخم المستقيم يبدو وكأنه خارج من فيلم جيمس بوند، إنّما بسعر من ذهب (بلغت تكاليفه 350 مليون دولار) وهو خارج من ترسانة بحرية دانماركية. تطلب بناؤه ثلاث سنوات لوضع اللمسات الأخيرة على تجهيزات آخر صيحة حداثة: منظومة

مصفّحة، مشفى مجهّز كلياً بأحدث المعدّات، ملحقات من الذهب الخالص؛ مهبط لطائرات الهليوكوبتر، قاذفة طوربيدات... بقيت هذه اللعبة الفاخرة في ملجأ الدانمارك حتى نهاية النزاع مع إيران تحت حراسة خمسين حارساً منتخبين من الصنف الأول، ووجب فيما بعد أن يرسو في شطّ العرب قرب شبه جزيرة الفاو. اعتمد صدام على استخدامه لاستقبال الملوك وسادة العرب مقلداً تيتو وجمال عبد الناصر في استقبال ضيوفهما على متن بواخرهما الخاصة. في الواقع لم يُستخدم هذا اليخت إلا نادراً، فقد نُسِفَ وغاص في البحر خلال الأيام الأولى من الهجوم الأمريكي ربيع 2003.

كما استخدم، بشكل نادر، طائرته 747 الخاصة المسماة أيضاً «القادسية» الحاوية على قاعة كبيرة، وصالة حمام، ومشفى ميدان. هي لعبة نادرة وغير ضرورية لرجل لا يغامر إلا قليلاً جداً في اجتياز الحدود العراقية! هذه الطائرة الضخمة كانت النتاج الأفضل من النفاثات الخاصة ـ غولف ستريم وفالكون وبوينغ الأصغر منها ـ استخدمت في التسوق من أوروبا.

عدا عن ذلك يمكن أن نَصِفْ الرئيس العراقي، مع أولاده أيضاً، بإحسانهم إلى صناعة السيارات العالمية ـ فقد كانت عنابره تحوي نحو عشرة آلاف سيارة، منها على الأقل ثلاثمئة سيارة مرسيدس مصفحة دفع ثمنها 800.000 ألف دولار (لم يسافر صدام مطلقاً في سيارة دون تصفيح) وإلى جانبها ترتصف سيارات اللمبرغيني، والفيراري والبورش، والرانج روفر، والكاديلاك، والرولزرويس، والبوغي، دون

حصر لمجموعة من الشاحنات والدرّاجات النارية، وكل إطارات هذه العربات لا يخترقها الرصاص.

تأثّر متحمساً خلال رحلة إلى كوبا، عندما لاحظ أن شاطئ فيدل كاسترو محميٌّ من ناحية البحر بشبكة واقية، فأرسل عند عودته إلى بغداد مئتي غطّاس لاتّباع دورة لدى رجال كاسترو ليتمكّن بدوره من السباحة بكل أمان.

* * *

تكشفت رغبة صدام المعلنة عن فنون السحر والتنجيم إلى تربيته وسط بيئة فلاحية ظلامية. فأمّه المفتتنة بالمنجمين تزعم عن طيبة خاطر بأنّها بصّارة.

بعد غدوه رئيساً أصبح تحت تصرف صدام مُبصِّر «منجِّم» خاص به، وهو من كركوك شمال العراق، ظهر له مقال في العام 1980 في مجلة محلية وهو لم يتجاوز السابعة عشرة من العمر، موجّهاً هباته الخارجة عن المألوف إلى سيّد البلاد. بتصديق ما في المقال، يمكن لهذا الشاب العبقري التنبؤ بالمستقبل دون أن ينخدع مطلقاً. في اليوم التالي بالذات استدعى صدام هذا المُبصِّر مع أفراد عائلته إلى القصر الرئاسي. أكّد لي أحد أبناء عمومته أنهم كانوا يسكنون في المباني التابعة للقصر. ولكن وفق معلوماتي، لم يرهم أحد (باستثناء صدام).

اكتشف وزير مواصلات صدام الذي لقّبته الصحافة الأنغلو - سكسونية «علياً المضحك» وزوجته هوى حقيقاً للتنجيم عندما عُينّ عليٌّ سفيراً للعراق في الهند. في أحد

الأيام استحضر أمام صدام مجوسياً هنديّاً نافذاً، أُحضر إلى بغداد لقراءة مستقبل الرئيس. فكَسِبَ عليّ الترقية إذ أنّه غدا سفيراً في الأمم المتحدة.

في العام 1984 استدعاني الرئيس الزامبي كينث كاوندا حليف صدام حسين وصديقه الكبير إلى مكتبه الخاص، وكنت آنذاك في زيارة للوساكا، وأبلغني أن ساحره الخاص راج، وهو آسيوي من زامبيا قرأ بين الكواكب مؤامرة تهدف إلى القضاء على صدام. طلب كاوندا من الساحر عندئذ صنع تعويذة تقيه من دسائس أعدائه، وأراد أن يكلفني بتسليمها من طرفه إلى معلمي. وتعبيراً عن شكره الكبير على مروحة من ريش النعام، وقد افتُرض أنها المنقذ والمخلص، أرسل صدام إلى كاوندا هدايا فخمة. رجعتُ إلى زامبيا على طائرة بوينغ 747 محمَّلة ومملوءة بالأدوات الكهربائية، والألماس، والساعات الثمينة، والحلي من الذهب، والسجاجيد الفارسية الخ... وعدنا إلى العراق مع شحنة من العاج إضافة إلى تشكيلة من السلع.

في العام 1989 أرسلني صدام إلى لندن لأبحث عن ساحرٍ عربي مقيم في العاصمة البريطانية، وصلت شهرته إليه. كنت قد التقيت بهذا الرجل في العراق ولم أكترث به: منافقٌ وفظٌّ ومن أصحاب السوابق. هذا الحميد الأزهري تباهى بأنه على اتصال مع الحلقة الداخلية للجن، أي مع الشياطين وهي عملية لا تخلو من الخَطَر. اتُصِل به عن طريق سفارة العراق. بدا الرجل سكوتاً ـ كما أنَّه لا يعرف هوية زبونه الجليل. جذبه إغراء المال الذي صُرف له بدون حساب. بمرور السنوات عرِفَ هذا الرجل أن يبتزَّ من صدام عشرين مليون دولار

أنفقها كلّها على لعب القمار... في يوم أفرط في الشراب شرح لي أنّه بعد أن «تنبأ بالمستقبل» لأمير سعودي طلب منه مليوني دولار لقاء خدماته، فلم يعطه الرجل إلا مليوناً ومئتي ألف دولار فقط. أرسل ساحرنا رجلاً مأجوراً كَسَرَ يد ابن الأمير...

قُتِلَ الرجل في باريس في العام 1998، لا من عصابات الشر وإنّما من قطاع طرق كان مديناً لهم بالمال. رغم قدرته المزعومة، لم يعرف إيجاد رُقيةٍ تبعدهم عنه...

يُروى أيضاً وبكل طيبة خاطر، في الأوساط الشعبية، أن صداماً كان يحمل عظم «الهدهد» وهو طير نادر جداً يُغرَزُ عظمه قريباً من الترقوة. إنه تقليد قديم في الواقع مفاده أن زرع عظم من ذلك العصفور في الجسم يحمي على الدوام من جميع المخاطر. اختار صدام لجهاز مخابراته شعاراً استحضارياً: «إنني وافد من سبأٍ أحمل إليك الأنباء العظيمة»؛ الأمر يتعلّق بآية قرآنية تشير إلى أن أحد الطيور أتى ليعلن إلى الملكة بلقيس تلك التي تسمى في الغرب ملكة سبأ بنصر عسكري كبير.

اعتقد صدام أن العيون التي تزين ريش ذيل الطاووس تحمي من عين الحسود. فأراد أن يُحاط بهذه الطيور. لكن التاريخ لم يَقُل إنه اعتاد لهذا السبب على السير وهو يتبختر مثل الطاووس!

حَمَلَ منجِّم وُهِبَ حسّ القضايا المعقدة يوماً إلى الدكتاتور طالعاً ملكياً عجيباً ينتج عنه ـ لاتسلني بأي سرّ ـ

أن رئيسنا «ذُكر في التوراة بعد الأنبياء والملائكة!» أُغري صدام بالطعم وكانت المكافأة على قدر آمال الساحر.

ما يثير الدهشة، هو انتشار هذه المعلومة نتيجة لمقال في الديلي ميل كتبها ميشيل دروسنين بعنوان: «التوراة: الرمز السري» يبين إن هذا الكتاب المقدس يمكن أن ينظر إليه على أنه نبوءة كبيرة متصوَّر فيها كل الأحداث التاريخية في العالم منذ الحروب القديمة حتى صعود هتلر، وغزو القمر، أو مقتل الأخوين كنيدي وأنور السادات واسحاق رابين، وحتى الموت المأساوي للأميرة ديانا. الفكرة ليست جديدة: سبق أن أطلقت من قِبَل بحاثة يهودي في القرن الثامن عشر يؤكّد فيها، تحت اسم «عبقرية ڤيلنا» الذي يؤكد: «القاعدة أن كل ما جرى وما يحدث وما سيحدث حتى نهاية الأزمان متصوَّر في التوراة (وهو القسم المشترك من الكتاب المقدس بين اليهود والمسيحيين) من أوّل إلى آخر كلمة». إن مؤيدي هذه المقولة يؤكّدون أن بالإمكان حلّ طلاسم الموضوع في فكّ رموز كلمات «حسين» و«سكود» و«الصاروخ الروسي»، وكذلك تاريخ التقويم العبري الذي يتطابق مع تاريخ 18 كانون الثاني 1991، وهو اليوم الذي أطلق فيه العراق أوّل صاروخ قاذف ـ سكود ـ على إسرائيل... هذه القراءة تؤكّد عدا عن ذلك أنّ الحرب العالمية الثالثة ستبدأ في الشرق الأوسط، وأن رئيساً وافداً من الغرب سيقلب صدام. لكأن النظريات الأكثر غرابة ليست على الدوام أقلّها صموداً.

كانت ساجدة بدورها محاطة بالعرّافين من جميع الأنواع. فهي تحرص على أن يكون بجانبها دائماً امرأة

قادرة على قراءة ثُفل القهوة. عدا عن ذلك، أدخلت قبل سقوط نظام صدام بقليل إلى قربها عرّافة مشهورة. قُدّم لها منزل وحماية خاصة. لا أحد يستشيرها باستثناء ساجدة. هل توقّعت سقوط نظام صدام؟

فكرت من جهتي دائماً، بأن استشارة العرافين والمنجمين المأجورة يُعد مقاربة ضارة ومفسدة...

* * *

لست أدري إن كان الإيمان بما ذُكر في الكتاب المقدس يقوّي جنون عظمة صدام. على كل حال كان يزداد يقيناً بأنه أمير يفتَتِنُ بالعائلات المالكة. أثارت اهتمامه الخلافات العاطفية بين أمير إنكلترا تشارلز وزوجته ديانا، ولم تفته ثانية واحدة عند عرض مراسم الزواج، بل إنّه أرسل أزهاراً مع الإشارة بأنها «مقدّمة من شعب تكريت وصدام حسين ابنها الحبيب». إنّها من شعب تكريت وليست من الشعب العراقي. صمّمت بنفسي البطاقة المواكبة تحت إشراف عدي..

بعد ذلك بسنتين كلفني بجلب باقة أزهار أوركيديا له من سنغافورة مماثلة لتلك التي كان تزيّن دير وستمنستر خلال «زواج العصر». لا حاجة للتنويه بأنني اخترت الألوان الأكثر غلاءً، بل إنني أحضرت رجلاً من أصحاب الاختصاص للتأكّد بأنني قدّمت أجمل الورود.

أتذكّر صدام وهو يردّد غالباً إن الأميرة ديانا جميلة جداً رغم نحولها ـ هو بالذات يفضل النساء الممتلئات ـ، وتشارلز أيضاً وسيم لكن يالخسارته لأنه لم يَعْمَد إلى ترك شاربيه ينموان!

في جنون عظمته، قرّر أن من واجبه امتلاك عربة فاخرة مذهّبة مماثلة لعربة الأميرين المفضلين، والتي استخدمت في حفل زواجهما، وأرسلني لأتجول في أسواق المزاد العالمية. انتهيت إلى الكشف عن عربة فاخرة للإمبراطورة ماري ـ تيريز عاهلة النمسا، طلب صاحبها ثمنها ستة ملايين دولار، لكنني وُفِّقت في «إيصال الثمن إلى مليونين ونصف دولار» رغم ما بدا لي من تسديد هذا الثمن لقاء فانتازيا لا فائدة منها.

لفرط اهتمامه بالرؤوس المتوّجه في هذا العالم كان يوجه انتباهاً شبه مهووس للتفاصيل البروتوكولية. ولهذا قامت مأساة عندما تجرأ سفير فرنسا في بغداد بأن يصالب رجليه وهو جالسٌ في حضوره. تحدّث كل سكان القصر عن تلك الجرأة والسفاهة. وأعلن صدام أنه لن يستقبل مطلقاً هذا الرجل الفظّ، حتى أنه فكّر بالاحتجاج رسمياً إلى الكي دورسيه. جهدت عبثاً أن أشرح له محاولة جميع الناس في أوروبا على الجلوس كما يحلو لهم دون أن يشكل الأمر قلّة احترام لمخاطبهم. فأحضر طارق عزيز للمساعدة، وكان وزيراً للخارجية آنذاك، فأكّد قائلاً: «ماذا يمكننا أن نفعل؟ إنها عادة فرنسية وهو فرنسي!».

غير أن طارق عزيز نفسه نسي في أحد الأيام وصالب رجليه خلال مباراة كرة قدم أمام الرئيس الذي ذكره بقوله سريعاً: «يا رفيق ضع رجلك على الأرض وإلا سأكسرها من ساقها!» وأمام الحاشية الرئاسية امتثل الوزير للأمر مثل طفل ارتكب هفوة.

* * *

تكشّف ذوق صدام بانتظام عن تبذير فائق. كان ويسكيه المفضّل، يسمى «مَكَلان» عمره خمسة وخمسون عاماً، يُباع بخمسة وعشرين ألف يورو للزجاجة الواحدة، وهو يشربها صافية دون أي مزج. هو لا يكره أيضاً الشيڤاس رويال ـ سالوته، وهي تخميرة بمثل ندرتها وغلائها. كونياكه المفضّل كان ثمن زجاجته اثني عشر ألف يورو، أما خموره المفضلة فهي من نوع شاتو بتروس، الأغلى في العالم، وهي نتاج غراس الكرمة الصغيرة، عدا كروم بوردو الأخرى المؤرَّخة طبعاً: شاكو ـ لافيت، موتون روتشيلد 1986، سان إميليون 1982، شاتو ـ شيڤال بلان 1982. بمعنى آخر إن زجاجاته تتراوح أثمانها بين 5 آلاف وستة آلاف يورو. أما في مجال كؤوس الشامبانيا فهو مُعجَبٌ طبعاً بالكريستال الأسطوري رودرر ودوم برنييون، وأيضاً بيريه ـ جويه.

أما سيجاره المفضّل فمقدّم من صديقه الكبير فيدل كاسترو، وكان يصل إليه من الاحتياطي الشخصي (للزعيم الكبير). تروي الاسطورة أنه كان يلف طبقاً بالأيدي، ولكن حصراً أيدي فتيات عذارى، فهكذا تتشرّب أوراق التبغ شذاً لا يضاهى... قصّ عليّ صديق يعمل لدى محلات كريستي في لندن أنه شاهد، خلال الأشهر التي تلت سقوط صدام، كمية من السيجار الكوبي المماثل لما كان يهديه كاسترو إلى صدام. هل استغل هذا الأخير الموضوع وأجرى تجارة بطريقة غير مباشرة؟

مع ذلك قلّص الرجل استهلاكه واقتصر على سيجار واحد في اليوم بناءً على نُصح كاسترو له على الدوام، إذ أنَ إفراط هذا الاخير في السيجار أحدث له سرطاناً في الشفتين. اكتفى

الرئيس غالباً بإشعال سيجاره وامتصاص الرشفة الأولى منه - وهي الأفضل - ثم يُترك جانباً دون أن يلمسه.

ظهر صدام أقل تعقّلاً مع المخدّرات. فقد اعتاد أن يدخن الحشيش خلال إقامته في القاهرة سنوات الستينيات. كان فقيراً، وسكن لدى أصدقاء أثرياء، حرص على تأمين المخدر لهم، والفتيات في المناسبات. وعندما اغتنى بنتيجة دخوله إلى الحكم 1968 أصبح يتناول الكوكايين، في السنوات الأخيرة، كان يتعاطى المخدر كل يوم تقريباً. دخّن بين وقت وآخر الهيرويين. لكن هذا لم يمنعه من استصدار قوانين تعاقب بقتل مستهلكي ومتاجري تلك المخدرات. بالنسبة له الصنف الممتاز وحده يلائمه، وهو لا يتجرع العقار مطلقاً عن طريق الوريد، ولا يتناوله قطعاً أمام الناس بالطبع.

حاول طبيبه الشخصي الدكتور وليد خليل الهيّالي، جاهداً التخفيف من الآثار السيئة لإدمانه. اعترف لي مرة أنه من أجل الحفاظ على الرئيس «تحت الرقابة»، كان يضطر إلى زيارته يومياً ليختبر كوكتيل المهدّئات، ويصرف كل يوم ما يزيد عن خمس عشرة دقيقة لتهدئته، محاولاً تقويم حالته السيكولوجية، لمعرفة المدى الذي وصل إليه جنونه.

كان عديٌّ أكثر سميّة من أبيه - فقد وجب أن يعنى به مرتين على الأقل لتناوله جرعات مُفرطة من المخدر. أما قصيّ، فلا يتناول منه جرعات شديدة، إنّما هو سكّير من الدرجة الأولى.

بالمقابل في مجال الطبخ حافظ الرئيس السابق على

البساطة، لكن هذا لا يمنعه من استخدام أرقى أنواع الخزف الصيني المنقوش باسمه، وأن يحتسي مشروبه بكؤوس الكريستال، وأن تكون مائدته جاهزة دوماً، وكأنه يريد أن يبعد على الدوام شبح الفقر الذي حلَّ به أيام صباه. غير أن مائدته كانت تحوي دائماً مئتين وخمسين طبقاً مختلفاً! الوجبات تحضر ثلاث مرات يومياً في كل من قصوره، ليتمكن باستمرار من تناول غذائه عند حضوره دون توقّع، وليخفي عن كل إنسان مكان وجوده. حفلات الغداء أو العشاء الرسمية تقدّم على مائدة بشكل حرف (U) وهي تسمح باستقبال نحو أربعين مدعوّاً.

عمد صدام إلى إحضار الخبز من باريس بطائرة خاصة. كانت تأتيه بخبز «بوالان»، وهو لا يتردّد مطلقاً في تكليف طائرة لتحضّر له أحد التوابل النادرة. كبد الأوزّ المسمّن، والكافيار والأجبان الفرنسية تصل كل يومين. غير أنني لم أره يوماً يتذوّق طبقاً غير مأكله التقليدي العراقي! احتفظ لخدمته بطاهي الملك فيصل، الذي يهيّء له أطباقاً شهيّة مما استخدمته سابقاً العائلة المالكة. كان حافياً جائعاً أصبح رئيساً، هل يستطيع أن يحلم بأكثر من ذلك؟

على المائدة يوجد السمك دوماً وهو بصورة عامة «المسقوف المدخّن»، و«القوزي» (كتف الحمل المحشي بالمطيّبات، وهي طبق صدام المفضل)، والأرز، وتشكيلة سلطات، والبقلاوة، الخطيئة المغفورة لصدام.

إلى جانب المشروبات الكحولية كان صدّام يثمّن الشاي مع الهيل المعطر القوي، لكنه بالمقابل، كان يحذر من المشروبات المتمازجة.

على نسق ملكة إنكلترا كان يحمل معه الماء والغذاء والطاهي وكل مستلزمات الطهي والمائدة عندما يسافر. وعلى العموم يترك هذه المستلزمات هدية عندما يغادر.

* * *

كان سيّد العراق يتأنّق على الطريقة الغربية. وبالرغم من أنّه لم يضع قدمه على الأرض البريطانية، فإنه معجب بالزيّ البريطاني، الأكثر أناقة في رأيه من الزي الإيطالي. وهو يُعدُّ ثيابه (وثياب أشباهه بالطبع) لدى خياطين في جرمين ستريت أو سڤيل رُو في لندن، قبلة الرجل الأنيق، لكنه لم يزرها شخصياً على الإطلاق. في العام 1976، وعند عودته من كوبا بعد اجتماع قمة لبلدان عدم الانحياز، هبطت طائرته في لندن للتزوّد بالوقود. عرضت عليه الحكومة البريطانية وهو آنئذ معاون رئيس الدولة في العراق أن يقوم بجولة يستكشف فيها العاصمة، فرفض صدّام مفضّلاً قضاء أربع ساعاتٍ على متن طائرته: «لا أريد رؤيتهم، ولا رؤية مدينتهم» وفقاً لتصريحه. كانت هذه الملبوسات المسعّرة بين تسعة آلاف وخمسة عشر ألف يورو تجهّز بقياسات ملائمة من أحد مفوضيه. هو يوصي على بزّات من أجود الأصناف، من الكشمير والحرير والكتان، كما أن قمصانه ترد في معظمها من العاصمة البريطانية.

مع ذلك لم يكن يأنف من ماركة بريوني التي يتباهى بها بطله المفضل جيمس بوند، ولا الملبوسات المفصّلة على المقاس لدى فرنسيسكو سمالتو.

كانت قاعات حماماته مجهّزة ببياضات موقّعة باسم

كريستيان ديور، وكذلك مآزره القطنية والحريرية، وكلّها من اللون الوردي. وتصنع خصيصاً له في أشهر بيوت جادة مونتين، إضافة إلى عطور الحمام، أيضاً كان صانع عطوره من بلدة غراس الفرنسية. يحوي كل من قصوره غرفة كبيرة تخزن فيها جميع أنواع العطور.

في العام 1977، تملّك صدام الصحيفة العربية التي تُطبع في باريس، وهي المسماة «الوطن العربي»، وأنفق عليها مليون دولار شهرياً.

كل شيء مادّة دعاية. لهذا السبب سمحت لنفسي بالكتابة إلى البابا جان بول الثاني، عندما فكّر في العام 1997 بزيارة أور موطن إبراهيم - وهي حالياً في الأراضي العراقية - بمناسبة رحلة إلى القدس، ورجوته أن يمتنع عن هذا المشروع لأن صدّام سيستخدم تلك المناسبة لمجده الخاص.

6

أولاد صدّام

ورث أبناء صدام وساجدة: صبياناً وبناتاً، الاستعدادات السلطوية والعنيفة من أهلهم. لم تُجدِ التربية معهم. ولم يسرُّوا من التكرار «لا تطلبْ، وجّهْ أمراً!». فقد علّمهم والدهم منذ طفولتهم احتقار الشعب العراقي كما فعل هو بالذات، واعتبار شقائه وآلامه التي يسببها النظام هي آلام الآخرين ولا علاقة لهم بها. أتذكر على سبيل المثال رؤيتي صدام ينظر مع العائلة مقهقهاً، كأنّه في فيلم من إعداد مونتي - بيتون، عند رؤية أشرطة صور الأحداث الجارية المعبّرة عن الحقيقة الدامية في النزاع الإيراني - العراقي.

إلى أبنائه بالتأكيد وُجِّهت الطرائق التربوية لصدّام الأقل أصالة فأعطت أُكُلُها الخالصة، ونتائجها الأكثر جلاءً... «أمراء بغداد الدمويون» كما لُقّبوا أحياناً، أصبحوا حديث الناس. سؤال واحد بقي دون جواب: «أيُّهما الأكثر خطراً بين الاثنين عدي أو قصي؟ عُدَي الابن البكر يَظهر بشكل واضح كمريض نفسي شرس مدمن على المخدرات، أما أخوه الأصغر قصي فقد نجح شيئاً فشيئاً في بسط سلطانه على

الأجهزة الأمنية ـ الهامّة في البلاد. كَثُر الحديث لمدة طويلة عن التنافس القائم بين الأخوين، لكن قصياً بقي العضو الوحيد في العائلة الذي يدعم عدي، حتى عندما سئم والده من مجونه.

* * *

وُلد عدّي في بغداد بتاريخ 17 تموز 1964. لم يكن عمره إلا بضعة أشهر عندما أُلقي أبوه في السجن في محاولة الانقلاب الفاشلة ضد عبد السلام عارف. رافق صدام طفولة ابنه البكر الأولى، لكنه بالمقابل بقي الطفل الأثير المدلّل لأمه.

أمضى مثل سائر أخوته دراسته الأولى في المدرسة الابتدائية، التي تديرها أمّه في الكَرَخ البغدادية. في بداية زواجهما كانت زوجة صدام هي التي تغلي قارورة الرضاع بينما الزوج يحوك مؤامراته (كان عليه مكافأتها على دعمها الدائم). حافظت على مركزها رغم أنها لم تقض أكثر من ساعتين يومياً في مكتبها، يحيط بها حرسها الخاص. والأساتذة جميعهم ينتمون إلى عوائل النخبة في النظام.

أعرب عُدي عن نزوع قوي للتمرد مترافق بميول عنيفة مبكّرة. مع مراعاة وضع والديه، لم يكن أساتذته يجرؤون على توبيخه. الواقع، وبغرابة، كان دائماً الأوّل في صفه... دام هذا الوضع حتى دخل كليّة بغداد، وكنت بدوري واحداً ممن عرفوه قبل ذلك بسنوات.

بالطبع، حضور عديٍّ في صف لا يُشجِّع مطلقاً على تقدّم زملائه. لكن ما العمل؟ من المتعذّر طرد ابن الرئيس إلى ذويه

أو سحب الأهالي لأولادهم من المؤسسة التي تتشرّف باستقبال عدي، (وبالتالي بقية أولاد الأسرة الرئاسية).

لم يكن عدياً يستوعب معاملته مثل أي طالب عادي. فإن احتاج لربع ساعة إضافية لإنهاء أسئلة كتابية. امتدت المهلة إلزامياً لجميع طلاب الصف، لكن إن أنهى واجبه خلال عشر دقائق وجب على الآخرين تسليم نسخهم في الوقت ذاته. عندما كُسِرَت ساقه تحوّل الصف بكامله إلى الطابق الأرضي ليتجنّب صعود السلّم. وفي الأيام التي لا يرغب فيها بالسير يأتي سائقه مباشرة لنقله من باب مدخل المدرسة.

في الخامسة عشرة من عمره وجد وسيلة جديدة لجذب انتباه وغيرة رفقائه وأساتذته: غدا يأتي من الآن فصاعداً إلى المعهد وهو يقود سيارة فخمة، «فِرَّاري أو بورش». كان ذلك طليعة مجموعة ضخمة من السيارات الفاخرة تتضاءل أمامها مجموعات الأحذية المتراصة في خزائن إيميلدا ماركوس. ألِف عدي أيضاً مجموعة من الأسلحة الناريَّة: إلى جانب البنادق المستخدمة خلال عطلة نهاية الأسبوع لإرواء هواه في الصيد، راكم الرشاشات ووسائل الاقتحام الناريّة. تسليه ممتعة لفتى يافع.

بدأ الجنس الأنثوي يتسلّط عليه بشكل ظاهر. مارس الجنس عدة مرات في الأسبوع مع العاهرات، غير أن أصدقاء تلك الفترة يؤكّدون أنه لم يكن ماهراً في السرير على قدر مهارته في تعاطي المخدّر. الخلاصة إنه مارس وجوداً كلاسيكياً لابن ذوات...

في حلمه بالعظمة خطط صدام لزواج ابنه البكر من

الأميرة عالية إحدى بنات الملك الأردني حسين... بدون شك اعتقد أن هذه المصاهرة، ترفع من قدر عائلته إلى مستوى العائلة المالكة الشريف. إنّما صُرِفَ النظر عن طلبه بمنتهى اللباقة. وفقاً للتقاليد العشائرية التكريتية، تزوّج عدي إذن إحدى بنات عمه، سجى برزان التكريتي، ابنة برزان، أحد أخوة صدّام غير الأشقاء. نُظِّم حفل فخم للاحتفال بالخطوبة، لكن بعد عشرة أيام توسلت الشابة من والدها المقيم في سويسرا لتسترد حريتها ويدعوها إلى قربه. استدعى برزان سجى للحال بعد أن استطاعت اللجوء إلى سويسرا. لم يتمَّ التطرّق أبداً بشكل علني إلى أسباب تغيير رأيها المفاجئ، أمّا أنا وقد كلّفت بمرافقة سجى مجدّداً إلى جنيف فيمكنني أن أؤكد دون عناء التخمين: ضرب عدي سجى وهو بحالة سكر شديد، تغطى جسمها بالبقع الزرقاء. وفق أحكام الشريعة الإسلامية فإن الزواج لم ينفذ عملياً، ولذلك تم الطلاق بسرعة. بعد ذلك الحادث توترت العلاقات بين برزان وعدي، وفي هذا رغبة سارّة لصدام يطبق فيها عن طيبة خاطر المثل المأثور «فرّق تَسُدْ» حتى ضمن عائلته الخاصة.

تزوّج عدي فيما بعد ابنة عمٍّ أخرى اسمها حنان، وهي ابنة وزير الدفاع السابق علي حسن المجيد، وبدا معها متلائماً بشكل أكثر كياسة. لم يرزق الزوجان أطفالاً، يرجع أحد الأسباب إلى الهاجس الجنسي المتعاظم لدى عدي.

ذلك أن الرجل لم يكن وفيّاً على الإطلاق لزوجته. في الواقع لم تسلم أية امرأة من مغامراته ولم تتمكن فتاة من إبعاده عنها، مهما كان وضعها الاجتماعي، فهكذا اغتصب

ابنة وزير الشباب، وهو من المقربين لوالده. شكا الأخير بالطبع إلى صدام من إهانة ابنته، غير أن هذا أجابه: «دع أولادي يتسلون يا رفيق». إنّه برنامج كامل...

كان عدي يتسلى، بغزواته الغرامية، الناجحة وغير الناجحة. وجود الزوج لا يزعجه، خاصة إذا كان على علم بسلوك زوجته. عندما تشرح له امرأة متزوجة بأنه يترتب عليها الانصراف حتى لا يشك زوجها بالأمر، كان عدي يأمر حراسه باحتجازها حتى يظهر الزوج المخدوع، بعد أن يعجز عن حجب وجهه. بالمقابل لا يهتم كثيراً باللواتي يضعهن أزواجهن أمام الباب، بأمل الحصول على الأعطيات التي وعدهم بها لإخضاعهم... إضافة إلى ذلك لا يتورع عدي عن تخدير امرأة ليغتصبها.

عمد أيضاً إلى خطة مبتكرة «لمساعدة» أرامل الحرب والزوجات الشابات الراغبات في الحصول على منحة دراسية. بالطبع كان يستقبل طالبات الوظيفة شخصياً. وقد رفه الحرس الخاص عن أنفسهم، برؤية الشابات وهن في عمر الزهور يرتدين على الأغلب التنانير القصيرة (مينيجوب).

بمرور السنين أظهر عدي ميلاً متزايداً نحو الفتيات، عدد من حراسه، أصدقاء وموظفين لعب من أجله دور السمسار لاصطياد الفتيات. فبعضهم كان مجال عمله في جامعة بغداد، والبعض الآخر يلاحق الفتيات. في المطاعم، البارات، أو المقاهي الليلية وحتى في الشوارع. اقتصرت مهمة أحد موظفي السفارة العراقية في لندن، على تنظيم إرسال خمس

أو ست عاهرات كل شهر إلى قصر عدي، كما كلف بلفلفة الموضوع عندما يترك العنان لشهوانيته ويقتل إحداهن...

كما سبق لي أن شرحت، كلمة «لا» لعدي ليست اختياراً مناسباً: وضعت إحدى الشابات في قفص للكلاب المتوحشة، التي مزقت بأسنانها جسد الفتاة (جزاءً على عنادها)، وألقيت أُخريات إلى المخالب الحادة للنمور المدجنة التي يمتلكها معذبهن ويتركن لمواجهة الموت. ملك عدي اثنين من السنانير سماهما تلفيح وصبحة (على اسم جدته!) حيوانات الرفقة هذه كانت مميزة بالعقود الذهبية والألماسية، كما كانت ترافق معلمها إلى المطاعم. وقد تم اقتلاع أسنانها حتى يلعب معها دون خطر. بعد سقوط صدام ماتت هذه الحيوانات التعيسة جوعاً لأن أحداً لم يفكر بتحضير اللحوم المسلوقة وتقديمها إليها وفق العادة.

كان قصر عدي في حي الجادرية يؤوي أيضاً ضمن قفص أقيم في المطبخ قردة (نسناسة) لقبت بلويز. عندما تبدر من حرسه أو أصحابه بادرة تزعج الأمير يكون قصاصه قضاء الليل في قفص الآنسة لويز.

كنت شاهداً لأول مرة على تصرّفات عدي بينما كنت أتناول الغداء في نادي الزوارق في بغداد، القائم على ضفة نهر دجلة. الدخول إلى هذا المكان الفخم كان خاصاً بأصحاب المقامات العالية في القصر الرئاسي. البغداديون العاديون لا يسمح لهم بالمرور أمامه حتى بالسيارات... لفتت نظر عدي زوجة لواء جميلة، كانت تتناول الغداء برفقة زوجها، وأراد التحرش بها برغبة ملحة الأمر الذي أزعج

الزوج، فاحتج إزاء هذا التصرف. ضربه حراس عدي. دهشت، ولكن كانت دهشتي أعظم عندما طلب مني عدي وببرود كبير أن أقدم شهادة زور تدين اللواء على ارتكابه الخطأ.

لم يخفف الاعتداء الذي كاد يكلفه حياته من غلوائه في العام 1996، وتركه مشلولاً وعاجزاً، بل بالعكس. زاد هذا من عناده واستهلاكه للمخدر: كان يأمل في أن يعيد إليه الكوكايين قدرته الجنسية المتآكلة بالحادث. واستهواه من الآن فصاعداً فضّ اليافعات الأبكار، اللواتي لا تتجاوز أعمارهن اثنتا عشرة أو ثلاثة عشر عاماً. انجرف في مِتع فاسقة، من واقع أن ضحاياه سينتهي بهن المطاف إلى الأرصفة، لأن ما من رجل شريف يرضى بالزواج من إحداهن حسب التقاليد العربية. وصل إلى حد أشار إلى فتاة يافعة قائلاً لأحد مرافقيه: «ألا تعتقد أنها ستصبح عاهرة جيدة؟». فهم محدثه عندها أن عدي اختار ضحيته القادمة.

اندفع إلى حد إلزام إدارة مدارس الأحياء الفقيرة والمحرومة من التطوير بإرسال مجموعات من التلميذات إلى القصر، يختار من بينهن من تحظى بنيل إعجابه. اللواتي يرفضن المقابلة المستهترة المعروضة يضربن. قيل عنه أيضاً أنه كان يعمد عن طيبة خاطر إلى طعن العاهرات بالخناجر والسيوف.

لم تكن النساء وحدهن ضحايا عنف عدي: فقد مارس سيطرته على أولئك المجهولين أو المقربين الذين شاء سوء

حظهم عدم نوال إعجابه. الأمر الذي لم يكن صعباً أو نادر الحدوث. مثلاً، لسبب لا يعلمه أحد، لا يستطيع أن يرى العاملين في المطبخ يبتسمون. ما إن يتخلى أحدهم عن وقاره ورزانته في حضوره حتى يعاقب الجميع، هكذا أو يصرفهم من العمل بكل بساطة.

كان عُدَي يحتفظ دائماً في متناول يده بالأدوات الضرورية لإجراء العقاب التقليدي المسمّى «الفلقة»، وهي لمزيد من العلم خشبة صلبة مجهزة بأحزمة وعصا. يتمُّ تنفيذ «العقوبة» بالطريقة التالية: تربط أرجل الضحية بعد ثنيها بالخشبة بوساطة الحزام، ويرفع حارسان الخشبة على الكتفين. يمسك بها كل منهما بأحد الطرفين، بحيث تعلّق الضحية من الركبتين والرأس إلى أسفل. مما يجعل القدمين العاريتين مكشوفتين على ارتفاع مثالي لمن يريد ضربها بالعصا. تتهاوى هذه عشر مرات، أو عشرين مرّة، أو خمسين مرة... بعد ذلك تُفَكُّ الضحية، ويعمد إلى «ترقيصها» على أطراف الأصابع المتألمة لإعادة دوران الدم، مما يزيد من شدة الألم. إنه عمل فظيع.

بلغت سادية عدي إلى حد أنه قدم النصائح إلى ضحاياه من ضرب العصا، بعدم التحرك وفي حال التحرك أثناء الضرب ومخالفة التوجيهات سيتعرضون إلى كسر أرجلهم. لم يجعلهم ذلك أكثر انتباهاً.

حافظ ابن الرئيس البِكر على «الفَلَقة» في مقراته كلها. في بغداد كما في الريف، وفي مختلف مكاتب الصحف ومحطات التلفاز العائدة إليه، وفي مكاتب اللجنة الأولمبية العراقية،

وكذلك في صندوق سياراته. وهو على الإجمال مستعد للعقاب بمنتهى القسوة.

غالباً ما تكفي زلّة ما إلى إثارة غيظه. وقد لاحظت ذلك خلال غداء في نادي الزوارق. وهو مكان لم أكن محظوظاً فيه على الإطلاق. فقد دعوت أحد أصدقاء عهد الصبا ممن لم تطؤه قدماه وكان يحلم بنادي الزوارق ويتمنى الدخول إليه. في نهاية وجبة الطعام وصلت خمس فاتنات اجتزن القاعة وتوجهن نحو قاعة أخرى. على سبيل المداعبة حيّاهن الصديق، وهو ممن عاشوا فترة طويلة في الغرب، برفع يده. الأمر الذي كان يجب أن لا يحدث؟ للحال حضر حارسان «ماذا فعلت؟» وجه تحية إلى صديقة عدي... حاولت التخفيف من الوضع المأساوي، وشرحت أن صديقي يعيش في ديار الغربة، وأنّه يجهل لمن يوجه التحيّة، وأنه أراد فقط التعبير عن إعجابه إلخ. يجب انتظار وصول عُدي، أردت التفاوض عبثاً لأجنب صديقي المسكين تلك الورطةً. من جهتي فهمت على كل حال الدرس: ولم تعد قدماي تطأ ذلك المكان على الإطلاق!

كان عدي مهووساً حقيقياً بالتقيد بالوقت. بالتأكيد الدقة من تهذيب الملوك، غير أن المغالاة غير مقبولة دون شك! إذا أعطى موعداً لصديق في وقت محدّد، فإن جميع الواصلين متأخّرين حتى بعذر مقبول، يتعرضون لجلسة فَلَقة أو يتلاقون خلف القضبان. الأسوأ من ذلك: من يود مقابلته يجب أن يكون جاهزاً قبل نصف ساعة. تعيس من يتغيب عن المدينة، أو أنه على بعد ساعة من بغداد: سيُعاقب لهذا السبب.

في أحد الأيام، تحقّق أحد الأصدقاء من تعذّر وصوله في الموعد المناسب إلى مكان الاجتماع في الوقت المحدّد له، وقرّر أن يؤخر ساعته. يا لسوء حظه، في ذلك اليوم، كان عدي يحمل ساعة - رغم وساوسه حول الوقت، فإن ابن صدام البكر نادراً ما يضع ساعة في يده. وعندما وصل سأله عدي عن الوقت. كان عدي قد ضبط موعده، فعوقب الرجل بعشرة أيام سجن على هذه الجريمة من «جَرْحِ كبرياء عدي».

ترفض كل الأعذار وفقاً لتصريح السكرتيرة المكلفة باستقبال وفد الفيفا(•). ففي زيارة للعراق نسي أحد أعضاء الوفد أدويته في منزله. ولا حلّ لديه سوى التوقُّف لدى أكبر صيدلية في بغداد لتأمين الدواء المماثل. رغم جهوده المعجّلة، وصلت السيارة بتأخير خمس دقائق. عوقبت المرأة الشابة بالفلقة...

باختصار كانت هذه العقوبة تطبق دائماً، بعض سيئي الحظ وسموا بالحديد المتوهج على قفاهم، مثل البهائم. هكذا سيتذكرون أخطاءهم طوال حياتهم، كما يقول عدي. من أجل هفوة بسيطة يحلق الرأس من قِبل أحد الحراس. وعند ضرورة توجيه الإنذار المناسب لإنسان ما، يُجبَر على حضور عملية تنفيذ إعدام بقطع الرأس.

أفاد بعض المعارضين للنظام بأن عديّاً، عندما ترأس اللجنة الأولمبية العراقية، سجن وعذّب بلا هوادة الرياضيين الذين لم ترضه نتائجهم.

لم يتوقف عُديّ دائماً عند العذابات البسيطة: فقد عمد

(•) الفيفا: هي الاتحاد العالمي لكرة القدم.

بطيبة خاطر إلى تنفيذ القتل بأعدائه ومن يضايقوه. (قتل لأوّل مرة ضابطاً رفض إعارته خطيبته لليلة...) وألقي على عاتقه مئات من أحداث القتل المرتكبة من قبله أو بناءً على أوامره.

لم يكن يخشى مهاجمة أشخاص من ذوي المقامات العالية، واحتمال إثارة سخط أبيه. وهكذا قام بقتل كامل حنا ججو أحد أقرب معاوني صدام (أمين سرٍ وحارس الرئيس وذوّاقته)، لأن هذا قدّم لوالده الجميلة سميرة الشهبندر التي حلّت محلّ ساجدة في قلب صدّام. جعل منها صدّام زوجة ثانية له، إضافة إلى أنّه أنجب منها ولداً - منافساً محتملاً مباشراً لعدي وقصي - الأمر يتعلق بغسل هذين العارين بالدم. علاوة عن ذلك انتابته الغيرة من كامل المقرّب جداً من أبيه. هذه المرة لم يبتسم صدّام من جرائم ابنه، بل غضب، وأعلن رغبته بمعاقبة القاتل. وأخيراً اكتفى بإيداع عديٍّ في سجن القصر أسيراً لمدة أربعة أيام قبل نفيه إلى جنيف لأربعة أشهر، تحت إشراف عمه برزان وهو يعرف أنه لا يحسن التصرّف ولا يتسامح معه كزوج لابنته وهو الزوج السابق والعنيف لابنته سجى. في بدء إقامته كان عدي يصلي كل يوم ويمتنع عن الشراب، لكنه عاد مجدّداً إلى عاداته السيئة. ثم غفر له صدام واستدعاه إلى بغداد. وللتعبير عن مصالحته قدّم له بنفسه الخاتم الكبير المرصّع بالألماس الذي كان يتباهى به في كثير من الصور الحديثة.

وجد عنف عدي متنفّساً له في شخص صهره حسين كامل، الذي كان يحسده منذ مدّة طويلة على المكانة التي حظي بها لدى صدام حسين. لكنه كظم غيظه خلال عدة سنوات.

وعندما يسَّر له الرجل فرصة الانتقام منه على طَبَق من فِضَّة بهروبه مع عائلته إلى الأردن، مهدداً لدى وصوله إلى هناك عن رغبته في إجراء انقلاب على صدّام. أمكن لعُدي إفساح المجال لحقده في موافقة شبه عامة.

بادَر إلى التوجّه إلى عمّان بعد يومين من وصول الهاربين، وانتهت محاولته إلى فشلٍ كليٍّ. خشي الملك حسين أن يكون قد حضر لقتلهما، ولم يسمح له برؤيتهما. لكنه بعد ذلك عمد مجدداً إلى وساطة بين الأخوة والأصهار أتاحت له نقل رسائل سريّة تتضمن باسم الرئيس وعشيرته، غفراناً كاملاً إذا التحقوا بالعراق. شيئاً فشيئاً خاب أملهم بما صادفوه من لامبالاة الأردنيين بهم، ورضخ حسين كامل رغم اعتراضات زوجته وأخيه، وكتب إلى عدي بأنه يرجو العودة إلى العراق.

انتظر عدي المجموعة على الحدود بكل سرور كعادته. وضع أخواته وأولادهن وبناتهن في سيارة فخمة، وسار الرجال برفقته حتى مركز الوصول. لاحظ أحد رجال الجمارك المشهد، وقال في نفسه، إنَّ أصهار صدام لن يعيشوا طويلاً بعودتهم إلى الحظيرة...

اقتيد الأخوان كامل إلى صدّام، ثم استجوبتهما الشرطة السريّة. اصطحبا بعدها إلى المقرّ العائلي في حيّ الجادرية، بالطبع لم ترافقهما زوجتاهما. في الغد قُسِرا على الطلاق، صدام أجبرهما عليه. وفي اليوم التالي أكّد ابن عمّ لهما شبهاته بأن صدام غير مبال بمسامحته إياهم. مع فجر اليوم الثالث حاصرت القوات الخاصة المنزل، ثم بدأ الانقضاض.

أنهى عُدي بنفسه العملية بإطلاق رصاصة على حسين كامل استقرت في رأسه.

عندما نفكّر أنه في المساء أقسم على الهاتف لأخته رغد، زوجة حسين كامل، إنه لن يسبّب له أي أذى! «إنه حبيبي ياعزيزتي. أقسم لك»، وجب أن تعرف المرأة الشابّة قيمة وعد أخيها. لم تعد هي أو أختها رنا زوجتا، بل هما أرملتا صدّام كامل وحسين كامل. لم توجها كلمة لأخيهما، بل يُقال إنهما نثرن الشمبانيا عندما علمن بأنه ضحية محاولة اغتيال، وأن الأمل باستمراره بالحياة أصبح محدوداً.

مرة أخرى وفي ظروف غامضة، أطلق عدي النار على عمّه وَطْبان الأخ غير الشقيق لصدام خلال اجتماع عائلي في جوار بغداد. فقد عدة مغنين وراقصين من النَوَر حياتهم، وأُصيبَ وَطْبان، هدف عُديٍ الرئيسي، بجرح بليغ في ساقه. في هذه المرة نجا عدي من الغضب الأبوي، لأن الحادث تطابق مع هرب حسين كامل وأخيه وزوجتيهما. عمد صدام إلى ضخ البنزين على ثلاثين سيارة من مجموعة سيارات ابنه، وإشعال النار فيها ليؤكد لهذا الأخير بأن عليه بذل كل الجهود لاستعادة رضى الوالد وهي: إعادة الهاربين، فما من مهمة أخرى تجلب له السعادة.

بعد أسابيع طويلة من العناية الطبية وقطع جزئي في الساق التحق وطبان ببغداد. من يُخَمِّن من كان في استقباله عند عودته؟ عدي. وقد ظهر بوجه لا يخلو من الإشراق، لكن الصور عبرت عن قلق وغضب كامنين.

لم يكن من المستحسن على الإطلاق معارضة عديٍّ في ميدان الأعمال. كان يشبه رئيساً من المافيا يأمر حرسه بإحداث جراحٍ لمنافسيه في الذراع أو الساق، ثم يتركهم بكل برود ينزفون دماءهم.

استخدم عديٌّ جهاز قتله الخاص. صادفت يوماً اثنين منهم في القصر. مجهولان بسحنة منقلبة دخلا إلى أحد المكاتب كأنهما قطّاع طرق غير مبالين بالأنظمة، واستلقيا على كرسيٍّ مريح. لم تبدر حركة من الحراس الخمسة، غير أنني سألتهما عمن سمح لهما بمثل هذه الراحة المرفّهة. فأجابا إنّ هذا لا يخصني، وأضافا وكأن ذلك يشرح كل شيء - وفي ذلك كل الحقيقة - «إنّه طَلَبٌ من عُدي». سألت مع ذلك أحد الحراس خفية عن هوية هذين الأرعنين، وبعد أن أشار علي بالسكوت قادني إلى الممر وهمس في أذني إنّهم فرقة القتل التابعة لعدي، وهم أصحاب سلطة تساوي سلطة فدائيي صدام.

يجدر بنا القول إنه خلق مزيداً من الأعداء، حتى أنّه عند محاولة اغتياله لم يستطيع أحد التخمين عن الفاعل. كثيرون هم الأشخاص الذين لديهم المبرر لذلك...

بدأ كل شيءٍ في رواق صيد صغير لما يُسمّى المستنقعات التي عمد صدّام إلى تجفيفها قبل ذلك بعدة سنوات. اجتمع ستة رجال لإعداد خطة لقتل عدي. ليس للتخلص منه، بل لطعن صدام في صميم قلبه. أعِدت العملية

بعناية كبيرة. ليس من السهل حصاره، فهو حذر إلى حد الجنون الهذياني. إنّه لا يحدّد على الإطلاق المكان المتوجّه إليه، بل يشير إلى أماكن وصول متعدّدة. مقرّات، مكاتب، نوادٍ الخ. وبوساطة رموز شيفرة (111، 207، 103 إلخ.) هذه الرموز تتغيّر كل عشرة إلى خمسة عشر يوماً، مما يجعل من الصعب جداً حصرها. لم أتوصل على الإطلاق لمعرفة كيفية الاستدلال عليه ضمن هذه الأرقام.

قرّر المتآمرون التجوّل في حيّ المنصور، حيث اعتاد عدي أيام الخميس مساءً والجمعة ـ وهو يوم عطلة كما في جميع أنحاء البلدان الإسلامية ـ ملاقاة النساء المنتخبات من قِبل عملائه المكلفين بانتقاء الشابات من الجامعة أو.... كما سبق وذكرنا. بما أن الحيّ مزروع بالشرطة السريّة، كان عديّ يشعر بالأمان ويتنقل دون الفرقة المعتادة من الحرّاس الشخصيين.

كيف يمكن الانتقال بشكلٍ غير منظور عن أعين المخابرات المدنية؟ الجواب: بالتلبّس بين الجماهير. تظاهر متآمران بالإقامة صراحة في الحيّ، على اعتبار أنهما من الباعة الجوّالين في الشارع. راحا يثرثران مع التجار ورجال الشرطة. بعد عدة أسابيع غدوا جزءاً من المشهد، ولم يلاحظ أحد وجودهما. بالغا في اللامبالاة حتى أنّهما عرضا على الشرطة تزويدها بالمعلومات خلال فترة الثلاثة أشهر السابقة لتنفيذ المهمة، في هذه الأثناء كانت مهمة بقية العناصر هي تأمين السيارة والقنابل اليدوية والرشاشات.

لم تتوافر الفرصة المناسبة على الإطلاق، وبدأ المتآمرون يشكون بمخططهم. مع ذلك قرروا استغلال فرصة الحظ الأخيرة قبل إلغاء العملية. أخيراً ابتسم لهم الحظ ليلة 12 كانون الأول 1996. ظهر عدي خلف مقود سيارته البورش مع صديقه وسمساره علي السهّار. لا يوجد أي حارس في الأفق! فتح البائعان الجوالان حقائبهما الرياضية التي يخفيان فيها أسلحتهما. عندما نزل علي من السيارة «لالتقاط» الفتيات، بدأ الهجوم، بإلقاء القنابل على السيارة وإفراغ الرشاشات على عدي. توجب استخراج ستين رصاصة من جسمه، ولكن واحدة منها لم تلمس رأسه. غير أن إصابته خطيرة جداً.

عاد علي مسرعاً، بينما الرصاص مايزال يصفِّر باستمرار، ليسحب صديقه من السيارة المغربلة بالرصاص، والسير به سريعاً إلى مشفى القصر. خلال هذا الوقت انثنى المعتدون خفية وعادوا إلى قاعدتهم في داخل المستنقع. استدعي بمنتهى السرعة طبيبان إلى سرير عدي الدكتور البشير والأستاذ عزيز محمود شكري. ترك تشخيصهم الأوّل قليلاً من الأمل. كان هدفهم الأساسي إيقاف النزيف قبل أن يفقد المريض بسرعة كامل دمه. كان الدم يسيل منه بغزارة حتى لَزِمَه نقل الدم بشكل متواصل، كانت غرفة العمليات تسبح في الدم عندما كان يتلقى الإسعافات الأولى. وحين وصل صدام مترافقاً بأمين سرِّه الخاص، لَزِمَ عليه التخبط في دم ابنه للوصول إليه.

لا أحد رأى صدام تحلُّ به تلك الصدمة. هو الذي شاهد

مقتل العديدين من أفراد عائلته لم يتصور على الإطلاق مهاجمة ابنه. فاقترب من الجريح دون وعي وقبّله على جبينه - إنّها دون شك القسم الوحيد في جسده غير المدمى. وصرّح قائلاً: «هذه الجريمة لن تبقى دون عقاب. إنها برهان على أننا محقّون وإن أعداءنا على ضلال».

قيل في تلك الفترة أن قصيّاً، أخ عديٍّ، أو صدّاماً نفسه، كانا وراء محاولة الاغتيال. أنا لا أؤمن بهذا على الإطلاق. فمدبّرو المذبحة صرّحوا لاحقاً أنّهم تصرّفوا بمفردهم.

أعلن قصي الاستنفار لجميع قوات الشرطة السرية لاكتشاف المذنبين، فكّر باتهام علي، الذي غاب عن المشهد لحظة الهجوم كما صرح. لو تبين أن له أية علاقة بالحادثة سيعمل على قطعه إلى قسمين. تم توقيف أحد المتآمرين لأمر آخر، اعترف تحت التعذيب فأُعدم مع جميع أفراد عائلته.

على غير ما كان يُتوقّع عاش عُديٌّ، وبعد عدّة عمليات دقيقة، جرت الأخيرة منها من قِبل جرّاح ألمانيٍ استبدل بجزء من عظم الفخذ عنصراً من البدائل الصنعية، ونجح عدي في السير مجدداً. بعكس ما كتب عنه سابقاً لم يغدُ على الإطلاق عِنيناً، حتى لو فقد بعض قدرته الجنسية، بل إن إفلاته من خطر الموت المداهم جعله ألف مرةٍ أكثر قسوة...

أما عليٌّ السهّار وهو منقذه، مجازفاً بحياته، فقد أوقف في كانون الثاني 2003 وأدين بالهرب إلى المنطقة المتمتعة بالحكم الذاتي من كردستان. يقال إن عدياً أمر بقطع لسانه وأذنه وكسر ساقيه، وتركه يعاني مصيره البائس. بالتأكيد ليس هذا من قبيل العرفان بالجميل...

مع جمعه للفتيات، والسيارات، والبنادق، والقتلة، كدّس عُديٌّ ثروة ضخمة؛ قسم منها بفضل مؤسساته الشرعية: (محطات تلفازية وصُحُفٍ، وتربية دواجن أيضاً، وكذلك إنتاج المثلجات)، إنما خاصة، وبشكل غير نظامي، صفقات البترول التي نفذت بشكل غير قانوني وبالرغم من قانون العقوبات الاقتصادية الصادر عن الأمم المتحدة بدءاً من العام 1990(*).

كان يقتطع عمولة بنسبة تتراوح بين 10% إلى 20% من جميع الاتفاقات التجارية المعقودة مع المؤسسات الأجنبية، سواء أكانت متعلقة بالبيع غير القانوني للبترول أو الاستيرادات من جميع الأصناف (حواسيب، فولاذ، نظارات شمسية... الخ). وخلافاً للحظر المفروض من الأمم المتحدة، كان أسطوله الشخصي ينقل النفط الخام تهريباً ليسلمه للمشترين اللامبالين.

يا لتعاسة من كان يعترض طريق عُدي. فعندما منع وزير التجارة محمد مهدي صالح الاستخدام الغذائي لأحد أنواع زيت النخيل الذي كان يستورده عدي ـ كان الرجل المسكين يجهل التفاصيل ـ أرسل عدي شرطيين يشتمون المذنب ويسبّبون له آلاماً معنوية مربكة. طلب الوزير راجياً مقابلة عُديٍّ ليشرح له خطأه، غير أنه رفض مقابلته، واكتفى بالقول له إنّه يأمل مستقبلاً أن يكون دون شكٍّ أحسن تصرُّفاً...

(*) في 8 آب 1990 فرضت الأمم المتحدة حظراً بترولياً ضد العراق بالقرار الشهير: «البترول مقابل الغذاء» الذي تمّ التصويت عليه في 9 كانون الأوّل 1996، وهو ينصّ على أن العراق لا يمكنه إنتاج إلا ما يعادل ملياري دولار كل ستة أشهر تحت إشراف الأمم المتحدة، مع اقتطاع قسم من هذا الدخل لتمويل مختلف هيئات المراقبة الدولية العالمية.

عدا عن ذلك كان عدي على رأس جميع مهربي السجائر عبر تركيا وإيران نحو العراق، وهذا ما يمثّل مصدر إثراء ضخم، لأن العراقي مدِّخن معتبر، وعدي يمتلك احتكاراً شبه كامل. يجدر القول إن منافسيه النادرين ما لبثوا أن اختفوا في ظروف غامضة...

رفعت مذكرة (أُعدت في فرنسا) إلى الأمم المتحدة تتضمن توجيه اللوم إلى منتجي الدخان الأوروبيين، لأنهم يخالفون قانون العقوبات الاقتصادية المفروض على العراق من قِبل الأمم المتحدة ويبيعون كميات هائلة بشكل تهريب إلى عدي الذي يعمل على تسويقها وجني ثروات حقيقية.

إحدى هوايات رجل الأعمال الشديد التدقيق والارتياب، طلب مجلات تتضمن موديلات للسيارات في جميع أنحاء العالم، على نسق ما يفعله آخرون غيره مع نماذج البيع بالمراسلة. أحاط بدائرة حمراء الطراز الحائز على إعجابه. عَمْدتُ إلى ترجمة الفصول المخصَّصة للعربات التي وقع اختياره عليها. استدعاني في اليوم التالي لإجراء طاب موديل فِراري ولامبرغيني ولوكوس. وقد حوت مرائب القصر نحو عشرين ألف سيارة من جميع النماذج الممكنة والتي يمكن تصورها.

مع أنّ مساهمة عدي في الحرب التي يقودها أبوه ضد الكويت اقتصرت خلال احتلال القوات العراقية للبلاد على الغزو من أجل «أعماله التجاريه»: جلب مئة وستين سيارة رياضية. كما «سرق» حليٍّ ومجوهرات تصل قيمتها إلى ملايين الدولارات.

ومثل أي سارق جيّد، توقع عدي في كل لحظة أن يُسرق بدوره. اعتاد إذن أن يروز جيداً الأشخاص المهتمين بأمواله للكشف عن أي غنى يصعب تفسيره. حتى وإن لم يكشف التحرّي عن خطأ مستتر في أشخاصهم، فإن التعساء ممن تزداد أموالهم يتعرضون للمسألة، إذ وفقاً لمعتقدات عدي كل الأشخاص الذين يزداد وزنهم يُعَدُّون من السارقين. ولا أحد يعلم على الإطلاق الأسس المكوّنة لهذه النظرية، لكنها تحثُّ الكثيرين في محيطه على الالتزام بحدودهم!

* * *

ولد قصي الأخ الأصغر في أيار 1966، مبدياً اعتدالاً واتزاناً أكثر، لكن هذا لم يحل دون أن يكون مماثلاً في الخطر لأخيه، حتى أنّه كان يدعمه دائماً رغم ما يوجهه إليه من لوم. إذ أنه بعد قتل كامل حنا ججو، وإعلان صدام عن نيّته في تسليم ابنه البكر للعدالة، استمر قصيٌّ في السهر عليه.

هو أكثر احتشاماً من أخيه، وقد احتفظ منذ الطفولة بالمجموعة ذاتها من الأصدقاء، نخبة من أبناء حزب البعث، إن صداقة ابن صدام ليست أبداً منصباً فخرياً، لا تستطيع أبداً أن تبقى بعيداً، ستُجر بقوة إلى عالمهم غير العادي.

بعكس أخيه، لم يقرب قُصيٌّ على الإطلاق المخدّرات القاسية، بل تزوّج وهو في التاسعة عشرة لمى، ابنة اللواء ماهر عبد الرشيد التي أنجبت له خمسة أولاد هم: مصطفى، عدنان، صدام، ساجية وابنة أخرى. كان الورثة فائقي الحماية والدلال.

كما أنّه لم يكن أبداً زوجاً وفياً ـ العِرْق دسّاس دون شك

- على نسق أخيه البكر. كان مغرماً بالفتيات اليافعات بين الثالثة عشرة والرابعة عشرة مع قبوله عندما تسنح له الفرصة بالفتيان اليافعين أيضاً.

لكنه على نسق أبيه وأخيه لا يقضي الليل أبداً مع عشيقاته، وهو يعود على الدوام لينام في سريره الخاص.

بينما كان عدي يؤثر المشاريع ذات الاعتبار والنفوذ، آثر قصي بالأحرى أن يمارس العمل في الظل. مع انتهاء دراساته الحقوقية أظهر رغبة في الانصراف إلى أعمال القصر. كُلِّف سكرتير صدّام الخاص عبد حمود بتأهيله، وبعد ستة أشهر أرسل الرئيس ابنه مساعداً لصهره الذي كان يقود قوات الأمن الخاصة.

حصل قصيٌّ على موقعه المتميّز عام 1991 عندما سحق بشكل باهر الانتفاضة الشيعية، التي أعقبت الهزيمة العراقية ضد قوات التحالف. بعد أن ضرب الأحياء ذات العلاقة بوساطة الحرس الجمهوري، دون الاهتمام بتجنُّب الضحايا المدنيين، تمّ توقيف السكان بالمئات. بعد ذلك جمع المساجين في عنابر واسعة وعرّاهم كلّهم من ثيابهم رجالاً، ونساءً وأطفالاً على السواء. بعدها اقتيدوا إلى التحقيق بقيادته غالباً. من يرفض التعاون معه يُقتَل فوراً. وقد دُفِنَ معظم الضحايا في مقابر جماعية شقَّتها البولدوزرات.

كان قصي مقرباً جداً من والده، ولعب أحياناً دور الحارس الشخصي له. حيث أظهر عنفاً تجاه المتملقين ممن

حاولوا التقرّب إلى صدّام. بينما كان الغوريلات الآخرون يتدافعون للتقرب كان قصياً يقرّعهم بالخيزرانة.

عندما قيل له يوماً إن السجون مملوءة حتى الإشباع بالسجناء السياسيين، أمر «بحملة تنظيفات». بكل صراحة، عمد إلى قتل ثمانية عشر ألف شخص، بكل بساطة، لإفراغ الأمكنة وإيواء سجناء جُدُدٍ.

شيئاً فشيئاً عرف كيف يركِّز بين قبضتيه كلّ قوى الأمن في البلاد، والمخابرات العسكرية، بمن فيهم الضباط السبعة من البوليس السري، وفي الصف الأول منهم الأمن الخاص، والمخابرات ومديرية الأمن العامة، وهذا ما يمثِّل 270.000 شخص تحت إمرته. طالت يده الحرس الرئاسي، وفي فجر الحرب الأخيرة غدا بشكل حقيقيّ الرقم الثاني والوريث المؤهل لوالده، حتى أن صداماً عزم في أحد الأوقات على تسميته رئيساً للوزراء...

كان أكثر بعداً في الواقع عن كونه ابن الرئيس، كان عنيفاً، سريعاً وحازماً في اتخاذ القرار، لا يتراجع أمام قتل ضروري كما برهن عن ذلك بوضوح عندما سحق التمرد الذي رافق نهاية حرب الخليج الأولى في العام 1991.

ولكن كقاعدة عامة، بقيت جرائمه أقل شيوعاً من الجرائم التي قام بها أو أمر بتنفيذها أخوه. حتى عندما شارك في قتل الأخوين كامل، انطلق بعد رميهم بالرصاص ليشرح بكل كياسة وتقى أنه «لا يريد أن يفكر ابن حسين كامل بأنه قتل والده» واستضاف أختاه وأولادهما في قصره، وبعكس أخيه

البكر حافظ على علاقات طيبة معهما، حتى أنه قام بدور الأب الوصي على أولادهما.

إجمالاً، وإن لم يكن مضطرب الشخصيَّة والعقل بشكل واضح مثل أخيه، كان يبدي أيضاً بعض خشونة غير متوقعة. سبق أن ذكرت في فصل سابق كيف سجنني وضربني، لأنني قدَّمت كراسيَّ وماءً في حرارة شهر آب اللاهبة إلى مجموعة أناس مساكين.

طبّق على أولاده بالذات تعاليم التربية التي تلقّاها. وهكذا تلقّى ابنه البكر مصطفى بندقيته الحقيقية الأولى وعمره خمس سنوات. عندما أشرت إليه أن بإمكان الطفل أن يسبّب جرحاً لنفسه، أجاب قصي إنه يريد أن يربي مصطفى ليصبح «رجلاً». يُظهر أحد الأفلام الأب والابن يمارسان إطلاق الرصاص جنباً إلى جنبٍ. هذه التربية طبعت شخصية مصطفى بطابع الحقد والعنف. ففي عمر عشر سنوات كان يعرف مع أخوته كيف يستخدمون كل أنواع الأسلحة، بما فيها الكلاشنيكوف.

لماذا نستغرب، ضمن هذه الظروف، بأن مصطفى ابن الرابعة عشرة قُتل والسلاح في يده، مع أبيه وعمه. يروي الشهود بأنه بقي واقفاً إلى جانب جثتي الرجلين يطلق النار، قبل أن ينهار بدوره على وقع الرصاصات الأميركية.

لا يفصح الحَدَث اليومي أن قصي كان يتمتع بطبع سلس أكثر من أخيه البكر، كما يشهد على ذلك الحدث المزعج الذي جرى لي مساء ولادة ابنتي أُنَس. فقد احتاجت زوجتي إلى

عملية قيصرية، فذهبت إلى رؤيتها في المشفى وأنا أحمل إليها بعض الحلويات. مع خروجي مررت على نادي الصيد، وهي مبادرة تقتضي أسفي الكبير.

في البداية سار كل شيء على أحسن حال: هنأني الجميع لأنني أصبحت أباً. كان يجلس عبد الحميد محمود التكريتي، السكرتير الخاص والروح الشريرة لقصي وأحد مترجمي صدام الخاصين (قُتل من قبل قوات التحالف) مع قصي على طاولة عليها زجاجة كبيرة من الويسكي.

كان قصي قد شرب كمية لا بأس بها - لا يقرب المخدرات ولكنه كحولي - رحّب بي ودعاني إلى الجلوس إلى طاولته. كان علي قبول الدعوة لتناول كأس ويسكي - خلافاً لطريقتي في التعايش مع العائلة الرئاسية وتجنب الشراب بصحبة أقارب صدام.

- يجب أن أحصل على هدية للطفل غداً، كرّر قصيٌّ.

فجأة بدأ عبد الحميد يروي لقصيّ من أنني لست مسروراً من عملي، وأنني أتذمّر منه. تغيَّر مزاج قصي كلياً في لحظة: ووجّه إلي الشتائم ونعتني بابن الكلب، وبأنه يتوجب علي الاعتراف بالشرف العظيم الذي يغمرني به والده بالعمل لديه. كان علي أن أعلم أن الأمور لن تستمر طويلاً....

مرة أخرى كنت أحضر حفلة زواج مع قرينتي. جلسنا إلى مائدة مع بعض الأصدقاء، ومع نهاية الحفل نهضت متوجهاً إلى التواليت مما تطلب اجتياز الحديقة، فلاحظت مائدة كبيرة محاطة بالحراس وخمّنت أن أحد أقارب الرئيس

وافد لتناول كأس فأسرعت الخطى تحاشياً للتعرّف عليّ. هُرع أحد الحراس نحوي يسألني ماذا أفعل في هذا المكان. الجواب لا يعنيه على الإطلاق، حضر ليسأل عني من قِبل سيده قصي، وجدت ابن صدام الأصغر ثملاً ومحاطاً بثلاث شقراوات بضات القوام. كان من العبث أن أشرح له أن زوجتي وأصدقائي ينتظرونني. فاضطررت أن يكون لكل مقام مقال، ومع شكر قصي على دعوته ـ وَجَبَ أن أشكره بكل احترام على دعوتي، قبل جلوسي، خشية إزعاج معاليه ـ وقبول الكأس المقدّم لي. وهكذا احتجزني لثلاث ساعات أوشكت زوجتي خلالها على الجنون قلقاً.

بكل صراحة، كان ابنا صدّام يتباهيان، كلٌّ على طريقته، ويعلنان سلوكاً وحشياً خالصاً وبشعاً، ولم يأسف أحد لموتهما تحت رصاصات قوات التحالف.

7

صدّام والنساء

أوّل امرأة في حياته وأكثرهن أهميّة دون شك هي أمّه. فقد تمتّعت بشخصية قوية وأثّرت بشكل عميق جدّاً على ابنها. أرعبت كل من يحيط بها، بمن فيهم تلك الرهيبة بدورها ساجدة.

كانت شديدة الالتزام بالتقاليد. لم ترتد على الإطلاق الملابس الغربية، ورفضت على الدوام أن تعرض نفسها أمام مصوّر لرسمها. غير أن صدّاماً تمنى الحصول على صورة لأمه. أوفد رُسُلاً إلى العالم أجمع ليكشف عن رسّام عراقي ذي موهبة يحقق أمنيته. وبعد ثلاثة أشهر تمّ له الأمر في اكتشاف أحدهم في روما. المشكلة أن هذا الفتى كان قد هرب من العراق تخلّصاً من الخدمة الإلزامية، ورغم أنه كان يعيش والتعاسة ترافقه، وهو يتقاسم غرفة صغيرة مع ثلاثة فتيان آخرين فإنّه اعتذر دون تردد عن قبول العرض المقدّم له.

بيّنت له أن لا خيار حقيقياً أمامه. فهو يجازف بالمعاناة. على الأقل ستعاقب أسرته الباقية في العراق، بعد أن ساعدَتهُ على الالتحاق بإيطاليا. انتهى به الأمر إلى

الاقتناع... حسناً فعل، على الأقل في المستوى المالي إذ أنّه غدا ثرياً!

بدأ الرسّام يعمل مختبئاً خلف مرآة عاتمة، حتى لا تعلم صبحة أنّه كان يرسمها. احتراماً لم يعترف صدام لأمه على الإطلاق كيف تحقق الرسم: «تدبّرنا أمرنا» شرح فقط مجيباً على أسئلتها.

يسمح القرآن للمؤمنين الاقتران بأربع زوجات في آن واحد. إن أراد الرجل زيادة في العدد وجب عليه أن يُطلّق واحدة من الأربعة. وسمحت التقاليد أيضاً بزيجات مؤقتة (المتعة) ليوم وأحياناً لساعة وهي طريقة عملية للمغرمين بالمغامرات الغزليَّة... هوّذا في الواقع ما يجنّب الزنا المعتبر جريمة. وهذه الحظوة تقتصر على الرجال فقط.

حافظت ساجدة زوجة صدّام الأولى على مكانة مميّزة عن النساء الأخريات، على نسق الزوجة الأولى لأباطرة الصين. عدا عن أنّها أم أولاده، مما يكسبها مكانة خاصة في التقليد الإسلامي. حتى في الحريم الوافرة لدى السلاطين العثمانيين كانت الزوجة الشرعية والدة الأمراء تحظى بمقامٍ سامٍ.

تزوّج صدام للمرة الأولى إذن من ابنة خاله ساجدة خير الله طلفاح. أنجبت له خمسة أولاد: عُديّاً وقصيّاً ورَغَداً ورنا وحلا. من جهة الرئيس المستقبلي لم يكن زواجاً توافقياً، فهو مغرم بابنة خاله... لكن ساجدة بدورها كانت مغرمة برجل

آخر، أمير، وهو طيار في وزارة الزراعة. كان أمير حبّها الكبير في حياتها، لكن عشيرتها تفضّل الاقتران بأبناء العم (وهذا يفسّر على الأرجح الطباع غير المتوازنة لولديها). وهكذا فإن أميراً عندما طلب يد ساجدة أجابه والدها بأنها مخطوبة، واقترح عليه خُطبَة واحدة من أخواتها (غير أن الشاب اعتذر بتهذيب عن هذا العرض السخيّ).

لكنها عندما لا تقاسم زوجها المضجع تبقى مقتنعة بأنها باقية الزوجة الأثيرة. على كلّ حال كانت تُعَدُّ من الأشخاص النادرين الذين يستمع إليهم صدام. رابطة أزلية كانت توحدهما بسبب مدة زواجهما وبواقع تربيتهما المشتركة.

عندما بدأ صدّام يهملها لم تبق عفيفة طاهرة: ساجدة لا تشبه على الإطلاق الصورة المكوّنة عن المرأة المسلمة. هي تجمع العشاق بقدر حمية زوجها. تجاهل صدّام الأمر أولاً، ومبدئياً، ثم قرر أن يغلق عينيه. بالرغم من أنها أعلنت إيثارها للرجال ذوي البشرة السمراء، طويلي القامة، كانت تبحث على الأغلب بين الحراس الخاصين وضباط الحرس الرئاسي، وبمنتهى البساطة. عندما تملُّ منهم كان هؤلاء التعساء يختفون. أذكر أن أحدهم المسمى رحيم كان يؤمّن إلى جانبها حماية حميمة لا تدع مجالاً للأوهام عن المصير الذي ينتظره. عرف كل القصر بمكانته الخاصة لديها ووجّه إليه التهنئة، ومع ذلك كان خائفاً. سمح لنفسه في أحد الأيام بحضوري بالتعليق التنبؤي «أجهل ما يخبئه القدر لي». يبدو أنه كان على حقٍّ في انشغال باله. وفي أحد الأيام اختفى بدوره...

تزوج صدّام مرة ثانية في العام 1989 من سميرة الشهبندر. المرأة الشابة سليلة إحدى العائلات البغدادية الكبرى، وهذا ما يحقق أمل الرئيس الطموح ويعجبه. فهي ذات أصول إيرانية جسّدت بشكل متقن المجد الجميل من أطرافه وفقاً لذوق صدّام حسين. شقراء ذات بشرة فاتحة مع انثناءات شهوانية. قُدِّمت للرئيس من خادم مقرب له، الحارس الشخصي والذّواقة كامل حنا ججو. كانت في الثلاثين من عمرها، وقد تزوجت سابقاً رجلاً يكبرها عمراً نشأ في تكريت مثل صدّام، وهي أم لولدين. لترتيب الموضوع، أمر صدام الزوج نور الدين الصافي - مهندس ومدير في شركة الطيران العراقية - «تطليق زوجته» بالمقابل سمي الزوج عضواً في مجلس إدارة شركة الطيران العراقية، وقُدم له منزل كبير وسيارة مرسيدس، كما قدم إلى ولديه منح دراسية في الخارج، وكان الحل الآخر هو القتل له ولولديه...

عندما وصل نبأ الزواج الثاني إلى ساجدة أعلنت استنكارها وانسحبت إلى قصرها في العويجة على بعد ستين كيلو متراً من بغداد. عندها اعترف صدام بذنبه، ورافق عائلته الأولى في رحلة إلى شمال العراق. أظهر التلفاز الرئيس بنفسه يمسك يد ساجدة ليمنعها من السقوط، فحتّى لو سمح الإسلام له بالزواج مرة ثانية فعليه أن يصون كرامة أم أولاده. من المحتمل كثيراً بناءً على طلب الأخيرة أن يعمد عدي إلى قتل كامل حنا ججو، الرجل الذي عمل على وصول سميرة إلى حياة زوجها.

في الواقع سعى صدام ليكون على بعض البعد من ساجدة،

لأنّه كان يفكر جدياً بالتخلص من أخيها عدنان خير الله طلفاح وزير الدفاع. إذ عَمَدَ بعد فترة قصيرة إلى وضع قنبلة من قِبل صهره حسين كامل في مروحية ابن خاله. إنّها قضية عائلية على كل حال.

أنجبت سميرة من صدام ولداً سمته علياً. إنه الآن في الحادية والعشرين من عمره. نشأ مرفهاً إنّما على بُعدٍ من مسرح الأحداث، فقد خمّن ذووه أن وضعه في مستوى عدي وقصي بالذات سيثير نقمة هذين، ويصبح وكأنه يوقع على قرار سجنه أو قتله.

ابن سميرة البكر، محمد، من زوجها الأول يعيش حالياً في نيوزيلندة، وهو يروي أن مسكن أهله كان يؤوي في البداية غراميات أمه وصدام. في الواقع ثمّن صدام عالياً ذلك المسكن بحيث استمر في العودة إليه خلال أمسيات المجون حتى بعد زواجهما. على كل حال لم يَعتد صدام على الإطلاق على قضاء الليل مع امرأة سواء أكانت زوجته الشرعية أو خليلته. فبعد انتهاء التصرفات الحميمة يلتحق بغرفته الخاصة ويأخذ منوّماً ويرقد بمفرده. ويسهر ثلاثة أو أربعة حرّاس شخصيين، أحدهم ينام عند الباب، على رقاده.

قصّ علي محمد يوماً قصة غريبة. فقد قرّر أحد أصدقاء أهله، وهو من الأثرياء، الحصول على ذكرى استثنائية لينقلها فيما بعد إلى أحفاده. ووقع اختياره على ساعة صدام حسين ـ إحدى أوابد باتِك فيليب الخالدة المجهزة بسوار من الجلد لأنه لا يحب الأسوِرة المعدنية. كان مستعداً أن يدفع الثمن مهما كان غالياً... لكنّ محمداً الشاب كان مملوءاً

بالحيل الماهرة، واقترح عليه تلك الساعة المنسيّة من عمه المتسلّط لقاء مبلغ متواضع، خمسين ألف دولار فقط! كان صدام بالطبع مطّلعاً على هذه الصفقة التجارية، ورحب كثيراً بهذه المشاريع المبكّرة.

سببت روابط القربى مع صدام بعض المشاكل لمحمد... فهو كطيار محترف كان يطمح إلى اتباع دورة إضافية في فلوريدا بعد أحداث الحادي عشر من أيلول 2001. عندما قدم أوراق سفره إلى موظفي الهجرة على الحدود الأميركية ألقي به في السجن، معتقدين بأنه حضر لتنظيم مهمة أخرى جديدة بناء على أوامر عمه.

كان أخوه الأصغر أحمدُ، مهندس تشكيلٍ، وكان يقود أحد أجهزة المخابرات.

في العام 1995 تزوّج صدام حسين للمرة الثالثة من نضال الحمداني، المديرة العامة للأرصاد الجوية العراقية. عندما بدأ بالتردد عليها سمّاها مديرة برنامج الطاقة الشمسية في البلاد. الأمر الذي أكدّ الشائعات المتعلّقة بروابطهما.

هي أقلّ إغراء من سميرة، لكنَّ نضالاً تمتلك خُلُقاً متيناً، وهي ميزة يقدرها صدام عند المرأة. كانت متزوجة بدورها. زوجها دريد الدملوجي سليل عائلة محترمة في الموصل، شمال العراق، ولديهما ولد وفتاة. أظهر الزوج عدم رضاه عن ترك زوجته للرئيس. لكن شرطة صدام السرية، أخفت المرأة مع ولديها. أدرك دريد عندئذ وجوب مغادرة الوطن وطلاق الزوجة. تمّ قران نضال مع صدام خلال عدّة شرعية

وصلت إلى ثلاثة أشهر، ورغم معارضته كوفئ دريد بمركز هام في وزارة الشؤون الخارجية.

انزعجت ساجدة من هذا الزواج أكثر من سابقه، ولمرة ثانية هربت مجدداً من بغداد إلى قصرها في الموصل. غضب الرئيس من هذا التصرف وقرر بيع القصور الثلاثة التي تمتلكها على نهر دجلة، غير أن عدياً أنذر من يريد شراء أي قصر من قصور والدته بأنه سيراه متفجراً على رؤوس سكانه، حتى لا تصبح هذه القصور بين أيدي الغرباء. ذُعر الشارون وسحبوا عروضهم.

طلّق صدام نضالاً قبل إقدامه على الزوجة الرابعة لطيفة في العام 2000.

كانت لطيفة الحديثي بعمر 29 سنة، أستاذة للغة الإنكليزية. التقى بها صدام بوساطة منال الألوسي، التي تدير اتحاد النساء العراقيات. كانت اجتماعات سيدة المجتمع الكبيرة هذه لها شهرة، فهي تجمّع أجمل نساء بغداد، وهن موئل صيد رائع للرئيس. كانت لطيفة، ضخمة، شقراء ذات بشرة بيضاء صافية، وتمتلك بدورها شخصية مميّزة.

لم ينجح على الإطلاق في تعلّم الإنكليزية، رغم انبهاره بأستاذة تلك اللغة. ينبغي الاعتقاد أن لطيفة لم تكن أستاذة جيّدة، لأنها طُلقت من صدام بعد أربعة أشهر فقط.

قبل سقوط نظامه بقليل كان قلبه يهفو إلى المتعة الجسدية إذ أنه تزوج للمرة الخامسة من الدكتورة إيمان عبد

التواب مولى حويش، طبيبة الأطفال ذات السبعة وعشرين عاماً الألمانية الأم. شقراء طويلة بدورها. والدها صديق الرئيس منذ زمن طويل. غدا نائباً لرئيس الوزراء ووزير تسلُّح (منصب رئاسي يحرم منه عادة العراقيون المتزوجون من أجنبيات غير أن عمّ صدام استثني من هذا الإجراء). نجح في ابتزاز مليار دولار من صدام، بحيث صوَّر له أن رجال العلم العراقيين قادرين على ابتكار جهاز ليزر ثوري قادر على إسقاط جميع الطائرات المعادية عند دخولها المجال الجوي للعراق.

كانت جميع زوجات الرئيس السابق يعشن في رخاء. الطائرة تقلّهن للقيام بمشترياتهن من أسواق دبي أو بيروت أو ميلانو، وبيوت الأزياء العالمية ترسل مبعوثات خاصات تعرض عليهن مجموعاتها وأزياءها.

* * *

عدا زوجاته، جمع صدّام الخليلات المختارات وفق معايير محدّدة. أهمها أن يكنّ عراقيات ولسن أجنبيات غربيات أو حتى عربيات. كان يخشى كثيراً أن ترسل له الـCIA أو الـMI6 وحديثاً KGB أو أية دائرة استخبارات أجنبية أخرى جاسوسة، أو حتى ما هو أسوأ من ذلك، امرأة تحمل ڤيروس نقص المناعة المكتسبة «الأيدز»، المرض الرهيب الكبير.

هو يفضل النساء المتزوجات معتقداً أنّهن أوفر صحة من الناحية الطبية وأقل خطراً على صحته الغالية، وأزواجهن لا يشكلون مشكلة لاعتبار هذا شرفاً لهم بأن يروا زوجاتهم وقد اختُرن إلى الفراش الرئاسي عدا عن أن صدّام يكافئ

بسخاء كياستهم: يقدّم لهم المنازل والسيارات والأموال... وهم يعلمون أن معارضتهم تكلف السجن أو «حادثاً» مميتاً.

كان كثير الاهتمام بصحته. من الملزِم للنساء اللواتي ينلن إعجابه الخضوع لاختبارات طبية كاملة قبل مقاسمته السرير. تُنتَهزُ المناسبة للتدقيق في السلوك الواجب تبنّيه مع العاشق المغرم القوي، وخياراته الجنسية، والطريقة المثلى في التوجه إليه، مختلفة، ولكن ليس كثيراً، بعكس ما يمكن التصور حول ما يصدر عن رجل بمثل سلطته، فهو يفضل النساء ذوات الشخصية المميزة.

في الثمانينيات أقام صدام حسين خطاً هاتفياً يمكن الجمهور من الاتصال به مباشرة وعرض قضاياهم عليه. لم يتردد في إعلام خليلاته عن الشكاوى التي تطيب له. بهذه الطريقة الملتوية تعرّف على زوجته الرابعة لطيفة الحديثي.

طُرد أحد أصدقائي وزملائي من وظيفته في وزارة الشؤون الخارجية، وألقي به في السجن لتآمره على حزب البعث. فقررت زوجته اللجوء إلى هذا الخطّ الهاتفي الموجّه للجمهور لتطلب من صدام استقبالها. هي امرأة جميلة وجريئة، فكّت أزرار قميصها وقالت ما عندها مجازفة بالكلّ لتربح الكلّ: «إذا أعطيتني ما أريد منحتك ما تريده». استاء صدام من تصرّفها! وأمر بطردها فخرجت المرأة المسكينة والدموع تنهمر من عينيها...

كان جميع المقرّبين منه، حسين كامل وحراسه الشخصيون، يجهدون في تقديم النساء له. خلال فترة شبابه، في القاهرة، أمّن صدّام المخدّر والفتيات لمالكي

منزله الأغنياء. أصبح بدوره غنياً وقوياً، وتوقّع ممن يحيطون به معاملته بالمثل. حتى خلال حربه مع إيران، وبينما جيش الوطن يقتل على الجبهة، استمر أصحاب المقامات العليا في القصر يقدمون له ما يشبع شهواته الجنسية. سرت فكاهة حقيقية في أروقة النصر، حيث كان يقال إن من المتعذر رؤية صدام أو الحصول على أمر منه دون أن تلعب دور صياد الطرائد (السمسار).

كانت منال الألوسي على رأس اتحاد النساء العراقيات، وهي مكلفة إضافة إلى مهامها بمراقبة زوجات الوزراء وغيرهن من مسؤولي النظام. كما أنها تعد من المصادر الرئيسية لخليلات صدّام؛ وهي تقدم أيضاً صديقات لعديٍّ وقصيٍّ ولأنسبائهم وحراسهم الشخصيين.

حاولت، في إحدى المرات، دون طائل إقناع امرأة رائعة الجمال ثرية ومتعجرفة القبول بموعد مع صدام حسين وفشلت؛ فنصحت آنذاك صدام بتدمير زوج تلك المغرورة. إذ أنّها بطراز الحياة التي اعتادت على التمتّع بها ستبدو بالتأكيد أقل أنفةً إن نقصها المال. أمر صدام بإلغاء الضمانات المصرفية لمشروع الزوج العقاري الكبير - حصل على عقد بناء ملحق جديد للشرطة السرية (المخابرات) - الأمر الذي أدى به إلى الإفلاس، والإذلال، والسجن. صودرت جميع أملاكه ومنزله ومجوهرات. عندئذ أشارت منال إلى أنها تعرف طريقة لاستعادة ثروة الزوج ومكانته الاجتماعية... كان يكفيها أن تغدو خليلة صدام. ووفقاً لما توقعت رضيت المرأة الشابة.

أجرى صدام أيضاً رابطة منتظمة مع مغربيّة مقيمة في طنجة. إنّها غير العراقية الوحيدة التي وطئت سريره. وقد رفضت تلك الخليلة الحضور إلى العراق. عمل أحد أصدقائي المعجب بها ما وسعه للقائها - يا لحمقه. حاولت أن أنبهه بأن يختار ما يشاء غير تلك المحاولة. فعرف صدام بالأمر وعمد إلى قتل الفتى المسكين.

على مثال عديٍّ، عرف الرئيس انتهاز الفرصة لإساءة معاملة خليلاته. كانت تلك معاملة من أطلق عليها اسم «الشقراء» التي بقيت في حضنه خلال ثلاثين عاماً قبل أن تنجح في مغادرة العراق في العام 2002.

بدأ كل شيء في العام 1968 في بغداد. المرأة من أصول يونانية، لكنها نشأت في بيروت، وقد حضرت في زيارة لأبيها المهندس اليوناني المنشغل بخط الأنابيب العراقية. صادفت صدّاماً في أمسية أقامها أحد أثرياء النسيج. قدم المضيف المرأة لهذا الأمل الشاب في حزب البعث، وكان بصحبة أخيه غير الشقيق برزان الذي وجدها جذابة بدوره. قبل أن يجرّب حظه معها منعه صدام بقوله: «دعها إنّها لي». فالظفر بامرأة أعجبت المقربين إليه يحمل إثارة إضافيّة تحرّض على المغامرة. عطر إغراء يحمل في طياته الانتصار.

كان شاباً جذاباً أنيقاً، قوياً: استسلمت له وغدت خليلته في المساء نفسه. عندما علمت عائلتها بتلك الرابطة أعادتها سريعاً إلى بيروت. كان صدّام منشغلاً بالوصول إلى نيابة الرئاسة، ولم تصله أخبارها. في العام 1970 تزوجت رجلاً

آخر، أحد أثرياء رجال الأعمال العراقيين الذي أنجب منها فتاتين. بعد ذلك بسنتين تذكّرها صدّام. ألقى في الحال زوجها في السجن، وصادر جميع أملاكه.

دُمرت الشقراء. من سيحضر لإنقاذها؟ صدام بالطبع... زارها محامي الرئيس علي السويدي، لينصحها بتطليق الزوج. شرح لها بأنها مسيحية وديانتها تحرّم عليها الطلاق، اقترح عليها علي السويدي اعتناق الإسلام، وهذا ما فعلته. غدت خليلة صدام، وعندما تزوج صدام من جديد، نصحه أحد أصدقائه بإبعادها ولذلك أُرسلت لتعمل سكرتيرة في السفارة العراقية في البرازيل مع أمر بالتجسس أيضاً.

في العام 1974 خيّل للشقراء أنها حامل من زوجها... كان هذا خطأ. لكنها قبل إدراكه أرهبتها ردّة فعل صدام عندما سيعلم بالأمر. ارتعبت لذلك وهربت إلى اليونان.

رجعت إلى بغداد بعد عدة سنوات وجدّدت رابطتها بصدام عشية استيلائه على السلطة العليا في الدولة. عرفت زوجتا الرئيس المستقبلي سميرة وساجدة بوجود تلك المرأة، لكنهما لم تستطيعا فعل شيء تجاهها.

عند قيام الحرب مع إيران وُضِعَت زوجات المواطنين العراقيين أمام خيار ملزم: الطلاق أو تبنّي المواطنية العراقية. لم ترغب في التخلّي عن جنسيتها اليونانية، ورحلت الشقراء إلى أثينا. لم تعد إلا بعد ست سنوات في العام 1986. كانت تملك بعض العقارات في العراق، وطلبت رسمياً استعادتها عن طريق سفارة أثينا نظراً لعدم توافر المال لديها. دُعيت عندها إلى اتصال مع ضابطي مخابرات

أعطياها المال وأبلغاها بأن صدام كلّفهما بإعداد سفرها إلى بغداد.

بعد ذلك بيومين التقت بصدام مجدداً في القصر الرئاسي. مدّت إليه يدها وضمها إليه؛ في المساء نفسه تجدّدت رابطتهما. بعد أن مارس الحب معها صفعها صائحاً: «لست أبداً ضعيفاً إلا معك!» استقرت في ڤيلا داخل حرم القصر الرئاسي مع ابنتيها، اللتين غدتا بمثل روعة جمال أمهما. مارست خلال ستة أشهر حياة ذهبية لخليلة رسمية: سيارات ومجوهرات، وأثواب رائعة، ولم يعد ينقصها شيء إلا الحرية.

تعرفت الشقراء على عدي في نادي الزوارق - مكان ملعون حتماً - ووظفها كسكرتيرة خاصة في اللجنة الأولمبية العراقية وأصبح الصديق الحميم للأم وابنتيها.

في أحد الأيام دعا عدي الثلاثة إلى سهرة في الحبانية، وهي استراحة على الطراز الحديث تشرف على البحيرة، حيث اغتصب أمام عينيها ابنتها ذات الخمسة عشر ربيعاً. أرادت التدخل، ولكنه أوسعها ضرباً. كان عليها الوقوف إلى جانب ابنتها. عندما أخذتها إلى المشفى لمعالجتها وإجراء العناية اللازمة لم تجرؤ الأم أو الفتاة على التحدث بما جرى فعلاً.

توقّعت «الشقراء» أن يعاقب صدام ابنه، لكن الرئيس لم يحرك ساكناً، عندئذ بدأت تكرهه. «في كل مرة كان يلمسني يتولّد لدي شعور بأنه يغتصبني أيضاً». هذا ما صرحت به الشقراء لأحد الصحافيين بعد أن غدت آمنة بعيدة عن العراق. «أحسست أنني غدوت عاهرة القصر».

استمرت في العمل مع جلّاد ابنتها. أمّا تلك الأخيرة، فقد

استمرّت في «الخروج» مع عدي في كلّ مرة تداخله الرغبة بها حتى أن محاولة اغتياله في كانون الأوّل 1996 لم تحررها من اهتمامه بها.

نجحت الشقراء وابنتاها في الالتحاق بالأردن مطلع العام 2002.

قتل صدام بدوره النساء. عدا ابنة الهوى التي رماها من النافذة في القاهرة، قتل أيضاً أستاذته في كرة المضرب، بعد أن غدت المرأة خليلته، لأنه لم يقدر سلوكها في السرير. هي بدورها «سقطت» بنفسها من النافذة... هكذا يقال. مع ذلك تبقى أحداث كهذه استثنائية. أعلم أن أحد الصحافيين ذُهل عند سؤاله «هل قتل صدام كثيراً من الخليلات؟» أجبت: «بالتأكيد أقل من عشرة». طبعاً هذا كثير، ولكن بالنسبة إلى الجرائم التي ارتكبها عدي، يعد لا شيء!

* * *

في المحيط الأنثوي لصدام يجب عدم نسيان بناته، فهن مثل أخوتهن تماماً نشأن في مناخ من العنف. كانت الأم تضربهن وتدللهن بكثير من المبالغة، أحد الأصدقاء يذكر بأنه سمع رغد، وهي في الثامنة من عمرها، تشكو إحدى المعلمات في المدرسة بتعابير سوقية، وعندما كررت القول أمام والدها صفعها وأمرها ألا تكرر مثل تلك التعابير.

عندما تكون الفتاة ابنة صدام، لا رأي لها في اختيار الزوج المناسب، يجب أن يخدم زواجها مصالح والدها السياسية، هذا ما حدث مع ابنته الكبرى، رغد، فقد تزوجت في

العام 1983 من حسين كامل، الرفيق المفضل لدى صدام في ذلك الوقت، بينما كانت معجبة بفتى آخر، أصغر أبناء الرئيس البَكر. رُفض الفتى، وحل آخر محلة، مسكين ذلك الشاب الذي خفق له قلب رغد: ضابط وسيم من الموصل، قُتل بأمر صدام.

مع ذلك، يؤكد الجميع القول إن رَغَد هي الابنة الأثيرة لوالدها. هو يروي لها كل شيء، وهي تبدو من الأشخاص النادرين الموهوبين بتأثير كبير عليه. في حينه عرف حسين كامل كيف يستغل لمصلحته الخاصة الرابطة التي توحّد زوجته مع والدها.

ابنة الرئيس الثانية رنا زُوِّجت - وأيضا مع عدم موافقتها - لأخ حسين كامل، صدّام كامل. حلا الابنة الصغرى تزوّجت نسيباً بعيداً، جمال مصطفى سلطان وهو أقل طموحاً! لكن اسمه وارد مع ذلك على قائمة المجرمين الموزّعة من قِبل الجيش الأمريكي على جنوده «لعبة الورق الشهيرة».

أنفق صدام ستين مليون دولار على زواج رَغَد. ثوب زفافها كان في غاية الأناقة من موديل نيناريتشي. رافقتُ رَغَد بنفسي لاختياره إلى باريس. لزمني الأمر نفسه من أجل أختها رنا، ومن أجل ابنة عمها وزوجة أخيها سجى، ولا أذكر على الإطلاق الثمن الصحيح لأثواب الزفاف أنها باهظة الثمن ومن طراز مفرط في غلاء سعره. طُرزت هذه الفساتين بأيدي العاملات الأكثر شهرة بلآلئ وجواهر لا مثيل لها.

قضت رغد وحسين كامل شهر عسلهما في سويسرا وكنت برفقتهما. يمكن أن يبدو هذا غريباً في نظر المعايير

الغربية، لكن لا ننسى أنه زواج مقام. ويجب السهر على حسن سيره. غمر حسين كامل زوجته الشابة بالهدايا، اشترى لها الألماس بشكل خاص من محلات سوثبي، كان ينقصه الذوق. وصل إلى حد ظهر فيه سيء الهندام بالرغم من ارتدائه طقماً يصل ثمنه إلى ثمانية آلاف دولار وينتعل حذاء فُصّل خصيصاً له! وجب علي تعليمه على ملاءمة الألوان والملبوسات على غرار ما فعلته صديقتي شانتال في باريس، عندما اقترحت عليه تقديم عطر إلى رغد طلب مني اختياره لها.

لم تتميز ابنة صدام البكر بالبساطة في الذوق، بل كانت مثل أهلها وأخوتها، ولهذا بمناسبة حفل زواجها اختارت عقداً من محلات «عربش» الذي يزود العائلات المالكة في الخليج بالتحف والمجوهرات الأجمل في العالم. لم يستغرق شراء عقدها المرصع بالزمرد والياقوت الأحمر والألماس والعنبر، بقيمة ثلاثة ملايين دولار ونصف، أكثر من ثلاث دقائق بمعدل مليون لأقل من دقيقة، فقد كنت مرافقاً لها عند الشراء. قد يجلب لها هذا العقد الملكي بعض السلوى لأنها تخلت عمن اختاره قلبها.

اشتري باقي الجهاز من الكويت حيث قضينا ثلاثة أيام. تركزنا فيها في فندق ميريديان الكويت، وهو مثالي للمشتريات لأنه في قلب المركز التجاري الفخم. حجزنا المركز بكامله. زاهر التكريتي وهو صديق طفولة حسين كامل، وغدا حارسه الشخصي، رافقنا بدوره.

نتيجة هذه الجولات: كان إنفاق عشرين مليون دولار والحاجة إلى أربع طائرات شحن وسبع شاحنات لجلب مشترياتنا إلى بغداد!

لم يحضر صدام الاحتفال الزفافي الذي جرى في فندق الرشيد في بغداد. فالأعراف التكريتية تقصر على النساء فقط حضور مثل تلك الاحتفالات. ويمتنع الرجال بهدف عدم رؤية من سيقاسم في المساء ابنتهم أو أختهم السرير. عدد كبير من القبائل العربية تتصرّف وفقاً لهذا التقليد. العناصر المذكرة الوحيدة في قاعة الاستقبال هم المصورون المكلفون بنقل وقائع الاحتفال على أشرطة الفيديو. من جهتي كنت أنتظر مع الحرس الخاص لأولئك السيّدات في غرفة مجاورة.

ظهر الزوج حسين كامل ثلاث دقائق قبل أن يذهب مرة ثانية. ففي التقاليد العربية الزواج ليس حفلة مختلطة. إذ يقيم الرجال والنساء الاحتفال كل على حدة.

أقام صدام احتفالاً منفصلاً دون وجود العروسين في العوجة، مهد العائلة، وقامت الأعياد في كل مكان من البلاد احتفاء بعرس ابنة الرئيس البكر.

في اليوم التالي استدعاني صدام ليطلب مني شريط فيديو الزواج، الذي حملته إليه في مزرعته على بعد ثمانين كيلومتراً من العاصمة.

عندما أنجبت زوجة قصيٍّ ابنها البكر عليّاً، كان صدام لا يقل فخراً عن الأب، ووزّع ساعات الرولكس وسيارات المرسيدس على العاملين في مشفى ابن سينا الرئاسي، حيث جرت الولادة.

* * *

نساء العائلة الأخريات رغم أنهن أكثر حرية في

تصرفاتهن لا يتزوجن دائماً من يحلو لهن. قريبة بعيدة لعديّ مرّت بالتجربة القاسية. فقد أُغرمت بطالب في مثل سنها. مع الانتباه إلى أن هذه العلاقة لم تتجاوز الحب العذري وبقيت أفلاطونية. أرسل عديّ ستة رجال مسلحين ينتظرون الشاب على باب مدرسته. أطلق كل منهم عشرين رصاصة في جسم الفتى المسكين. أشار التقرير الرسمي إلى أن الفتى «قضى نحبه خلال مهمة رسمية».

8

حاشية مريض الوهم

لحماية نفسه، عجّل صدام حسين بسرعة كبيرة لوضع أعضاء عائلته المقربين في مراكز أساسية في الحكومة وقطاعات الأمن. وهكذا فإن أحد أبناء عمومته حسين كامل، كان سائق دراجة ضمن الحرس الخاص للرئيس السابق البكر، وعندما برهن عن ولائه رُفّع بسرعة وبدون تطبيق قواعد الارتقاء العسكرية إلى رتبة ملازم، ثم رقي وبسرعة إلى رتبة رئيس الحرس المسؤول عن أمن صدام.

كل شخص من أقارب الديكتاتور مصنّف في زمرة محدّدةٍ في جهاز الأمن. هو وعائلته المباشرة يُصنّفون في الزمرة الأولى. أقاربه في الزمرة الثانية، وأنسباؤه في الزمرة الثالثة. أمّا الزائرون الغرباء الآخرون فيعتبرون من الأجانب المشكوك بأمرهم ويعاملون على هذا الأساس.

يوجد أيضاً ضمن الزمرة الواحدة مراتب محددة لحاشية الرئيس. وهكذا في قلب عائلته ـ يمكن لعُديٍّ وقُصيٍّ الدخول إلى مكتب والدهما دون إذن، حتى في السنوات الأخيرة من عمر النظام وإن غلب على الأوّل رؤية صدام بشكل أقل من

الثاني. بالمقابل، على ساجدة وبناتها المصنفات تماماً بعدهم في السلم البروتوكولي أن يأخذن موعداً: الشيء ذاته لبقية نساء صدّام وأولادهن الذين يقبعون في أسفل قائمة عائلة الرئيس.

الزمرة الثانية تشمل نائب الرئيس طه ياسين رمضان، صاحب الدرجة الثانية في النظام وعزت إبراهيم الدوري نائب رئيس مجلس قيادة الثورة، أو طارق عزيز. حتى نائب الرئيس لا يمكنه رؤية صدّام دون موعد! يلي هؤلاء كبار رجال الجيش، ممن يطلب منهم على الأغلب الانتظار في الردهة قبل أن يُقبلوا في قدس الأقداس. أما بقية الوزراء فمعظمهم لا يرون الرئيس إلا في مجلس الوزراء.

سبق لي القول إن حسين كامل وصل ترتيبه تماماً بعد عائلة حسين قبل أن يندمج صراحة بالعائلة - إلى جانب ثقة صدام به - فهو صهره بزواجه من رَغَد ابنته البكر. بانتقاله عضواً في عشيرة حسين كُلّف بإدارة التجهيزات العسكرية، قبل أن يحتفظ على التتابع بحقيبتي وزير الصناعة والدفاع. ارتقاء سريع لرجل قليل الخبرة. طلب مني ذات يوم أن أساعده في تثقيف نفسه. أحسست بالمهمة الدقيقة لأن الأمر لا يقتصر على تخمين مدى حكمي عليه بالجهل... جمعت لهذا الغرض كتباً في التاريخ، والجغرافية، والعلوم السياسية، الخ. خيّل إليّ أنه سيتلاشى عندما يرى علوّ الكتب المكدسة فوق بعضها! بما أنني أعرفه عاجزاً عن قراءة كل هذه المؤلّفات أعددت خلاصات صغيرة قدّمتها لمن ينوي أن يكون أكثر تكيّفاً «لرجل بمثل أهميته»، مثقل بأعمال عديدة.

ليس هو الوحيد في وضعه ضمن الحاشية الرئاسية، لأن عائلة حسين وأعضاء حزب البعث يضمرون الاحتقار للمثقفين وأصحاب الشهادات. بالرغم من ذلك فإن أول عمل قام به بعد وصوله إلى السلطة هو اتخاذ الإجراءات اللازمة، لتدبر أمر منحه دبلوماً يعادل شهادة المدرسة الحربية العراقية، أما عدي فقد احتاج لخدمة خمسة أساتذة لإنجاز أطروحته في الدكتوراه.

غدا حسين كامل في تلك الفترة الأثير المفضل عند الرئيس بدلالة الطرفة التالية. في كل سنة وبمناسبة 6 كانون الثاني يُحتفل بتأسيس الجيش العراقي. يلقي صدام خطاباً يصغي إليه الجميع وقوفاً. ولا يجلس أحد قبل أن يشير إليهم الرئيس بالجلوس، والترتيب الذي يدعو فيه الأعضاء للجلوس يشكّل معياراً لعواطفه الحالية.

أجلس هذه المرة، حسين كامل أولاً، قبل رؤساء أركان حربه، ووزرائه وولديه... مما أثار حقد أركان العائلة عليه.

بالرغم من أن عزّة إبراهيم الدوري يلي نظرياً صدّام في المرتبة فإنه يُعَدُّ ضعيف الشخصية دون تأثير كبير. الفكاهة التي جرت في أبهاء القصر تبين بوضوح جيداً الصورة المكوّنة عنه.

كان عزت إبراهيم الدوري على علاقة مع ساجدة زوجة صدام الأولى. هي تأمره باللحاق بها في منتصف الليل خفية وبالحضور عارياً وثيابه تحت أبطه، وبمنتهى الخفية. اتّبع عزت تلك النصائح، لكنه عندما انزلق بثياب آدم إلى غرفة ساجدة فوجئ بوجود صدام فيها!

ـ يا ابن الكلب، ماذا جئت تفعل في غرفة زوجتي بهذا المظهر وفي مثل هذه الساعة من الليل؟ زمجر الرئيس.

ـ يا صاحب السعادة، جئت تماماً لأطلب منك ما يمكن ارتداؤه غداً خلال مجلس قيادة الثورة، عقّب الدبلوماسي باحترام.

ـ أتعلم في أيّة ساعة أنت؟

ـ هي الساعة التي تشاء يا صاحب السيادة.

لا يمكن لامرئ أن يكون أكثر مداهنة. مع الأسف، لا أستطيع لا أنا بالذات ولا أمي ولا أخواتي، ولا أزواجهن المختصين، ولا أولادنا من تأكيد تلك الرواية. أشك كثيراً إن مرّ يوم لإزعاج صدام دون القضاء على المسبِّب واتهامه بالخيانة. أكتفي إذن بهذا القدر من الوقائع ومن حركاته العائلية الرئاسية، ولا شيء ذا أهمية أو ملزم.

شملت حلقة صدام الحميمة كامل حنا ججو مسيحي عن الموصل ـ كان المسيحيون عديدين في الحاشية الرئاسية ـ استمر ثلاثة وعشرين عاماً في خدمة صدام. مارس معه علاقة أبوية. واستُخدم عنان في المناسبات حارساً شخصياً له.

أوحى إليّ وضع أبيه على رأس طهاة القصر بأن أقترح على الرئيس أن يجعل من كامل عنان أحد ذوّاقته الشخصيين. لأن صدام في الواقع لا يقرّب على الإطلاق من فمه مادة غذائية لم تُجرَّب مسبقاً من قبل ذوّاقة. كنت متيقّناً أن رئيس الطهاة لن يجازف بالقضاء على حياة صدام إن تعرض ابنه للخطر

الحقيقي. شغل كامل أيضاً قرب صدام دور الحاجب، يساعده على ارتداء ثيابه، ويُعدّ له حمّامه ويرتب سريره.

كان لديه سلطة حقيقية، عدي نفسه يحترمه دون أن يثق به. هو مجرّد قولٍ! إن تبادلتم التقدير تناموا مرتاحين؛ أمّا في حال العكس فموتكم محتم خلال أيام معدودة.

كان يُعهد لكامل حنا ججو «بالأمور الصغيرة» الخاصة بالرئيس؛ وهذا في الواقع ما سبب ضياعه. إنّه في الواقع، على ما يُعلَم عنه، قدّم لصدّام زوجته الثانية سميرة، وهو من رتّب بعدها لقاءاتهما السريّة. هذا ما أثار ضغينة ساجدة. زوجة الرئيس المهجورة، وحقد ابنها الأثير عدي وكان في هذا موت كامل حنا ججو.

ارتكبت الجريمة بتاريخ 20 تشرين أوّل 1988 خلال حفل استقبال نظمته ساجدة في «جزيرة الأعراس» وسط نهر دجلة، حيث يملك الرئيس خيمة على الطراز البدوي. دعت ساجدة نخبة البغداديين تقديراً لسوزان مبارك زوجة الرئيس المصري وابنتها.

كان عديٌّ موجوداً عن كثب مع جمعٍ من أصدقائه يرقصون ويشربون. أطلق عدي عياراً نارياً في الفضاء؛ وهو ما يُعَدُّ مألوفاً عنه. قلقت ساجدة وأرسلت كامل حنا الذي كان يساعدها في تنظيم حفلها للاستعلام عما يجري، طلب كامل من أحد الحراس أن يرجو عدياً بالامتناع عن إطلاق الأعيرة النارية في الهواء وأمُّه تستقبل مثل تلك الشخصيات عظيمة الشأن (VIP) في الخيمة المجاورة. وعندما نقل «الغوريلا» هذه الرسالة، خرج عدي عن طوره، انتابه جنون الغضب وصاح أن لاحقّ لابن الخادم بإملاء سلوكه عليه.

هرع سريعاً إلى خيمة الأم، وطلب من كامل حنا ججو أن يتبعه. هناك أمام جميع مدعوي ساجدة ضربه بقضيب ثقيل على رأسه. انهار الشاب تحت وقع ضرباته القاسية، ونقل إلى مشفى ابن سينا، العائد للرئاسة، وتوفي دون أن يستعيد وعيه.

* * *

كان جميع الأشخاص الذين يشكّلون حاشية الديكتاتور يبذلون كل جهد لتلبية رغباته، ويأتون إليه مراراً ليرتكبوا تصرفات ذميمة مماثلة لتلك التي يقوم بها صدام نفسه أو أحد ولديه. هدف أعمالهم السيئة دائماً هو الخضوع للنظام، (مثل أي فلاح عراقي بسيط، لا يستطيع رجال الحاشية الاعتراض أو حتى مناقشة أوامر المعلم). كان بعض المقربين من صدام من كبار المجرمين، إن لم يكونوا أكثر حقارة. بالنسبة لهم كما بالنسبة للرئيس، فإن جميع الغرباء عن حلقتهم هم بيادق بسيطة يمكن نقلها أو قمعها في كل لحظة بناء على حاجة السلطة.

على سبيل المثال، نديم الأقصر، رئيس المخابرات له تقنياته الخاصة، فهو يلوي عنق ضحاياه إلى أن يخنقهم. وآخرون يُغطّسون في حوض مليء بحمضٍ سائل إلى أن تذوب أجسادهم كليّاً - يقوم بهذه الأهوال وهو يأكل سندويشة.

لن ننسى على الإطلاق علي حسن المجيد الملقّب «علي الكيماوي» لاستخدامه أسلحة من تلك الطبيعة. أوائل استعمالاته تلك المادة تعود إلى الحرب مع إيران وكان في

تلك الأثناء رئيساً لحزب البعث في كركوك في شمال العراق. في العام 1988 علم عن طريق اتصالاته بالحزب أن العدو احتل مدينة حلبجة. ودون أن يتحقق من الخبر - وقد تبين أنه خاطئ - توجّه مباشرة إلى صدام الذي لم يتأكّد بدوره من صحة الوقائع ليشير إليه بإجراء غير «عادي». وافق صدام على توجيه ضربة كيميائية لحلبجة. هلك مئات الجنود العراقيين. بعد عدة سنوات، قُتِل مئة وثمانون ألف شخص معظمهم من الأكراد بغاز «الأنفال» في ظروف مماثلة.

يقدر أن علي حسن مسؤول عن وفاة ثلاثمئة وستين ألف عراقي. اشتهر بقساوته، وعمد بدوره إلى إغراق معارضيه في أحواض مملوءة بالحموض. في لحظاته الأكثر تفكهاً عمد إلى سقايتهم البنزين، ثم عمل على تفجيرهم بإطلاق النار عليهم. سمّي حاكماً على الكويت خلال الغزو، وتَرَكَ فيها ذكريات لاتُنسى، وحمل منها تذكارات لا تُقدَّر.

أمّا هدى صالح مهدي عماش المعروفة بـ «سالي الكيميائية» أو «السيدة أنتراكس»، فهي ابنة بعثي من الطراز الأول، غدا نائباً لرئيس مجلس الوزراء قبل زوال حظوته في العام 1971. دون أن تهون عزيمتها بمصير والدها الذي يحتمل كثيراً تناوله السمَّ بأمر من الرئيس بينما كان على رأس عمله في هلسنكي، تسلّقت هدى السلالم المحيطة بصدّام. أتمّت تدريبها تحت سوط ناصر الهنداوي - المعتبر والد البرنامج البيولوجي العسكري العراقي - وأتمته بدراسات الحلقة الجامعية الثالثة في بيولوجيا البيئة والميكروبيولوجيا في جامعة تكساس وإنديانا الأمريكيتين، مما جعل من هذه

الأم والدة الأبناء الأربعة خبيرة في الأسلحة الكيميائية والبيولوجية لنظام صدام. عهد إليها الرئيس في العام 1991 بإعادة تشكيل التسلُّح البيولوجي في البلاد بعد حرب الخليج، وفي شهر أيار من العام 2001 غدت المرأة الوحيدة في مجلس قيادة الثورة.

خلت من كل رِقّة أنثوية ولم تتردّد في تعذيب العلماء الرافضين لتنفيذ أوامرها بحرفيتها. أوقفت في شهر أيار 2003 بعد أن طردت سرّاً من سوريا التي لجأت إليها.

يجب ألا نغفل عن «حاشية» صدام في الجيش العراقي. فقد كان يشمل خمسة أقسام، إضافة إلى الحرس الرئاسي الأكثر حظوة، والمعتبر بأنّه نخبة الجيش، الحراس الرئيسيون يستفيدون من راتب ذي مزايا عديدة: سكن في مقرات أبنية تضاهي فندقاً ذا خمسة نجوم. ملبوسات جميلة. هدايا وافرة. أما المجندون الآخرون فعليهم الاكتفاء براتب أقل من المعتاد مع كثير من الصرامة.

تهدف هذه الاحتياطات بالطبع إلى تأمين ولاء تلك الوحدة المختارة بوظائف خاصة، لأن الحرس الرئاسي مشكّل حصراً من التكريتيين السنّيين.

يتمتع حرّاس صدام الشخصيين بدورهم بنظام ملائم جداً. إن لم يكونوا وافدين بمجملهم من العوجة قرية مسقط رأس صدام، فهم على الأقل من محافظة تكريت وينتمون إلى عائلات قريبة نسبياً (أولاد عمومة من الدرجة الثانية أو

الثالثة). المنتخبون الجدد يؤخذون من أهلهم وهم لا يتجاوزون الثالثة عشرة من عمرهم، ليغدو طلاباً داخليين في المدرسة العسكرية القائمة على ضفة نهر دجلة. وهو بناء كبير قام بإنشائه مهندسون من ألمانيا الشرقية، سبق لهم العمل في بناء القصر السري للرئيس العراقي. يتسع هذا البناء لإقامة عدد يترواح بين خمسين إلى مئة فتى، وحتى تصويت الأمم المتحدة على قانون العقوبات الاقتصادية على العراق، كان الأساتذة غالباً من ضباط SAS(*) البريطانية. ويدفع لهم بسخاء على خدماتهم ليدربوا تلاميذهم على تقنيات التجسس وتكتيكات الإبادة. مستشارون أنتجتهم الانقلابات العسكرية في أمريكا الجنوبية يشتغلون لتشكيل قوى الأمن العراقية. بعضهم كان من بقايا النازيين اللاجئين إلى الأرجنتين أو الأورغواي.

مع استلام وظائفهم يرافقهم الحرس الشخصي لصدّام إلى كل مكان، مما يستلزم الغياب الكلي للحياة الخاصة، ومكان الإقامة الثابت، لكن التعويضات المادية وافرة.

تضمّن القصر الرئاسي عدة مطاعم وكافتيريات مختلفة المراتب يسمى أحدها «مطعم الزعماء» وهو مخصص لنخبة النظام. لا تقدم فيه إلا الأطعمة الواردة من باريس أو جنيف أو ميلانو بأسعار من ذهب. تقلع طائرة كل يوم تبحث عن المنتجات الطازجة لدى ممونيها في العالم.

إلى جانب هذا النزل الصارخ يقوم عالم قذر وكأنه يعود

(*) كوماندوس القوى الخاصة البريطانية.

إلى العصور الوسطى. مثلاً، المستخدمون من الطبقة الدنيا في القصر يتناولون طائعين وجباتهم على الأرض العراء، يستخدمون اليد في طاس معدني بسيط. هذا يطرح مشكلة كبيرة لأن هذه العملية تجذب جموعاً من الجرذان المسرورين للحضور لتنظيف بقايا تلك الولائم... أصبح تزايد عدد القوارض في القصور يتخذ أحياناً نسباً مقلقة. لذلك دعيت شركة ألمانية كبيرة متخصصة في مكافحة القوارض للاستشارة، اضطرت للاعتراف بعجزها مادام الناس يقتعدون الأرض أثناء تناول الطعام.

رغم جميع المزايا المادية التي كنت أتمتع بها، تعبت كثيراً لأعود من جديد مواطناً عادياً وهارباً من الجحيم. ولكن ليس هنالك خلاف بأنني كنت أعلم، عن خبرة، أيّ مصير ينتظرني لأنني تنصلت من نظام صدام حسين.

حتى وإن تمتَّع جميع أعضاء حاشية صدام بطراز حياة مُترَف في نظر العراقيين الآخرين فإن كثيرين منهم كانوا هناك على شاكلتي، ليسوا في الواقع بملء رضاهم. يحدث أيضاً أن تسميةً ما في مركز رفيع مدني أو عسكري يهدف إلى تأمين وسيلة ضغط على عائلة أو عشيرة أكثر من تأمين مقام مشرّف للمحتفى به. هكذا ضَمِنَ الأقرباء وجميع رؤساء العشائر الكبيرة إلزامهم بالولاء له. أي ضعف إرادة أو عصيان يؤدي إلى مخاطر على حياة «الرهينة». التهديد نفسه يخيم على حياة العائلات والجنرالات.

يضاف إلى ذلك ثِقَل التابعية والحروب العائلية الدائرة داخل الحاشية الرئاسية. فكل شخص يحاول أن يشد خيوط

اللعبة لصالحه. صراع لا رحمة فيه قائم بين حسين كامل وعدنان خير الله طلفاح، وزير الدفاع آنذاك، عندما حاول الأوّل ضمّ العلماء إلى الجيش العراقي تحت رقابته المباشرة.

* * *

إلى المقربين «الرسميين» من الرئيس تضاف مجموعة صغيرة مستقلة كليّاً وهي أشباه صدام. يؤكّد المسلمون أن كل طفل يولد يمتلك أربعين ليماً(*). لا توجد دراسة علمية تؤكّد أو تنفي هذه النظرية. غير أنّ صداماً خلافاً لعامة الموتى يسعى إلى جمع أشباهه حوله. كان له وفق معرفتي، ثلاثة أشباه، استخدم الأول منهم في العام 1979. مع وصول الرئيس إلى الحكم أرسل بسرعة مبعوثين للبحث عن رجل قادر يستطيع أن يكون بديلاً له عند الحاجة، أثمرت الجهود خلال خمسةأشهر ولكن الشبيه لم يكن جاهزاً لمحاكاة الأصل إلا بعد خمس سنوات في العام 1984. بعد سنوات عُثر على شبيه آخر أعيد تشكيله وتجهيزه في العام 1988 أما الشبيه الثالث ففي العام 1991.

تعتمد العملية على تشكيل «توائم» لصدام. نسخاً متطابقة، سواء على المستوى الفيزيائي أو على نطاق البلاغة، ضمن نطاق التحرّك والإيماءات، والكتابة الخ... أنفق النظام بضعة عشرات من ملايين الدولارات لتأهيل وإزالة الفروق، وجعل الشبيه مطابق للأصل.

العمليات الجراحية التجميلية لمحو الفروق الفيزيائية بين

(*) الليم: هو شبه الشخص الآخر في شكله وقدّه وخلقه.

هذه الأشباه ونموذجها، وتأمين قسماتها بشكل يتطابق بطريقة موحّدة كانت تتم في مشفى ابن سينا في غاية السرية. وكان على الليم في الواقع أن يتبع تدريباً كاملاً لصدام.أن يتعلّم تقليد لهجة تكريت الرئاسية، وسيره المميّز، وكذلك نبرات صوته ومخارج حروف عباراته المفضلة، وكتابته وحتى طريقة تنحنح حلقه. من الممكن أن ينتقل صدام شخصيّاً لإعطائهم التعليمات أو شرح بعض التفاصيل.

لا يوجد أثر لأولئك الأطباء الذين مارسوا عمليات جراحية على الأشباه، ومن غير المعلوم استمرارهم في هذا التعاون الخطير. الأثر الوحيد يتعلق بجرّاح تجميلي يلازم بشكل منتظم مشفى القصر، لكنه رفض على الدوام أيّ تعليق.

عندما يتوصل الشبه إلى التطابق بفضل نظام غذائي إلى الوزن المماثل للديكتاتور، تُقدم إليه ذات الأطعمة المقدمة لصدام. الكميات وحدها تتغير بدلالة استقلاب كل شخص. وبما أن صداماً كان فخوراً بقامته المشيقة فإنه لا يرضى بأن يكون شبيهه يميل إلى البدانة، لذا يعمد البديل سريعاً إلى اتباع نظام الجوكي. في أسوأ الأحوال يستطيع أن يدرك أن ترك الأمر على عواهنه يمكن أن يكلّفه حياته.

لا أحد يعلم أين يسكن هؤلاء الرجال ولا كيف يمارسون حياتهم عندما لا يلعبون دور البديل. أُكِّد لي أنهم يعيشون داخل قفص مذهب في القصر الرئاسي، وأن بعضهم ربُّ عائلة. بطبيعة الحال، مقابل هذه التبعية المتعدّدة التي يفرضها استخدامهم، فإنّ هؤلاء الرجال كانوا يتمتعون

بالرخاء، وعندما يوصي صدام على ملابس يوصي على الأقل بأربع نُسخ متماثلة منها.

عندما يتنقّلون يستخدمون سيارات المرسيدس المصفحة المستخدمة من قِبَل صدّام: الألوان والأرقام نفسها والحرس الخاص نفسه. إذا خرجوا في الوقت نفسه مع الرئيس تتطابق في الدقيقة الواحدة أوقاتهم معه، حيث لا يعرف أحد أيّاً منهم الرئيس الحقيقي.

فائدتهم الأساسية: حضورهم عوضاً عن صدام في الاجتماعات الضرورية للعمل على التحقيق في الهويّات الشخصيّة، وتفتيش جميع الناس. لهذا عندما يجتمع ألف ومئتا مهندس لمعرفة نتائج المسابقات حول تقديم عروض أكبر مسجد في العالم يعمد صدام إلى إرسال نسخة عنه.

هكذا كان الأمر في تشرين الثاني 1983 عندما رأى صدام أن من المناسب له ألا يظهر على الجبهة العراقية ـ الإيرانية، فعمد إلى إرسال أحد هؤلاء الرجال: لا سبيل لتعريض نفسه للخطر! كان صدام المزيّف في سيارة الجيب العسكرية بصحبة حارسين. مأساة كادت تحدث في تلك المناسبة، لأن سيارته وجميع أفراد الحراسة اجتازوا في غفلة منهم (كان من الواجب عليهم فعل ذلك) الحدود الإيرانية. لم يدرك الحرس خطأهم إلا بعد رؤية مفرزة من الجنود الإيرانيين تهرع نحوهم. تأمنت سلامتهم بعد تدخل مروحيات الجيش العراقي التي كانت تتجول في المنطقة، وبعد سقوط نحو مئتي جندي من حراسه تحت رصاص القوات الإيرانية. مُنح الحارسان أوسمة الشجاعة. ونُقل احتفال تقليد الأوسمة للحارسين على التلفزيون العراقي.

تؤمِّن الأشباه أيضاً الاحتفالات الثانوية بتدشين المشافي في المقاطعات، والخطابات التي تلقى أمام جمهور عاديٍّ، وحتى استقبال رؤساء الدول قليلي الشأن في عيني صدام. لهذا يبدو، عندما أراد الزعيم النمساوي اليميني المتطرف يورغ هايدر أن يقوم بزيارة رسمية لبغداد، فقد استقبله شبيه صدام لعشرين دقيقة، هكذا يقال. مع ذلك يندر أن يجازف القصر بمخاطر مماثلة، فبالرغم من التدريب المكثَّف الجاري يندر على هؤلاء الأشخاص الخاصين جدّاً الظهور لأكثر من خمس دقائق مستمرة دون أن ينطقوا بكلمة.

نعلم أيضاً أن أحدهم هو من جلس أمام النحّات خليل خمّاس الذي أعد تمثالاً للرئيس. لم يلاحظ الفنان ذلك على الإطلاق، لكنني اكتشفته بحضوري إحدى الجلسات.

ماذا يحدث لو وقع أحدهم بالأسر؟ لا شيء أسهل من ذلك: لدى هؤلاء الرجال توجيه بالانتحار عوضاً عن الوقوع في أيدي الأعداء. يزوّد الشبيه بحزام ناسف حول خصره. هي طريقة لا تخطئ، ومن مميزاتها وقاية وجه الضحيّة. وهكذا يظنُّ المعتدون أنهم ظفروا بصدام شخصياً.

بهذه الطريقة لم يتمكن مراقبو الأمم المتحدة على وجه اليقين من معرفة أنهم كانوا يقابلون على الدوام صداماً الحقيقي. يجب القبول حتى بالنسبة إلينا نحن المقرّبين من صدام، بعدم إمكانية تحديد هوية صدّام الحقيقية على الدوام. غير أن للجراحة وغيرها حدودها، وصدام يحمل علامة مميزة، وأنا من الأحياء النادرين الذين يعرفونها، وهي تسمح بالتمييز دون شكٍّ. في شبابه وشم صدام في أخمص يده

اليمنى وشماً على الطراز البدوي بشكل هلال مسطّر بنجمة. بغدوّه رجلاً هاماً قرّر أن يتخلّص من هذه الزخرفة الشعبية. وكانت الوسيلة الوحيدة لإزالة هذا الوشم تقتضي العمل على طمسه بأحد الأحماض. النتيجة، إن كان الوشم بالذات قد اختفى تقريباً، فإن آثار المعالجة باقية، بالتأكيد عند أسره، لم تكن القوات الأمريكية بحاجة إلى شهادتي لأن لديها عيّنة من «جيناته» DNA.

يطرح السؤال حالياً عن هوية ومصير تلك النُسخ أو الأشباه بعد سقوط النظام. هل رافقوا صدّاماً في تجواله، وهل هم على قيد الحياة؟ وفقاً لمصادر معلوماتي يُسمّون على التوالي: فواز العماري، وهو سليل عائلة محترمة في الموصل، وأحمد الحدوشي، (وهو شقيق اللواء جبّار الحدوشي). وجاسم محمد علي. يجري الكلام أيضاً عن شخص اسمه عمر خالد سلطان.

تؤكد جريدة الوطن أن ظهور صدام في 4 نيسان 2003 قد تحقق بوساطة الشبيه أحمد الحدوشي. ويبدو أن أول ليمٍ على الأقل وهو فواز العمّاري قد قتل، بعضهم ذكر ذلكً منذ العام 1996 بأمر من سيده.

* * *

على سؤال يطرحه كثيرون: «هل كان لصدّام حسين أصدقاء؟» أجيب: نعم ولا. أصدقاء لعبته في البوكر يشكلون بالتأكيد أقارب ثابتين نسبياً. لكن هل يمكن الكلام عن صداقة طاغية؟ كانت جلسات اللعب والمقامرة تتم عامّة في منزل أحد أصدقائه. وكان الرئيس يقوم بزيارته برفقة حراسةٍ لا تقل عن عشرة أفراد.

الصفة الأولى المطلوب توافرها لدى «الأصدقاء» هي إفساح المجال له للربح بشكل نظامي، هو لم يكن شريفاً في اللعب، كما في بقية مجالات الحياة أيضاً، وهو يكره الخسارة ويعمل كل شيء لتفادي وقوعها... ولكن خداعه يذهب به إلى حد نتف ريش مجموعة اللاعبين المخدوعين! ولا يمتنع عن الاحتفاظ بمئة ألف دولار عندما يتلقى كل فرد من الخصوم عشرة آلاف دولار، خلافاً لكل قواعد لعبة البوكر، خاصة لأنه مثل كل الأشخاص الذين يعرفون أصول اللعب معرفة بسيطة، يمكنه أن يخمن ويضمن الفوز.

عندما تكون أوراق اللعب غير جيدة لا يتردد صدام في الغش مع بعض الزهو. هكذا في أحد الأيام كشف أحد أصدقاء اللعب بأن لديه أربع ملكات (ورقة اللعب الملكة)، فرد عليه بأن لديه ثلاث أوراق (الملك) مع إعلان اعتبار الأوراق أربعة: «الملك الرابع، هو أنا».

أمَّا الأصدقاء السياسيون وحلفاء صدام فمتناسقون مع نظامه الديكتاتوري. ولهذا لن يُدهَشَ أحد لعلمه أنه يقيم علاقات ممتازة مع الزعيم الروماني نيكولاي تشاوشيسكو. وزياراتهما المتبادلة تكشف عن نقاط متبادلة مشتركة: طاغيتان جُهِّزا بزوجتين عنيفتين على مثالهما وبأولاد مضطربي الشخصية (إساءات عدي تذكر بما يجري لدى نيكولاي تشاوشيسكو)...

سبق أن تعرضت للروابط المتينة مع فيدل كاسترو، ويرتبط بعلاقات متماثلة مع صديقه الثاني الكبير كينث كاوندا، الدي يُلقب أحياناً - بشكل خاطئ في رأيي -

بـ«غاندي الأسود». صدام مبهور كلياً بالرئيس الزامبي حتى أنه أرسل إليه مئة ألف دولار في تشرين الثاني 2002 وعدة مئات من الملايين في شباط 2003، كما أنه ضَمِنَ تأهيل وتدريب الحرس الخاص لصديقه الأفريقي، ووُصِفَ هؤلاء بأنهم مدعوون مميّزون، وليسوا متدربين عسكريين بسطاء. وللاحتفال بتخرُّج أربعمئة مدعو زامبي في العراق أقام حفلاً كبيراً جرت فيه رقصات نَوَرية «الكاولية» المفضّلة عند صدام. جميع الرتب العالية يقدّرون عالياً قضاء سهرة «نَوَر» على بعد 20 كم من بغداد. الشرطة لا تتدخل على الإطلاق وتتوالى الأعمال الفاحشة. مثل بقية الأخوة غير الأشقاء، كان لـ «علي الكيميائي» خليلات من النَّوَر.

من بين أصدقائه الآخرين جان بيدل بوكاسا، الذي أعلن نفسه إمبراطوراً على أفريقيا الوسطى، من مآثرة الشريرة، عندما منحه صدام خمسة وخمسين مليون دولار، عمد إلى تحويل المال مباشرة إلى حسابه في أحد البنوك السويسرية، ولم ينل شعب أفريقيا الوسطى سنتاً من تلك «المساعدة الاقتصادية».

الرئيس الجزائري السابق أحمد بن بيلّا يعد أيضاً من كبار داعمي صدام، وقد قام بتمويل أسلوب حياته الأميري في سويسرا.

من الأصدقاء الحلفاء الآخرين: القادة الموريتانيون. فبفضلهم تمّ الاتفاق مع صدام لاختبار الأسلحة العراقية ومنها الصواريخ الشهيرة سكود في الصحراء الموريتانية. خلال إحدى إقاماتي في أفريقيا حاول سفير فرنسا جاهداً

أن ينبّهني ضد العون العسكري الذي تقدّمه بلادنا بشكل خاص لتلك الدولة ـ الأخيرة في العالم في إلغاء العبودية.

حسين هبري رئيس تشاد، استغل أيضاً هبات صدام السخيّة عندما نشب خلاف بين ليبيا وتلك البلاد حول الحدود البترولية. وقد دعا الرئيس العراقي الرئيس التشادي المذكور إلى العراق، وقدّم إليه مليون دولار نقداً، بمثابة هدية شخصية لمساعدته على إيقاف تأثير القذافي في أفريقيا. إنها وسيلة ممتازة لإيقاف الأطماع الليبية.

بعد تطبيق قانون العقوبات الاقتصادية، الصادر عن الأمم المتحدة. بعد غزو الكويت، توقّف صدام عن توزيع الدولارات مستبدلاً بها براميل البترول المباعة بأسعار رخيصة. تمكّن حلفاؤه بعد ذلك من تسويقها بالتعرفة الرسمية في السوق العالمية لمصلحة «أعمالهم». وتسربت بتلك الطريقة ملايين البراميل.

هذه الشهامة منحت الديكتاتور في بعض الحلقات اللقب الساخر «بابا نويل الحقيقي»: فما من مُلتمسٍ على الإطلاق ينطلق ويداه فارغتان.

9

ثمن العصيان

لم يُخفِ صدام قطعاً ممارسة سياسة «الحديد والنار». فتحت سيطرته غزا الحقد وروح الانتقام العراق. تميّز نظامه بإجلال الزعيم، بعد أن رفعه إلى مرتبة شبه إلهية، كما يذكرنا بالفاشية التي مارسها كل من هتلر وموسوليني وستالين في أزمانهم، هو نظام، ناتج مثالي، عن النظريات الفاشية والأنظمة الشمولية. غير أن صدّاماً عبّر عن درجة فائقة في العجرفة والوحشية. شرح أحد المحللين أنه مارس طريقة قريبة من هتلر (إبادة الجنس، إذلال جميع المعارضين، توسُّع إقليمي، إلخ) مع وصفات مستمدّة من ستالين... لا يمكن إلا بصعوبة قصوى تصوّر ما هو أصعب. ما من عائلة عراقية إلا وعانت الجراح المؤلمة في سنوات صدام.

عرف صدام مثل أي طاغية كره شعبه له. رغم عدم جرأة أحد على قول ما يتمنى أن يقوله للرئيس! لهذا السبب عاش على الدوام بخوف، إن لم نقل في رعب. كان مرتاباً في كل لحظة - وبشكل صحيح - من مؤامرة أو محاولة قتل.

نتيجة لهذا الاعتبار يُقدر أنه أنفق نحو أربعة مليارات

ونصف مليار دولار لتامين حمايته، مبتكراً دوائر المخابرات، ومخابرات الاستطلاع ومخابرات استطلاع الاستطلاع، لأنه لم يعد يثق بأي إنسان إلا بمرزباناته على الأرجح. جُهِّزَت قصوره الرئيسية بنظام حماية بلغت كلفته مليوني دولار. كانت كل واحدة من مقرّاته المئة وستين تخضع لتحريّات يومية تهدف إلى الكشف عن وجود محتمل لأجهزة تنصت دقيقة (ميكروفونات). تخلّى في نهاية نظامه عن السكن إلا في قصرين أو ثلاثة قصور، منها مقره المفضل: قصر الأروانية، على بعد خمسة وعشرين كم من بغداد. لم يكن يقضي أكثر من ليلة واحدة بشكل مستمر.

جهاز المخابرات وحده يتطلب إنفاق مليون دولار سنوياً. غدت الشبهة خبز الديكتاتور اليومي. هذا دون شك ما أنقذه أحياناً وسمح له بالبقاء على قيد الحياة بعد سقوط نظامه والهروب مدّة طويلة من ملاحقات الأمريكيين. ساسَ صدام على الدوام أمنه الخاص. أعطِ ما لقيصر لقيصر: كان خبيراً ذا شأن في اختصاصه. وهو يؤكد أنه قادر على تحديد مدى الخطر في إنسان بالنظر بكل بساطة مباشرة في عينيه. في النتيجة: إن كانت الحدقتان لا توحيان لك بالثقة فعليك بقتله. تجرّأت يوماً على سؤاله هل يتردد في قتل إنسان، قد يكون بريئاً! فكان جوابه: «الأفضل قتل بريء من المجازفة بالخطر».

هكذا أحبط بغريزته وحدها مؤامرة هدفت إلى قتله في مطعم حيث كان سيتناول الطعام مع أربعة من المقربين إليه ومنهم رئيس المخابرات طاهر الحبوش. فبما أن الأخير لم

يصل في الساعة المحدّدة، تحقّق صدّام أولاً من عدم نسيانه. عندما عرف أن السبب خلاف ذلك، أيقن فوراً أن الرجل قد خانه. دعا للحال الضيوف الآخرين إلى خارج المطعم، حتى لا تعوقه حركة السير. والتحق بالقصر سيراً على الأقدام في الشوارع الجانبية مع حراسه، أخطأه القتلة بفرق خمس دقائق.

عندما يتعلق الأمر بحماية نفسه لا يترك صدام أي مجال للمصادفة. يحرص بعناية فائقة على صحته، يجري كل شهر فحوصات دم كاملة. يتسلّط عليه هذا الوسواس، لأن عائلته تبدي استعداداً مسبقاً وأكيداً للإصابة بالسرطان، فأبوه مات نتيجة ورم، كذلك شقيقه البكر (المتوفّي قبل ولادته). كذلك توفيت أمه وابنة خاله (أحلام) زوجة أخيه غير الشقيق برزان. أيضاً تعاني ساجدة من سرطان ثدي متقدم. مما يبرّر شكه الكبير بهذا الداء. طبيبهُ يحضر كل مساء ليأخذ نبضه ويتحقق من ضغطه ونظره. جميع أطباء صدّام الشخصيين يتلقون كل ستة أشهر سيارة مرسيدس فخمة جديدة.

الاختبارات الجارية في بغداد تضاعف بأخرى تتمُّ مرّة بعد مرة في مخابر فرنسية أو سويسرية. ولما كان صدّام يشك بأن الأمريكيين يبذلون جهدهم للتحقّق من جيناته (DNA)، كانت العينات تحمل اسماً مزيفاً، عربياً حيناً وغربياً أحياناً أخرى. في السفر لا يترك أي أثر منه، حتى ولا نقطة بول، أو شعرة أو قصاصة ظفر. تعذّر الحصول على توقيع جيني له إلا بفضل عينة أخذت من رغد ابنته البكر، بمناسبة الفحوص الطبية التي أجريت لها في مشفى الحسين، عند

هربها إلى عمان مع زوجها حسين كامل في العام 1995. هذه العيّنة هي التي أتاحت تحديد هوية عُديٍ وقصيٍ عند دخول قوات التحالف (وبدون شك هوية صدامٍ حسينٍ أيضاً عند توقيفه في تكريت بتاريخ 14 كانون الأوّل 2003).

كان الخدم بدورهم يتعرضون لزيارات طبيّة شهريّة، وأية شبهة في صحتهم تؤدي إلى صرفهم في الحال. على كل حال لم يبق أحد منهم أكثر من ستة أشهر، وبذلك لا تتاح لهم الفرصة لكشف حقيقة النظام ويصبحون بدورهم مستعدين لخيانته.

الحرّاس المرافقون لصدام في أوقات السباحة في المسبح، أو نهر دجلة، يخضعون أيضاً إلى إجراءات صحيّة أكثر دقة. أولئك الذين يجتازون معه جميع الاختبارات بنجاح يتلقون علامة مميّزة تسمح لهم بالسباحة قربه.

كانت جميع القصور الرئاسية تشمل قاعة رياضية ومسبحاً خاصاً بصدام وعائلته. وبالرغم من أن الرئيس لا يستخدم أبداً قاعات الرياضة، لم يكن يُسمح لحاشية القصر بالوصول إليها.

كان على كلّ عراقي يحصل على مقابلة مع الرئيس ولا يحسب من زوّاره المنتظمين أن يتعرّى من ثيابه ويرتدي ملبوسات خاصة، يقدّمها القصر قبل لقاء مضيفه. كان صدّام يخشى في الواقع أن يتعرض للتسمم سواء بمادة سامة أو بوساطة الإشعاع. تمرّر ثياب الزائر على كاشف الإشعاعات

لكشف أية خطة محتملة كما أن على كل زائر غسل يديه في خليط من ثلاث مواد كحولية مختلفة، ليتخلّص من أي جرثومة محتملة كما يمرر الزائر عبر مؤشر إلكتروني. تطبق هذه القواعد على جميع الناس، وعلى قادة الألوية الخضوع لها، وحتى على غزوات صدام النسائية!

رغم جميع هذه الاحتياطات كان صدام يلبس على الدوام سترة واقية ضد الرصاص عندما يستقبل أحدهم، (لوحظ أن الرئيس السادات لم يكن يرتديها يوم مقتله).

للمقربين من صدّام وحدهم الحق بمعانقة الرئيس أو ضمّه. أما الآخرون فينبّهون مسبقاً بالاكتفاء بمصافحته فقط.

كلُّ ما يأكله صدام أو يشربه أو يدخنه يُختبر أولاً في مختبر قائم في الطابق تحت الأرضي من القصر الرئاسي. ماء عطره والصابون المستخدم وحبر قلمه وحتى ماء إيڤيان الذي يستعمله يُدَقَّق أولاً. يتم الأمر نفسه على الأغطية والمناشف. لا يلمس أبداً أيّاً من الرسائل التي يستلمها: يقوم أحدنا بتصوير الرسائل الواردة إليه، ويقدم له الصورة. الله وحده يعلم ما يمكن إخفاؤه في الورقة!

تختبر المأكولات في المختبر وتذاق في حضوره من قِبل ذواقته. لا يلمسها صدام قبل تأكّده من أنها لا تتضمن أي خطر. هذه الحيطة أنقذت حياته لمرة واحدة على الأقل. في أحد الأيام استأجرت المخابرات الإيرانية أحد الخدم الإيرانيين لرئيس المخابرات السابق لدى إيران، الرئيس القديم للسافاك ـ البوليس السري للشاه ـ تيمور بختيار، وهو

لاجئ في العراق وزوجته خليلة صدام. تم استئجار الخادم لدس السم في فنجان قهوة الرئيس، توفي ذواقة الرئيس في الحال، لا أحد يعلم إن كان الزوج يغمض عينيه مجاملة أم أنه لا يعلم شيئاً. في جميع الأحوال فإن صداماً يعامله كصديق حميم، ويقدم الهدايا لجميع أفراد العائلة. خاف رئيس المخابرات الإيراني السابق من توجيه لوم أو اتهام له، فقام بإجراء تحقيق كشف فيه هوية الخادم المذنب، ثم سلمه إلى صدام، وبفضل ذلك فإن أبناءه حالياً من أصحاب الملايين.

أعقب ذلك كما سبق أن ذكرت، وبناء على نصيحتي، تشغيله لابن طاهيه كذواقة. فكّرت أنه وهو يعلم بتعرض حياة ابنه للخطر، يبرهن على يقظة ساهرة لدى الطهاة.

كان صدام مولعاً بالطرائد، كانت تربى من أجله في ملكياته الواسعة، هناك يتم التحقق بدقة كاملة حول نوعية غذائها. والسهر على أن العشب الذي ترعاه الطريدة خال من أيّة مادة سامة أو من أي إشعاع.

احتياطات مماثلة مورست في جميع المجالات. لهذا عندما احتاج صدام لتركيب جسر سني أُحْضِر إلى بغداد أحد أشهر الأطباء الأمريكيين. غير أن هذا الاختصاصي لم يلتق يوماً بمريضه الشهير. رؤي ضماناً للأمان أن يصنع صدام مخبراً جديداً لضيفه. مما تتطلب أكثر من أسبوعين لتجهيزه، بعد ذلك بدأ الطبيب الأميركي بالعمل على أساس القياسات والطبعات المأخوذة من قبل الطبيب العراقي. لم يعرف على الإطلاق هوية مريضه. لكنه شك بكل تأكيد بمقامه! أذكر أن

الرجل المسكين شكا لي همومه والرقابة التي خضع لها أربعاً وعشرين ساعة على أربع وعشرين ساعة حتى كاد يختنق. حصل زميله العراقي الدكتور جابر محسن على رئاسة جامعة المستنصرية، لقاء تعاونه وإخلاصه.

عندما ينتقل صدام بين قصر وآخر كان حرسه يشمل نحو عشرين عربة مصفحة وشاحنات عسكرية، إحدى تلك العربات تتضمّن مشفى حديث الطراز. في الوقت نفسه تسير ست قوافل متماثلة على طرقات البلاد ذاتها، ثلاثة من بينها تحمل معها نسخ صدام، حتى لا يفكّر «خائن» بالإشارة إلى المسيرة التي يسلكها الرئيس.

عدا ذلك، يصل على الدوام في آخر لحظة. حتى في المدينة يتخذ مكانه ضمن قافلة من خمس عربات متماثلة محدّدة بأرقام سير متشابهة، وهي تحمل العدد نفسه من الركاب. كيف يمكن ضمن هذه الشروط معرفة وتحديد بأية سيارة يسافر؟

لزيادة الحيطة أيضاً يُغيّر بكل طيبة خاطر في الدقيقة الأخيرة مخططاته أو الجهة التي يسلكها. على نسق ابنه عُديٍّ كان يضع مخططاً سريّاً لبغداد تستبدل فيه الأماكن والشوارع بالأرقام. حرّاسه الشخصيون المقرّبون وحدهم يعرفون الترميز.

لا يجلس على الإطلاق شخصان من عائلته في مروحية واحدة أو في طائرة أو عربة. عندما توجّهت ساجدة إلى المغرب جُنِّد كامل أسطول الخطوط الجوية العراقية، ثماني

طائرات في تلك الفترة أقلعت كل منها بفارق ساعتين. بذلك لا يعلم أحد في أيّة طائرة توجد زوجته، مما يعقد تماماً محاولة الاعتداء.

أكثر من ذلك: عندما يقوم بزيارة إلى «شعبه» يأخذ على الدوام واحداً أو اثنين من أولادهم على ركبتيه أو بين ذراعيه ليثبّط عزيمة أيّ مطلق نار! استمد هذا التدبير من أحد ضباطه القدامى من خرّيجي (SAS) الذين كانوا يدربون حراسه.

لا يَرد صدام على أيٍّ هاتف مرتجل. للتحدّث إليه يجب تحديد موعد مسبق حتّى من رئيس دولة أو حكومة. تُطبَق على زوجاته وخليلاته هذه المحظورات. عندما يريد صدام رؤيتهن يرسل إليهن رسالة مع أحد حرّاسه الشخصيين. بعد حرب الخليج رفض استخدام هاتف محمول خشية تحديد مكان إقامته ومحاولة قتله.

عندما يرضى بإجراء مقابلة يُعِدُّ رجاله لهذا الغرض نحو عشرة صالونات كي لا يعلم أحد مسبقاً مكان المقابلة. الكاميرات وتوابعها بالطبع تفحص بدقّة. من العبث التفكير بأن صدام سيتعرّض لحادث كما حصل لجنرال الأفغان أحمد شاه مسعود.

* * *

لا شيء بمنأى عن آذان المخابرات العراقية، خاصة تصرفات وحركات مستخدمي القصر. في تلك الفترة كان يشاع في العراق أن هؤلاء العملاء قادرون على «كشف اسم أمِّ ولد لا أم له». فُتح تحقيق في كل أسبوع عن تصرفات كل

واحد من هؤلاء الخدم من عمال الحدائق والطهاة، وعن أعمال وحركات أقربائهم. أذكر وضع حدائقي عجوز وجدته يوماً والدموع في عينيه. أوقف ابنه المتّهم بانتمائه إلى حزب الدعوة الإسلامي الممنوع. كان قلقاً على مصير ابنه، ولكن من جهتي فكرت بمصيره عندما تقوم مخابرات القصر بسجنه. لذلك نصحته بأن يترك عمله بسرعة.

بفضل شبكات التجسس المنتشرة في كل حي في المدينة سيطر الخوف والهلع على جميع القلوب (عوقب كثير من الأبرياء على أعمال لم يرتكبوها) كما كان تحت تصرف صدام شبكات مختلفة ومختصة، مثل الاتحاد النسائي العراقي الذي كانت تديره منال الألوسي التي سبق الحديث عنها، وهي مكلفة بمراقبة زوجات أصحاب المراكز الكبيرة في النظام. خُدعت زوجة أحد الوزراء بهذه المؤسسة (الاتحاد النسائي). وذكرت أن زوجها يخطط لمشروع يدر عليه الكثير من الأموال. سجن الرجل وعذب حتى اعترف بكل شيء.

تقارير منال الألوسي توجّه مباشرة إلى الرئيس بوساطة عبد حمود أحد حراس الرئيس الشخصيين، المكلّف بنفسه بأخذ نسخ عنها قبل تقديمها للرئيس. كانت لا تصل إليه حتى عن طريقي بالذات.

كانت جدران قصر المؤتمرات، الذي شيدته شركة فنلندية بأمر من صدام - هدم أثناء حرب الخليج - مزروعة بأجهزة التنصت...

يبرّر صدام جميع هذه الإجراءات المعاكسة لاحترام الحياة الخاصة، بواقع شعوره على الدوام بالخطر. ومن

واجبه توقي جميع الأخطاء قبل وقوعها. شرح لي إنه يأمل يوماً إن شكلّت يده اليمنى تهديداً له فسيقطعها بنفسه. أعتقد أنه يفكر بذلك جدياً...

على شاكلة الآخرين، كنت أعرف أنني مراقب باستمرار. «إنّهم» يعرفون كل شيء عني. يتبعونني، يراقبونني، مكالماتي وأحاديثي الهاتفية مسجّلة وأجهزة التنصّت الدقيقة موضوعة لديّ ولدى أقاربي. كنت واعياً لتلك الرقابة المستمرّة، وأظهرت دائماً حذري في أحاديثي مع أمي وأخواتي. كنت أشيد مدحاً بالرئيس. طلبت منهم أن يعلّقوا صورة كبيرة لصدّام على مدخل المنزل العائلي. عند مروري أمامها، كنت أقول دوماً: «طال عمرك وليحمك الله». إنّه ثمن طمأنينتنا.

قادتني أمي في أحد الأيام إلى الحديقة تسألني عن أسباب هذا التصرف الغريب. هل تحوّلت فجأة إلى شخص ينقاد انقياداً أعمى لصدّام، فلا أرى عيوبه وجرائمه؟ شرحت لها الرقابة الممارسة علينا، وحذّرتها في الوقت نفسه من النطق بأية كلمة متهورة. رجوتها ألا تجيب على الإطلاق إن تحدّث أحد بسوء عنه أمامها، وبالطبع الامتناع بشكل خاص عن المزايدة. حاول عدد من الجيران، ولمرات عديدة، نصب الفخاخ لإيقاع أمي أو أختي ولكن لحسن الحظ إنهن نساء عاقلات وذكيات، استطعن إحباط مثل هذه المحاولات بكل سهولة.

للأسباب نفسها كنت أحرص على البقاء بعيداً عن أعضاء

عائلة صدام، رفضت بمنهجية مرافقة عُدي ابن حسين كامل أو خالد المحمود ابن سهام أخت صدام للقيام بجولات في المطاعم الكبرى والخمّارات. كنت أعلم أن أيَّة رابطة صداقة تقودني عاجلاً أو آجلاً إلى السجن أو إلى حبل المشنقة. أساير وأتملق ولكني ملتزم مكاني: هذه كانت استراتيجيتي.

جميع هذه الاحتياطات لم تكفني لتجنّب سلسلة من الإقامات في السجن ـ كما سبق أن رأينا.

* * *

كان صدام محقاً بعدم الوثوق بأيٍّ كان، لأن سلوكه لا يشجّع على الولاء العميق. أمكننا أن نتأكّد من ذلك خلال التدخّل الأمريكي. إذ لم تتأخر الخيانات.

إن كان القول المأثور «من يحبُّ بشدة يعذّب بشدة» ينطبق على الأوطان، يمكن القول إن صداماً أحب العراق كثيراً... عديدون أولئك الذين تعلموا بالخبرة مدى استطاعتهم الظهور قساة، وساديين ودون شفقة.

كلٌّ من القصور الرئاسية كان يحوي قاعة تعذيب. عدا عن طرق التعذيب المألوفة فإن «عَمّنا» وجواسيسه أثبتوا مقدرة على الابتكار، عندما يتعلّق الأمر بمعاقبة معارضيهم أو عند إرغامهم على الاعتراف بالأخطاء. قُطِعَت آذان الجنود الذين حاولوا الهرب، أمّا الذين تجرؤوا على انتقاد صدّام فقد قطعت ألسنتهم، أيضاً قطعت أصابع البعض، وقُلعت أظافر البعض الآخر، بينما تلقّى الرجال شحنات كهربائية في خصيّهم.

للمعارضين الأشداء ابتكرت مخيلة صدام العقاب الأشد هولاً. عمد إلى اغتصاب بنات أو زوجات أعدائه بوساطة رجال مأجورين للقيام بهذه المهمات. إذا كان المتهم الذي يريد عقابه داخل العراق أُجبر على حضور المشهد؛ وإذا كان خارج العراق، يرسل إليه المشهد على شريط فيديو. لم يسلم الرجال أيضاً من العقوبات الجنسية، على مثال الإمبراطور الروماني نيرون قبله، لم يتردد صدام في التوجيه باغتصاب المعارضين بوساطة رجال آخرين للحصول على اعترافاتهم. الرجال العشرة الذين كانوا يقدمون هذه الخدمة «الخاصة» هم من البصرة من ذوي البشرة السوداء (مدينة مايزال يوجد فيها بعض السود المتحدرين من أصل أفريقي). هذا هو الإذلال الأكبر، ولا يمكن لرجل تحمّله، خاصة إذا كان رجلاً عربياً. وكالمعتاد يوثق الفيلم ويوضع في الأرشيف. أسلوب العذاب هذا مخصص بامتياز إلى المساجين المتحدرين من «العائلات الكريمة»، وهم أكثر التصاقاً بشرفهم من غيرهم. من أجل الأسباب نفسها تعرض مشاهد الاغتصاب على أقارب الضحايا.

لم تكن طرائق القتل قليلة التنوع. إذ تتعلّق إحداها بربط المذنب بمروحة كهربائية مثبتة في السقف، ثم تشغيل المروحة. يمكن أيضاً أن يغوص في حمام من ماء مثلج للتحريض على إيقاف القلب، أو دعوته لتناول الشاي ووضع سمّ في الكأس. غير أن معظم ضحايا النظام قضي عليهم بطريقة كلاسيكية رمياً بالرصاص أو بالسلاح الأبيض.

يمكن تلخيص فلسفة صدام في محادثة جرت مع الأمير

سعود الفيصل كان أثناءها وزيراً للشؤون الخارجية السعودية بحضور سفيره في بغداد اللواء طرّاد الحرثية وطارق عزيز. سأل صدام الأمير عن سبب احتفاظ العربية السعودية بأسرى سياسيين، فأجاب الأمير إن الشريعة الإسلامية تفرض على أن كل متهم بريء إلى أن يدينه القانون، وردّ صدام: «قل لجلالة الملك فهد إن من الأفضل قتلهم. إنه لمضيعة للوقت الاحتفاظ بهم في السجن».

«اقطعوا الرؤوس وانتقلوا إلى أمر آخر»، إنّها القاعدة الذهبية التي طبقها صدام حسين دون ضعف. أهكذا يحاكم المسلم الطيب. اسألكم؟

عمل نظام صدام حسين على قتل مئات الآلاف من الضحايا الأبرياء المجهولين، زعماء المعارضة، أو من قدماء المقربين إلى الرئيس. هكذا قُتِل عبد الكريم الشيخلي، وكان وزير خارجية صدام وأحد أصدقائه في «حادث سيارة» أعد وأُخرج من قِبل الحرس الرئاسي. نوّهت في الفصل الأول من هذا الكتاب بالقبض على الدكتور راجي التكريتي، وهو ابن عم من الدرجة الثالثة لصدام اقتيد قسراً إلى العراق وسنتطرق للأمر...

كان ابن خاله عدنان خير الله طلفاح بمثابة أخ صدام لأنهما شبَّا معاً. غدا وزيره في الدفاع، واختفى في «حادث» مروحية من إعداد وإخراج حسين كامل وبأمر من صدام. هناك مشكلة واحدة: «الرفيق عدنان» حمل معه إلى القبر الترميز السري الذي يتيح الوصول إلى ما يقرب من سبعة

مليارات دولار اختُلست من الدولة. وهذه الجريمة لا تعود بالفائدة على حسين كامل، على ما يُعلم.

أحد أصدقاء طفولتي، وهو عالم مشهور لُقب «أنشتاين العربي» نشأ في الحلّة، اسمه فاضل، ولعب هو أيضاً دور «الصعود والانهيار» على الطراز العراقي. هذا الرياضي العبقري، أستاذ الرياضيات في مدرسة بلدته الحلة، ابتكر منذ العام 1983 آلة قادرة على تثقيب كل الرموز النقدية الموجودة في أقل من 25 دقيقة (آلات وكالة الاستخبارات الأمريكية CIA تستغرق ربع ساعة، لكن عند التفكير بقدرة البلدين فإن ذلك يكون مدعاة للإعجاب). اهتمت أختي بشرى بذلك، وهي بدورها عالمة متميزة وصرحت بإعجابها بعمله. عندما علمتُ بالأمر استدعيتُ فاضل إلى بغداد لتقديمه إلى صدام. أمّن اللقاء ثروته، ولكن فيما بعد نكبته... وُضِعَ سريعاً في مكان آمن وجُهِّز بجميع الوسائل الممكنة لمتابعة أبحاثه. لكن حسين كامل المطبوع دوماً على الحَسَد قابله حاقداً، خاصة وأن هذا الصديق شيعيّ. وبصفته مكلفاً بالصناعة العسكرية كان حسين كامل في الموضع المناسب لتقدير عبقرية فاضل. لا شيء أسهل من اللجوء إلى خدعة لتلويث سمعة الشاب المسكين. في يوم وجد فاضل مئة ألف دينار (أي ما يعادل ثلاثمئة وعشرون ألف دولار أثناءها) مخبوءة في سيارته في كيس أسود مزخرف بشعار القصر الرئاسي. فوراً أدين بالسرقة أو بتحويل الأموال. توسَّل إلى لواء من عائلة الجبوري المنتمية إلى قبيلة الجبوري المشهورة فوعد بمساعدته. لكن حسين كامل، وهو في تلك الأثناء في قمة السلطة ـ وقد قيل عنه إن له «عيوناً في كل مكان» ـ علم بتلك المحاولة لتخليص الرجل من دسائسه فشن هجوماً معاكساً

في الحال. لم يتوافر لفاضل أي حظّ في الهرب. تم «احتواء» القضية وفق العبارة المقررة. قُبِضَ على المذنب بعد ثلاثة أيام، واقتيد إلى القصر والأغلال في يديه «وعوقب»، ولم أر إلا شريط ڤيديو لتلك المشاهد، كان تحذيراً موجهاً لي: هوّ ذا ما نفعله بالخونة: الأمر يتعلق بالعبرة لمن يعتبر.

في العام 1970 عُلّق خمسة وخمسون متهماً علانية على أعمدة الإنارة في (ساحة التحرير) بعد الانقلاب على الرئيس البكر. وضع صدام خطة ميكيافيللية لتحييد جميع معارضيه ومعارضي حزب البعث. بدأ العمل بنشر معلومات حول سورية وأن المخابرات الروسية KGB كشفت النقاب عن وجود مؤامرة ضد الحزب. اتهم خمسة من أصحاب المناصب العليا بالإعداد لقتل الرئيس البَكر بهدف الاستيلاء على السلطة. حاول ناظم كزار مدير الأمن العام، مع بعض مساعديه الهرب إلى إيران، ولكنهم التقطوا واقتيدوا فوراً إلى مكاتب صدام، الذي تولى استجوابهم شخصياً، يساعده أحد ضباطه الأعلى رتبة في جهاز الأمن، سعدون شاكر. هلك ناظم كزار على يد هذا الأخير، بعد أن رفض صدام إجراء محاكمة. أدين بهذا السر لابن عم لي ذكر لي أيضاً أنه عند دخوله ذلك اليوم إلى مكتب صدام كان يبكي بدموع التماسيح ويصيح: «ألم تر كيف أظهر ناظم كزار قسوته وفظاظته؟ إنه لم يحاول حتى الاعتذار لمحاولته الانقلاب على الحزب!». لقد حاول الخبيث أن يختلق صورة الوليّ الطيب...

في بداية الحرب العراقيّة الإيرانية في العام 1981 اقترح بعض الضباط، ومنهم الدكتور راجي التكريتي ابن عم صدام حسين أن يبرهن عن شعبيته بالاستقالة من الرئاسة، وتنظيم

اقتراع جديد (علماً بأنه سينجح بالتأكيد بنسبة 100% من أصوات المقترعين). أثير هذا الحلّ خلال اجتماع مجلس الوزراء. سأل صدّام عمن يفكّر بتبني هذا الرأي فعارضه جميع الحاضرين عدا رياض حسين وزير الصحة، وهو صديق زمن طويل للزعيم ورفيق من الساعة الأولى في حزب البعث، ويمثّل حركة أكثر تحرراً في النظام. إذ تجرأ على الطلب من صدّام العودة إلى الشعب العراقي. شهر صدّام مسدسه البراونينغ وأطلق عليه النار في قلب مجلس الوزراء. نوّهت الصحف بعدها أنه شُنِقَ لخيانته، بعد أن استورد أدوية فاسدة عرَّضت صحة الشعب العراقي للمخاطر.

في العام 1982 زار صدام محراب سيد محمد، على بُعد عشرة كيلومترات شمال بغداد. وتوجّه بعدها إلى مدينة البليد المجاورة والمشهورة بحدائقها وطرقاتها المظلّلة بالنخيل. تجمّع الناس في الشوارع لتحية الرئيس. عند النزول من السيّارة تفجّرت الطلقات النارية. فطرحه حراسه أرضاً وتراكموا فوقه لحمايته. قُتِلَ محمد أحد حُماته وجُرح آخر يسمى صباح. هرب القاتل في الغابة، أمر صدام بهدم المدينة وتخريب الغابات وقطع أشجار النخيل بالبولدوزرات. أوقفت أربعمئة وخمسون عائلة مما يعني آلاف الأفراد... وأعيد بناء المدينة مجدّداً فيما بعد.

في العام 1988 أنبئ بمحاولة انقلاب معدّة من مئتي ضابط من الأعلى مرتبةً تهدف إلى قتله. اللواء حميد الوريد، أحد المفترضين بالتآمر ـ تبينّ فيما بعد أنه بريء ـ كان يُعَدُّ من أصدقاء الرئيس. هذا الملحق العسكري السابق في القاهرة طُرِدَ من مصر من قِبل السادات بعد أن نظّم عملية قتل

في العام 1971. رغم روابطه مع هذا الرجل، وبالرغم من أنه يعرفه بريئاً، فقد رماه صدام بالرصاص. على عادته دون تردد...

في العام 1993 قامت مجموعة من الألوية والسياسيين، ومنهم الدكتور راجي التكريتي، ابن عم صدام، واللواء بشير الطالب واللواء سفيان الجاري، آمر سلاح الدبابات وتوحدوا كلهم ضد الرئيس. كانت خطتهم: إرسال مفرزة دبابات لمحاصرة ونسف قصر الثرثار، على بعد مئتين وخمسين كيلومتراً من بغداد حيث صدام موجود هناك، مما يتيح القبض على الرئيس والاستيلاء على السلطة. غير أن صداماً علم بالمؤامرة وعمد إلى إطلاق النار دون محاكمة على جميع المتآمرين، باستثناء ابن عمه إذ أن عقاباً أكثر قسوة ينتظره. سُلّم بثياب البحر وجسمه مغمور بالزيت لرهط من «الدوبرمان» كلاب الصيد الجائعة...

في العام 1995، بعد حرب الخليج، فكر اللواء محمد الدليمي آمر قاعدة البكر التي تقع على بعد 160 كم من بغداد بإرسال ستين مروحيّة لضرب قصر صدّام. علم صدام بالأمر فأعدم اللواء، إضافة إلى ستين طياراً، وأكثر من مئة آخرين لردع المتآمرين الآخرين مستقبلاً.

قبل وقت قليل من شن الهجوم المؤدّي إلى انهياره، علم صدام بإشاعة تفيد بأن مجموعة من ضباط القاعدة الجويّة في تكريت مصممون على إجراء انقلاب عليه. ظرف حرج. الخونة المتورطون جميعهم من تكريت، وهم من أبناء عمومته. أُوقف سبعة وعشرون طياراً وعذّبوا. أخيراً أنهاهم قصي شخصياً «بطلقة الرحمة» في رأس كل منهم.

كان تعليق صدام بأنه نجا من هذه المحاولات بتدخل إلهي.

مصير حسين كامل يمثّل نهجاً حقيقياً. سطع نجمه وتبوأ أعلى المواقع بفضل دخوله في العائلة الرئاسية نتيجة زواجه من رغد، الذي لم يمر دون صرير أسنان من بقية ذكور العائلة، وخاصة عديّ وقصيّ (وأيضاً من أخوة صدام غير الأشقاء) مما لا يمكن أن ينتهي إلا بالسوء نظراً للمميّزات العنيفة «للأميرين الوريثين». تحرّك الأخوان بالحدس أو بالاضطراب الهذياني. أدرك حسين وأخوه أن الريح غير مؤاتية لهما، وقررا مغادرة العراق ترافقهما زوجاتهما وأولادهما وصهرهما كامل عز الدين المجيد وعائلته. لجأت الجماعة إلى الأردن ومعها زاد قدره خمسة وخمسون مليون دولار نقداً، دون المبالغ الخيالية الموضوعة منذ مدة طويلة في الخارج. استفاد الأخوان كامل من وقع المفاجأة لدى الملك حسين، فهو لم يتوقع وصول هذه المجموعة من أصحاب المناصب العراقيين، وتوصلا إلى الحصول على حماية الملك الذي وضع أحد قصوره تحت تصرفهم.

خلال إقامته في الأردن عمل حسين كامل على إنذار الرأي العام العالمي حول حقيقة نظام صدام مشيراً إلى مسؤوليته المباشرة عن المشاكل التي يعاني منها العراق. بدأ بالكشف للسلطات الأمريكية عن برنامج التسلح العراقي، وسائر الأسرار السياسية والعسكرية. لم يتأثر هؤلاء القادة كثيراً لهذه المعلومات غير الهامة، ولم تقدم له الحكومة الأمريكية الدعم المنتظر. لم ييأس حسين كامل والتفت نحو

البلدان العربية، محاولاً أن يشرح لها موضوعه ويضمها إلى جانبه. تعرّض لإحباط جديد. وتوجّه بآماله الأخيرة إلى المعارضة والأحزاب الأخرى، ليزين في أعينهم الدعامات القوية التي يتمتع بها في العراق داخل الجيش وفي الإدارة. لكن هؤلاء القادة لم يقتنعوا به، لأن من خان سيخون مرة أخرى. حاول حسين كامل أن يؤسس حركة سياسية خاصة به يمكن الاعتماد عليها في قلب نظام صدّام. ضم إليه بعض العراقيين المقيمين في الأردن مثل منسق العلاقات السابق مع صحافة صدام صباح سلمان، والشاعر عبد الوهاب البيّاتي والزعيم النقابي السابق رسيم العوّادي، وبعض رؤساء العشائر، لكن السلطات الأردنية غير الراغبة في رؤية بلدهم يتحوّل إلى قاعدة خلفية للمنشقين العراقيين وضعوا له «العصيّ في الدواليب». قرَّر حسين كامل أن يقيم مع عائلته في بلد آخر. رضي الأردن أن يتركه يرحل ولكن لا يشمل هذا الأمر بقية أفراد عائلته. لأن زوجته وأولاده دون شكٍّ أحفاد صدام حسين المباشرين. اغتاظ حسين كامل وارتكب غلطته المأساوية. طلب مقابلة سفير العراق في عمّان ليحصل منه على أذن بالوصول إلى العراق مع أخيه ليلتمس صفح عمهما المشترك. مُنِح الموافقة، وعادت عائلة كامل إلى العراق. نظم السفير العراقي الرحلة في السيارة. عند الوصول إلى بغداد استقبلوا من قِبَل عدي وقصي... ولكن ليس كابنين شاطرين. أمسك الحرس بالخائنين، لاقتيادهما إلى منزل أختهما في حي الجادرية.

بعد ثلاثة أيام من عودتهم، اجتمع مجلس عائلة المجيد بإشراف رئيسها علي حسن المجيد عم الأخوين، عدي

وقُصيٍّ، لتقرير العقاب الواجب إنزاله بهم حيث الأخوة كامل يعدون أسرى. وبعد معركة توالت فيها طلقات الرصاص والقذائف سقط الهاربان صرعى ومعهما عمهما.

أحسّ صدام بترمُّل ابنتيه العزيزتين، وأراد البرهان عن غفرانه المتأخر معلناً أن الأخوين قتلا ببطولة خلال تصفية حسابات قبلية. كان يلزمه أكثر من ذلك ليخدع رغد ورنا، اللتين أدركتا أن أباهما قتل زوجيهما المحبوبين وستشرحان ذلك إلى أولادهما، ولأجل حفظ صورته أحضر الابنتين مع أولادهما إلى القصر، ووحدها ساجدة أمهما كان لها الأذن بالزيارة.

قريب آخر سلك مسيرة مماثلة: برزان التكريتي أخ صدام غير الشقيق، وأحد المعذِّبين الرئيسين. كانت روابطهما العائلية أشد وثوقاً باعتبار أن أحلام(*) زوجة برزان، المتوفية في جنيف منذ عدة سنوات بسرطان ثدي، هي أخت ساجدة زوجة صدام الأولى...

غدا برزان بدرجة من القوة حتى صار يكنّى فكاهيّاً «بالرئيس». كان يجب عليه أن يعلم أن صدام لن يستملح هذه النكتة... لذلك رأى أن أخاه غير الشقيق يستحق أن يلقنه درساً، خاصة وأنه بدأ يمتلك سلطة تشكل خطراً عليه. وضعه في الإقامة الجبرية في المنزل، بينما ألقى جميع حراسه في السجن، وبعضهم من أبناء عمومة صدام.

(*) زوجة برزان هي أحلام ابنة خال صدام حسين وأخت ساجدة زوجته. م.

عند تسريح برزان من عمله على رأس المخابرات، طلب مني صدام موافاته بهشام أحمد، كردي، ابن رئيس قبيلة. لم ينسَ أنه طلب حماية هذا الرجل قبل عدة سنوات... في ذلك اليوم كان صدام يقود سيارته الخاصة في حي المنصور. وبدلاً من التوقف كعادته، ولم يكن برفقته إلا عربتان مبتذلتان، لم يستدلّ هشام على العربتين الأخريين، وخُيِّل إليه أن الرئيس يتنزّه منفرداً ويحتاج للحراسة فتبعه. لم يلاحظ أحد وجوده قبل وصول الموكب إلى نادي الصيد. إن الرئيس لن ينسى هذه البادرة.

عندما ظهر مجدداً، بناء على وساطتي، أمام صدام حسين، ذعر المسكين لرؤيته يؤمر من الرئيس بتفتيش مكتب برزان شخصياً وهو القوي القادر. الأمر يتطلّب جمع الوثائق وتفريغ المخابئ المحتملة.

تضمّنت إحدى الوثائق قائمة بمئتي عراقي أعدمهم برزان شخصياً بإطلاق الرصاص عليهم في الرأس. من بين هؤلاء أربعة أشخاص اشتبه دون أي برهان بانتمائهم إلى حزب إسلامي عراقي، حركة شيعية محظورة.

استقرّ برزان من جهته في جنيف وعاد إلى العراق في العام 1998. ابنه محمد هو الآن في الثلاثين من عمره بقي مقيماً في سويسرا. قرر أخوة برزان الانتقام من هشام، فحبكت مؤامرة خيالية من قِبلهم، ووشوا به كعميل لألمانيا الغربية، وتم شنقه.

لا وجود للرحمة لدى الرئيس، حتى للناس الضعفاء، البسطاء. طلبت فلاحة عجوز من منطقة الأهوار، المعتبرة

واحدة من أجمل مناطق العالم، والمجففة بأمر من صدام لأنها كانت تستخدم كمخبأ للعصاة، طلبت تلك السيدة المتقدمة في السن مقابلته، لديها اليقين بالتوجه إلى «عمّ الشعب». انحنت أمامه، ثم شرحت له قضيتها. ابنها وهو في العشرين من عمره، ويُعَدُّ سندها الوحيد، أوقفه الجيش للاشتباه باتصالاته مع العصاة اللاجئين إلى المستنقعات. ووفقاً لملفِّ الشاب الموضوع أمام روكان الرازوحي المجيد، نسيب صدام، بينت المحاكمة أنه بريء تماماً.

طلب صدام من المرأة أن لا تقلق وأن ابنها سيعود إليها. وأمر روكان بإعطائها بعض المال. أجابت المرأة بأنها لا تريد مالاً، لكنها تريد فقط إعادة ابنها إليها.

عندما غادرت القاعة سأل صدام روكان:

- هل حققتم في الاتهامات الموجهة إلى ابن تلك المرأة؟

- كلا، مايزال يخضع للاستجواب، لكن من المتوقع أن يكون بريئاً.

- في هذه الحالة أعده إلى أمِّه... ولكن ميتاً.

هكذا كان ملتزماً بكلامه أمام مواطنيه.

* * *

بقولنا هذا نخطئ إن التزمنا بتصنيف صدّام بين المعتوهين غير المسؤولين. إذ لم يظهر مرّة بشكل غير متوقع أو مخالفاً للصواب في تصرفاته. فكل شيء كان يتبرّر بالنسبة لطموحاته الاستبدادية.

10

الردع في العراق

كان ستالين يرسل المنشقين عنه إلى غولاك سيبيريا. «وابنه الروحي» صدام ينفي أكراد العراق إلى الصحراء ويوطّن السكان العرب في قراهم. لم يعلنوا على الإطلاق تذمرهم من الطرائق المستخدمة: غسيل مخ ـ تجارب لقياس مقاومة الكائن البشري للخوف والألم. عدا عن درجة إذعانه وطاعته.

على المستوى السياسي، حزب البعث وتفرعاته مثل الشبيبة، هو الحزب الوحيد الذي يمارس نشاطه، عدد لا بأس به من أعضاء حزب الدعوة الإسلامي المحظور، يصل إلى ألف شخص في اليوم، خلال فترات مختلفة، اضطر أن يدفع حياته ثمناً لانتمائه إلى تلك الحركة المحظورة.

لمد جذور سلطته وسلطة نظامه عمد صدام، عبثاً لحسن الحظ، إلى تخريب النسيج الاجتماعي العراقي القائم على التقاليد، واحترام العائلة والعشيرة واحترام الأولاد البكر... الدور الأوّل للمشروع يشتمل على إبعاد الوجوه البارزة من المعارضة ومن زعماء العشائر. في هذا السياق أُعدِمَ راجي عبد الواحد السكّر.

صدرت بعد ذلك قوانين وتنظيمات تحرّض الشباب على الالتحاق بحزب الشبيبة الوطنية؛ الفريق اليافع في حزب البعث. شُجع هؤلاء الأعضاء الجدد على الإعلان عن أهلهم إذا حاولوا منعهم من الانتساب إلى الشبيبة. والإشارة إلى آرائهم السياسية...

لأوّل مرّة تفرّقت العائلات العراقية وفقاً لظاهرة مماثلة قليلاً لتلك التي جرت في الصين خلال الثورة الثقافية. البريطانيون أنفسهم لم يفكّروا بتدمير تقاليدنا. صدام لم يتردّد في استخدام الأولاد ضد ذويهم. فقد أخذ أحد الأيام ولداً صغيراً بين ذراعيه وسأله إن كان يعرفه. صرّح الطفل ببراءة أن جميع أفراد العائلة يشتمونه عند ظهوره على التلفاز... شُنِقَ جميع أقارب الطفل المسكين.

اجتثّ الحزب الشيوعي بدوره تقريباً، منذ بداية ظهور قوّة صدام. كان أعضاء الحزب يوضعون في قطارات الموت...

مخيّلة «علي الكيماوي» التي لا تخيب أبداً قادته ليقترح على صدّام طريقة جديدة مبتكرة جدّاً للتخلص من معارضيه. تُشرَّب السُجَّدُ بإشعاعات ضارَّة، ثم تقدم كهدايا للمعارضين المطلوب إبادتهم. بما أنه لم يكن يطيق أبداً رؤية وزير الداخلية سعدون غيدان الذي يُعَدُّ من خيرة أصدقاء صدّام، فقد قرر عليٌّ أن يختبر عليه سجاداته المحسَّنة. يقال إن تلك الطريقة استُخدِمَت غالباً خارج العراق كثيراً. لكن التاريخ لم يذكر بالطبع مصير التعساء الذين عُهِدَ إليهم بمعالجة أو تسليم تلك السُجُد...

* * *

وفق ما ذكرت سابقاً كان العراق يعيش تعدد قومياته ومذاهبه بانسجام كبير، إلى أن وصل صدام حسين إلى السلطة. لم تبتعد أيّة طائفة عن الزيجات المختلطة المقبولة جيّداً. غير أن صدّاماً كان يكره الشيعة، وهذا يمثّل مشكلة في بلد مثل العراق يُعَدُّ هذا المذهب هو الأكثر انتشاراً فيه! انتابه الشك في الواقع من وصول هذا الفرع من الإسلام إلى السلطة في يوم ما كما جرى في إيران. حملته ضد الشيعة بدأت عندما كان مايزال نائباً للرئيس. استفاد في هذا المجال من دعم خاله خير الله طلفاح المتحمس لذلك. تسلطت عليه فكرة تمكين حزب البعث من استلام الحكم، فوجه الاتهامات إلى زعماء الشيعة، ناسفاً نشاطهم وجهودهم، معتبراً إياهم حزباً دينياً.

في العام 1975 استدعى محمد الصدر أحد أئمة الشيعة الأكثر وقاراً، وهو يعتز على أنه من السلالة النبوية المباشرة. وأمره بأن يتوقّف عن وصف حزب البعث بالحزب العلماني، وأن يصدر قراراً يعترف فيه بازدرائه لهذا الموضوع! اغتاظ الإمام واستغرب تعرّض صدام لطلب هذا الأمر منه شخصياً، ورفض الأمر قطعاً. تناول صدام قداحة وأشعل النار في ذقن الإمام. ثم قام الأخ غير الشقيق برزان التكريتي وقد حضر المداولة وأخرج مسماراً حديدياً كبيراً من جيبه ـ وهو يحمل دائماً مثل هذه الأشياء الحادة المستخدمة كأدوات تعذيب بشكل خاص ـ وفقأ بهما عيني الرجل البائس ثم قتله بإدخال المسمار في مخ الرجل التعيس.

سبعون شخصاً من عائلة الصدر ومنهم أخت الإمام بنت

الهدى قتلوا بعد عدة أيام. استعاد ابن الإمام، مقتدى، مركز والده على رأس الشيعة العراقية. يبقى محمد الصدر في عيني شعبنا شهيداً، مع تصوّر إعادة تسمية حي الشيعة في بغداد المسمّى سابقاً مدينة صدام باسم مدينة الصدر.

بشكل عام، أقام صدّام تمييزاً عنصرياً ضد الشيعة. حرمهم من ممارسة شعائرهم الخاصّة. عمد إلى ذبح ثلاثمئة حاج تجمعوا للاحتفال بعيد الشيعة الكبير الذي يحتفى فيه بمعركة الحسين، رمز الصراع بين الخير والشر بقيادة أحفاد النبي محمد في كربلاء. يضاف إلى ذلك قضية تجسس مع روسيا أعدت بجميع فصولها ضد عائلة الحكيم الشيعية، أوقف على أثرها نحو ثمانين عضواً من تلك العائلة وعذّبوا، ولم تراع حرمة النساء: قُطِعَت أثداؤهن واغتُصِبْنَ أمام أزواجهن وأخوتهن...

جرى التمييز في جميع المجالات. في المدن خُطط لحرمان الشيعة من الكهرباء والغاز. حُرموا من دخول الكليات العسكرية ومدارس القوى الجوية، والوزارات، وكذلك حرموا من استلام مراكز قيادية. مما دفعهم إلى التحوّل للأعمال التجارية. هنا أيضاً عمد إلى تحويل التكريتيين للاستفادة من العقود الأكثر ربحاً ليجد الشيعة أنفسهم وقد غُلَّت أيديهم.

عمد عدنان خير الله طلفاح خلال الحرب مع إيران، وهو وزير دفاع، لإرسال النخبة منهم إلى المناطق الأكثر خطراً على الجبهة.

المدافن الحديثة المكتشفة حديثاً في ضواحي مدينتي البائسة الحلّة، تُبينّ أنهم استطاعوا جمع خمسة عشر ألف جثة، معظمهم من الشيعة المقتولين عقب انتفاضة 1991، وتشهد هذه المقابر على القمع والعنف الممارسين على تلك الجماعة.

لم يُبدِ صدام، رغم احتجاجاتهم، أيَّ احترام للدين أو للممارسات الدينية مهما بلغ شأنها. في أعماق نفسه طاغية كبير، فهو لا يتمنى لشعبه أن يوقّر إلهاً غيره! لهذا جعل نفسه مذنباً بارتكاب أفدح الجرائم التي يمكن ارتكابها ضد الإسلام: فقد طلب من الخطّاط هاشم الخليط أن يعيد نسخ القرآن بدمه المهيب عِوَضاً عن الحبر. إنْ رَفَضَ هاشم ارتكاب هذا العمل المدنّس سيُقتل. قدّم إليه صدّام دمه، وعمد إلى خلطه بمواد مضادة للتجلّط، وأقام حفلة كبيرة عند انتهاء هذا العمل الملحد ـ لا أحد يعلم أين انتهت تلك النسخة. هذا الرجل يزعم احترامه للدين ويقول إنه مسلم!

* * *

زمرة ثانية يجب اجتثاثها: الأكراد. يؤكّد «علي الكيماوي» أنّه لم يقتل منهم «إلا» مئة وعشرة آلاف شخص بغاز «الأنفال» في موطن الكُرد. في الواقع كانت مذبحة حقيقية باشر بها صدام في مناطق تجمّع الأكراد. قتل الرجال، وإذا تُرِكَ الأولاد والنساء يُرزقون فليقضوا حياتهم شبه أموات من العطش في الصحراء.

عندما وجّه الزعيم الكردي جلال الطالباني رسالة خطية

إلى صدّام، يحتج فيها بشدة على وحشية حزب البعث المرتكبة شمال العراق، حاول أن يتوصل إلى اتفاق بين العراقيين والأكراد. لكنه وجد في مواجهته «علياً الكيماوي».

رويداً رويداً، امتد التمييز العنصري ليشمل كل من يمكن وصفه بأنه ليس «عراقياً صحيحاً». وهكذا فإن كثيراً من الشيعة ذوي الأصل الإيراني تم اعتبارهم «إيرانيين» ورحّلوا إلى «بلدهم». بالنسبة للرجال المتزوجين من غير العراقيات وضعت جائزة للطلاق، تكون أكبر قيمة بالنسبة للعسكريين. هذا ما يبهج خير الله طلفاح خال صدام الذي صرح بكل طيبة خاطر: «ثلاثةٌ كان على الله ألّا يخلقهم: الفرس واليهود والذباب».

خلال الحرب ضد إيران قدّمت المخابرات مبالغ وصلت إلى خمسة وثلاثين ألف دولار لقاء المعلومات المتعلقة بالعراقيين الذين يحاولون الهرب إلى البلدان المجاورة. نُقِلَت هذه الأسرار مباشرة إلى قوات الأمن الخاصة في القصر الرئاسي.

لم تنجُ الفئات الأخرى من الاضطهاد، فقد سبق ونوهت بالحقد الذي يكنه صدام لليهود، نعم السكوت ضرورياً، ولم يكونوا بمنأى عن إجراءات القمع.

غير أنه بالرغم من جميع الجهود، لم ينجح صدّام أبداً في إيجاد هوة حقيقية بين المجتمعات، أو إثارة المنافسات العرقيّة.

11

لص يخوض الحرب

طريقة أخرى برهنت على نجاعتها ضد الانشقاقات الداخلية: ابتكار عدو مشترك تتراص الصفوف ضده. إنها تتعلّق بوسيلة لا تخيب لاعتمادها على التزمت الوطني (شوفينية) الشعوب. اعتمدها صدّام عندما أعلن نزاعه مع إيران، وجدّد العملية بعد عشر سنوات مع الكويت.

في خطابٍ ألقاه يوم 17 أيلول عام 1980، ألغى صدام اتفاق الجزائر الجاري في العام 1975، حول تقسيم شط العرب النهر الذي يبلغ طوله مئتي كيلومتر مشكلاً (مقرن) نقطة التقاء نهري دجلة والفرات الذي يشير عند نهاية مجراه، إلى الحدود مع إيران. أعلن صدام فجأة السيادة العراقية على جميع الأراضي في تلك المنطقة. هذا يعني إعلان حرب على إيران. هذه الأفكار أرعبتني، كنت أفكر بجميع الشباب الذين أعرفهم يذهبون لتأدية واجب القتال. أما صدام فقد ذهب بكل هدوء، ومعه قادته العسكريون الكبار، إلى قصر الثرثار. في الحقيقة اعتمد على معلومات مضللة: قيل له بأنه إذا قام بمهاجمة إيران فإن نظام الخميني سينهار خلال أسبوع.

عند بداية الحرب بتاريخ 22 أيلول 1980، اليوم الذي شهد بداية هجماتنا، تساءلت بجدٍّ إن كنا نتبع آثار زعيم باسل يهتمُّ بمصلحة العراق، أو آثار أحمق مسّه جنون العظمة وسيطر عليه شعور يرثى له...

تلقينا جميعاً الأمر بارتداء البزّة العسكرية من الآن فصاعداً لنُظهِر علانية إن بلادنا في حالة حرب. ولكن بينما كانت تسفك دماء الشبان فداءً للوطن، كان صدام يقيم بأمان في ملجئه السري تحت شعار الاجتماعات الاستراتيجية. تحول الطابق تحت الأرضي في القصر الرئاسي، في الواقع، إلى مكاتب للقوات المسلحة.

أدى نشوب القتال إلى توافد الوسطاء المسلمين إلى بغداد، لبذل الجهود لوضع حد لتلك الحرب بين أبناء الدين الواحد. جاءت أولاً لجنة وساطة المؤتمر الإسلامي برئاسة أمينه العام حبيب الشطّي، والرئيس الباكستاني ضياء الحق، الذي لم يخفِ انزعاجه مما توحي به ضرورة تلك المهمة. كما أوحى إليّ سُراً معتمداً على عدم تكرار الأمر مجدّداً لصدام: «أنا لا أتصوّر كيف يمكن لمسلمين قتل مسلمين آخرين» نقلت بأمانة تلك الرسالة إلى سكرتير الرئيس عبد حمود، وإلى حارسه الشخصي صباح ميرزا، معتمداً عليهما في نقل تلك الملاحظة التي لم تحظ بالاحترام.

كان زائرنا التالي سكرتير الأمم المتحدة خافيير بيريز دي كويّلار. على ذمة التقارير السريّة التي تؤكّد أن بيريز دي كويّلار معجب بالهدايا القيّمة (وربما كان مثلي الجنس) رأى

صدّام أن من واجبه أن يراوغ. عند وصول المسؤول الأوّل في الأمم المتحدة إلى بغداد أنزله في قصر الجادرية، وهو بناء فخم من ثلاثة طوابق بني في بداية الأربعينيات على ضفة دجلة. كان صدّام قد استولى على هذا المنزل من مالكيه الشرعيين. عائلة بغدادية مسنة، منذ عدة سنوات سابقة. جدّده بعد ذلك بسعر من ذهب لملاقاة خليلاته. كما أنه جَهَّز فيه مسبحاً رائعاً محاطاً بـ«كهوف الغرام» ـ تسمية تقدم التفسير، على ماأعتقد.

كُلِّفت أن أحمل إلى خافيير بيريز دي كويّلار، إضافة للهدايا المألوفة وعدد من ساعات (الرولكس)، نخلة من الذهب الخالص بعلو مترٍ وعشرين سم تحمل «بَلَحاتها»، والتي هي لآلئ ضخمة باروكية من الخليج الفارسي. مهمة دقيقة أديتها بسلام، كان علي أن أستخدم جميع إمكانياتي الدبلوماسية وخبرتي حتى لا نُتهم بمحاولة رشوى في وضح النهار. إضافة إلى أن وزن تلك الهدية كان كبيراً... هذه الهدايا لا تقدم إلى أبناء بلده! ولكن ليس لدي الخيار.

خلال حياتي لعبث كثير من المصادفات دوراً لصالحي. في الواقع، خلال إقامتي في باريس، اتبعت حلقة دراسية في المدرسة الوطنية ENA برفقة صديقي رامون وهو ابن عم خافيير بيريز دي كويّلار، بالسؤال عن أخبار الصديق، أستطعت الدخول في الموضوع وقَبِل محدثي الهدية. أوف! لم يفهم صدام أنني كدت أفشل في مهمتي.

هذا لا يعني بالطبع أن بيريز دي كويّلار انساق للمساومة. فعندما لاحظ أن الأمين العام أصمّ أذنيه عن

محاولات الرشوة. قرّر صدّام أن يتبنى سيرورة جذرية تعمد إلى التقليل من اعتبار خصمه. وعمد إلى إرسال تقرير مزيّف إلى الأمم المتحدة يفيد عن وجود مخزون هام من السجاد الإيراني عند التفتيش السري لطائرة بيريز دي كويّلار. كانت هذه حيلة فظّة قليلاً لم يصدقها أحد.

التقيت برامون بيريز دي كويّلار في لندن العام 1995، ولما رويت له مناورتي مع صدام، لم يصدق أذنيه بما سمع.

خلال تلك الفترة تلقى صدام أيضاً زيارة الأمير طلال عبد العزيز آل سعود شقيق ملك السعودية (ووالد الأمير الوليد بن طلال المشهور باستثماراته العقارية في أوروبا). كان الأمير طلال موجوداً بالمصادفة في عمّان حيث كان يحضر غالباً لرؤية صديقه الكبير الملك حسين، وقرّر الحضور إلى بغداد. نظراً لعدم ضماننا عامل الأمان في حال سفره جوّاً، ذهبت لملاقاته في العاصمة الأردنية، للأسف لم تكن الطرقات العريضة التي تربط بغداد بالأردن قد وجدت في حينه، وهكذا قضينا ست عشرة أو سبع عشرة ساعة على طرقات سيّئة، وفي سيّارات لا تتمتع بأسباب الرفاهية.

خلال تلك المسافة سأل الأمير بلطف سائق السيارة العراقي إن كان يؤيّد النزاع الجاري. لم يجرؤ الرجل المسكين على الردّ، لكنني شجّعته على الإجابة دون خوف. انتهى إلى التصريح بلباقة كبيرة أنّ من واجبنا حماية بلدنا. وهو دليل على مدى حملة التشويه ونجاحها الكبير. هذا الرجل البسيط شعر بحقّ أن العراق في خطر.

في الساعة الثالثة صباحاً وصلنا أخيراً إلى قصر دار

السلام. كان الأمير قد سافر دون أمتعة فعمدت إلى تنظيف دشداشته (الثوب العربي التقليدي). ولما كان منزعجاً وأحس في نفسه بالتعب، أرسلنا على الفور لاحضار طبيب. فجاء اثنان ودقّقا بحرص شديد عن صحة ضيفنا، وتبينّ عدم وجود ما يقلق. هو تعب ناشئ عن الرحلة التي أجريناها. بعد انتهاء المعاينة شربنا الشاي مع الطبيبين، وطرح عليهما الأمير السؤال نفسه الموجّه للسائق. فكان جوابهما أكثر وضوحاً «أرادوا الحرب؛ ونحن ننتظرهم بحزم وثبات».

في صباح اليوم التالي حضر الشيخ أحمد القعيدي سفير المملكة العربية السعودية في بغداد مع عدة سفراء آخرين، وانضموا إلينا على مائدة الفطور. كان صدام قد ذهب إلى جبهة القتال ـ لأوّل مرّة، شخصياً، وغاب عن الحضور ـ أبدى الأمير طلال رغبته باللحاق بالرئيس ليلتقي به في الجبهة. استدعيت صباح ميرزا الذي استشار صدام، فرفض بإصرار مضيفاً أنه سيعود إلى بغداد خلال اليوم نفسه ليلتقي بضيفه الشهير.

بعكس سابقيه حضر الأمير طلال ليظهر دعمه لصدام. بعد أن أنهى مهمته طلب طائرة خاصة لتوصله إلى عمّان ـ هو دون شك لم يتجرّأ مجدداً على قطع المسافة بالسيارة. رافقته مع هبوط الليل إلى المطار العسكري حيث كانت إحدى طائرات صدام بانتظاره. فجأة أنبأني أحد الحرّاس أن سيارتي مرسيدس بيضاوين غير محدّدتين تتبعاننا. ناديت الحرس سريعاً فأعلموني أن هاتين العربتين تعودان إلى أميني السرّ الخاصين ببرزان التكريتي الأخ غير الشقيق

لصدّام، وقد طلب منهما المعلم نقل رسالة سريّة للأمير عند وصولنا إلى المطار. تظاهرت بالابتعاد بينما حضر الرجلان يحييان ضيفنا. لكنني كنت أستمع فهذا واجبي. سلّماه بطاقة زيارة مرافقة «بتقدير السيد برزان»، وأضافا بأنهما سيكونان تحت تصرفه إن احتاج إليهما في العراق. كان جليّاً أن برزان يرجو القيام ببعض المشاريع مع الأمير طلال.

طوال مدة النزاع، نعمنا بزيارات منتظمة للملك حسين عاهل الأردن إلى العراق وإلى الجبهة الإيرانية. أذكر أنه بعكس صدّام كان العاهل يتنقل بكل بساطة لا يرافقه إلا حارس واحد. حدث مرة أنّه حضر وبرفقته ولي العهد، وهو في تلك الفترة أخوه الأمير حسن لقضاء يوم واحد، غير أن صدّاماً رجاهما أن يمدّدا الإقامة وأنزلهما في قصر دار السلام، وأمّن لهما ضرورات «لوازم العناية بالجسم» وملبوسات جديدة ضرورية لإقامة غير متوقّعة. دُهش الأمير حسن عندما رفض الحلّاق الموضوع تحت تصرفهما إكرامية ثلاثمئة دولار قُدِّمت له. سأله بالطبع عن أسبابه الموجبة. هل هناك تعليمات لمستخدمي القصر تقضي برفض الهبات النقدية؟ «مطلقاً، أجاب الرجل، إنّما في العراق يحظى جميع الناس برواتب سخيّة فلا نحتاج إذن إلى إكرامية».

كان برزان يحرص دائماً على الجلوس قرب مدعوي أخيه غير الشقيق، ويهتمُ بإعطاء صورة مرفّهة. أرسل مرّة إلى المدعوين ثلاث سمكات مسقوفة، وهذه السمكات مرغوبة جدّاً في العراق. عندما علم صدام بتلك الهدية ابتسم، والتفت نحو صباح ميرزا معلقاً: «برزان يهوى أكل السمك». إنّه يلمّح

لفترة ماضية لا تجد فيها تلك المآكل الثمينة طريقاً إلى المائدة العائلية في طفولتهم.

* * *

توّجت الأسابيع الأولى بالنجاح. حققنا انتصاراً حقيقياً، في حرب خاطفة مما جعل صداماً طيب المعشر. عندما علم أن الجيش استولى في الليلة السابقة على مدينتين حدوديتين قريباً من الكوت، قرر الذهاب لزيارة الموقع المذكور الموجود على مقربة من معسكر الجنود. عند وصولنا أمر صدام بجمع العازبين في المعسكر، وأراد منحهم بعض المال من أجل قرانهم مستقبلاً. جمعت خمسة وعشرين رجلاً، واقتدتهم إلى الرئيس فسألهم:

- هل أنتم متزوجون؟

- كلا يا سيادة الرئيس.

- هل لكم بنات عمومة؟

- نعم.

إنّه يفكر دون شكٍّ بأن جميع مواطنيه سيتزوّجون بنات عمومتهم على غرار ما يمارس في داخل عائلته. طلب عندئذ من حارسه صباح ميرزا تسجيل أسمائهم، ومنح كل واحد منهم عشرة آلاف دينار (ما يعادل ثلاثين ألف دولار). هتف آنذاك الأخير:

- لكن يا سيادة الرئيس نحن أيضاً لدينا شاب عازب بيننا.

- من هو؟

أشار الجميع إلي بإصبعهم.

- أيّها الأبله! هتف الرئيس لما لا تتزوّج؟ ألا تعلم مدى حرارة امرأة في السرير؟

- يا صاحب السيادة، وجدت جميع الرجال المتزوّجين ممن أعرفهم يشكون.

ابتسم صدام مجدداً.

- أليس لك ابنة عم؟

- نعم، ولكني خائف.

- ما من رجلٍ لا يخاف النساء! بمَ تفكر؟

- فيلسوف إغريقي كبير قال إن النساء أكثر خطراً من مزيج من نار وماء.

- في الواقع بإمكانهن تدميرك؛ أيضاً بإمكانهن انتشالك من الهلاك.

ثم ركب سيارته.

* * *

حتى إن كان صدام يؤمن بتقمصه عن صلاح الدين وتطابقه مع نابوليون الأوّل، فإنّه لا يملك شيئاً من مزايا القائد العسكري. خلال الأزمة، هو أبعد من أن يُظهرَ صفات غير متوقَّعة. ففي حزيران من العام 1981 علمنا أن المفاعل النووي تموز في الطويسة قد قصف وقد ظننا أولاً بأنها ضربة إيرانية؛ بدا صدام كمصاب بالكزاز، غير قادر على تفكير متماسك. بينما كنا نحاول تهدئته أعدّ أحد مساعديه خطاباً ناريّاً قرأه الرئيس عبر الراديو وعلى شاشة

التلفزيون. عدّله في اللحظة الأخيرة عندما علمنا أن هذا القصف قامت به في الواقع الطيارات الإسرائيلية المقاتلة، غير أن لهجة صدّام لم تتغيّر.

في أيار 1982، استعاد الجيش الإيراني مدينة خورامشهر - التي يسميها العراقيون المحمّرة - أذكر بوضوح البغض الذي أثير في القصر وبين المسؤولين. في أحد الأيام من نهاية شهر حزيران حملت طائرة هليكوبتر إلى بغداد قائدين عسكريين من جنوب البلاد، هما اللواءان جواد شيت وصلاح القاضي. فقد أراد الرئيس مقابلتهما. ومثل باقي الأشخاص في القصر تلقيت الأمر بالبقاء في مكتبي طوال مدة المقابلة. كان علينا أن نكتشف عقب ذلك وبرعب أن الرجلين قد أعدما نتيجة المحادثة. ازدادت مخاوفنا وارتباكنا عندما اعتزل صدام لخمسة أيام في الموصل؛ وتوقّعنا جميعاً الأمر الأسوأ عند عودته.

توجت تلك الفترة السوداء، بذهابنا إلى الجبهة، صدام، وسكرتيره الشخصي عبد حمود، وأرشد ياسين التكريتي، وحسين كامل وأنا، كدنا نقع في نفس الورطة التي سبق وحدثت لأحد أشباهه. قادنا صدام بطريق الخطأ إلى ما وراء الحدود الإيرانية، كنا خائفين من إغاظته إن أبدينا ملاحظة، حتى لو كنا نلمح من بعد الجيش الإيراني. أخيراً أدرك الرئيس غلطته وجن جنونه، خاصة وأن أجهزة الراديو توقفت عن العمل، فعمد إلى توجيه حراسه بقتله قبل أن يقع أسيراً في يد الأعداء، لأنه لا يملك الشجاعة الكافية لتوجيه رصاصة قاتلة إلى رأسه.

ذعر بدون سبب، وبذل نائب رئيس مجلس الوزراء طارق عزيز، وألويته والوزراء الآخرون جهداً فائقاً لتهدئته. كانت خير حجّة لهم: إنه سابق عصره، وأنه يلزمهم خمسون عاماً لفهمه.

في شهر شباط من العام 1986 ترك صدام قصره في البصرة فالمعارك ازدادت عنفاً. كسب الإيرانيون المعارك باستيلائهم على شبه جزيرة الفاو في التاسع من الشهر. إنّه تقدّمٌ أخرسَ أصوات الجميع. وقُطعت الطريق بين البصرة وبغداد. ألغى صدام من غيظه عدة اجتماعات مع دبلوماسيين عرب وغربيين.

غدا في كل يوم أكثر اضطراباً وقلقاً لتعرضه لخيانة أنسبائه. طلب من اللواء ماهر عبد الرشيد المكلّف بحراسة القصر، يد ابنته ذات السبعة عشر ربيعاً إلى ابنه قصيٍ. وهو التزام عائلي زاد من واجباته المهنية.

كما نرى، سادت الثقة ... في ذلك الوقت لم يكن صدام يثق بأحد: أذكر أنني رأيته خلال إحدى معارك النزاع الكبرى ينتحي بعدنان خير الله طلفاح جانباً، ويوشوش له بتعليماته في أذنه، حتّى لا يمكن سماعها من أي إنسان.

في نيسان 1988 استعادت قواتنا أخيراً شبه جزيرة الفاو. وبعد ثلاثة أشهر تعرّضت إيران لهزائم عديدة، وخاصة في البصرة ورضيت بوقفٍ لإطلاق النار. أذكر تعبير صدام السار عندما سمع آية الله الخميني يصرح أمام كاميرات التلفاز: «عندما رضيت بوقفٍ لإطلاق النار كنت في الواقع كمن يتجرّع سمّاً».

جوٌّ من البهجة غزا بغداد والمدن العراقية الأخرى. جرى تنظيم الاحتفالات في القصر، وتلقينا كلّنا الهدايا كما تلقت المؤسّسات والنقابات الموجّهة من حزب البعث. أُعلِن الثامن من آب 1988 يوم النصر في العراق. أذكر أنني سمعت صداماً يقول: «هذه الحرب تمثّل عبئاً ثقيلاً على العراقيين وكذلك على الإيرانيين، وأنا أشعر بالارتياح لانتهائها». إنه تصريح يثير الدهشة يصدر عن الشخص الذي أعلن الحرب لأسباب شخصية.

لم أتأخر في الاعتقاد بأن رئيسنا مقتنع جديّاً أنه كسب الحرب ضد إيران. في تلك الفترة كفّ عن النظر نهائياً إلى الحقائق، وبدأ يتقمص شخصيات الأبطال العرب الأسطوريين من الزمن الغابر. عندما استعرض فيالقنا الظافرة بقي مرفوع الرأس على طريقة موسوليني، وكأنه ربٌّ يأنف من خفض عينيه ليرى ركام الأموات البسطاء. كنت شاهداً على جُبنه في الجبهة وخَجِلت من وضاعته.

* * *

كنا نجهل من هو صدام، لحسن الحظ، لكن السلام لم يَدُم طويلاً، فبعد إيران، عزم صدّام على مهاجمة الكويت. أحسّ سريعاً في الواقع بما حجبته الحرب من آلام شعبه، ولابدّ من حصار يخرس الاحتجاجات وهذا ما حرّضه على التفكير بشن الحرب.

التعليل الثاني لهذا النزاع الجديد ضد الكويت يرجع إلى القرصنة والنهب على مثال زعماء المافيا. اقترض العراق ثمانية عشر مليار دولار من الكويت لمساعدته في مجهود

الحرب ضد إيران، وقد رضي إضافة إلى ذلك بمبدأ تقديم إعانات مالية إضافية شريطة البقاء خفيّة، وأن يعطى مهلة لتسديد المطلوب، طلب صدام مساعدة فورية واغتاظ كثيراً لرؤية طلبه يرفض. إنّه يعلم أن مضايقات كثيرة ستحصل عندما تطالَب المصارف بالتسديد. فكّر عندئذ أن الوسيلة الأكثر بساطة لتسديد الدين تقوم على إزالة الدائن من الوجود، هذه الوصية المفضلة لديه ويبدو أنه استعارها من ملكة «أليس في بلاد العجائب» «اقطع رأسه وستُحلّ المشكلة».

انتقل من القول إلى الفعل بسرعة، كشف صدام عن نزاع حدودي قديم بين العراق والكويت، وأن هذا النزاع لم يعالج. حيث أنه بحث هذا الموضوع مع ولي عهد الكويت عندما كان نائباً للرئيس البَكر وأن النزاع تمت تسويته بموجب المعاهدة الجارية للعام 1963. صدام لا يحب الكويتيين - ولكن من يحبه هو؟ - رفض القبول بالمعاهدة المذكورة غاضباً، وأضاف أن اعتبار المشكلة معالجة من العام 1963 يعود إلى اعتبارهم أن الحكومة العراقية الحالية لا تمثل الشعب العراقي قانونياً.

في العام 1985 حضر الشيخ سعد العبدالله الصباح، ولي عهد الكويت في زيارة إلى العراق، استقبله عزت إبراهيم الدوري ورافقه إلى مكتب صدام. في النهاية اكتفيا بإجراء جولة في القصر، فقد أعلمهم الرئيس بأنه ليس على ما يرام ولا يستطيع استقبال ضيفه. لم يلتقِ به إلا في اليوم التالي. وكما العادة في حال مماثلة تمّ تبادل هدايا ثمينة. أظهر صدام، على العموم، ومرّة أخرى، إنّه أكثر سخاءً من الملوك العرب وملأ طائرات بكاملها بالهدايا. تصرف كأن العراق

ملكه. ألا يؤكّد هذا القول المأثور: «الملك يعطي ما لايملك؟». قدّم الشيخ بدوره حليّاً لزوجة وبنات الرئيس، وأخيراً ما يُعَدُّ في النهاية أكثر أهمية بما لا يقاس في نظر صدام، رشاش ستارلنغ من الذهب الخالص. ازدرى الرئيس بالحلي لكنه أُعجِبَ سريعاً بالسلاح. «هؤلاء الكلاب لا يؤمنون إلا بالذهب». علّق على ذلك لاحقاً. لم يتغير طبعه على الإطلاق.

اتخذ قراره بقيادة بلده إلى حرب ضد الكويت، لم يدخر صدام وسعاً في تحضير الجو (للكشف) عن فضائح ملفقة ومن نسج الخيال، أبطالها أمراء ذلك البلد، وخاصة بوساطة أشرطة الفيديو المزورة، التي تصور هؤلاء الأمراء بصحبة عاهرات، وكانت أخبار الساعة في التلفزيون العراقي تشير إلى أن هذا الأمير من العائلة المالكة مثلي الجنس وأن أميراً آخر يتألم من الإيدز (السيدا).

في تلك الفترة كان سفير العراق في الكويت أحد أبناء عم عزت إبراهيم، رجلاً اشتهر بفساده. نقل إلى صدام تقارير تفيد بأن نائب رئيس مجلس الوزراء ووزير الشؤون الخارجية (هو حالياً رئيس وزراء) في الكويت يعمل على تأليب الكويتيين ضد صدام. ثارت ثائرته وأمر بمضاعفة وجود عناصر المخابرات في الكويت، التي أصبحت تشكل جيشاً صغيراً هناك. واستطاعت التغلغل حتى اخترقت حرس الأمراء آل الصباح، وقد ساهمت هذه العناصر بشكل حقيقي عندما غزت الجيوش العراقية الكويت. حتى أنهم أعدوا محاولة لاغتيال أمير الكويت ولكنها فشلت. في ذلك الوقت اتُهمت المخابرات الإيرانية بهذه المحاولة.

فكّر صدّام أيضاً أنه إذا احتل الكويت ووضع يده على مخزونها البترولي الهائل، يمكنه أن يقترح على الغرب بيع البرميل الواحد بستة أو سبعة دولارات. وبذلك يساعد سريعاً على مسامحته ونسيان ما جرى. شرح هذه النظرية لحسين كامل الذي نقلها بدوره لي.

كما نعلم لقد ضلَّ في مسعاه.

بدأ رجال القصر يشكُّون بأن شيئاً غير مألوف يجري هناك، عندما لاحظنا، منذ بداية شهر تموز 1990 أن طارق عزيز، نائب رئيس مجلس الوزراء ووزير الشؤون الخارجية، يلتقي بصدام يومياً. ماذا يمكن أن تخبئ هذه الحميمية المفاجئة؟ أيضاً الغياب المتواصل لحسين كامل رئيس الحرس الجمهوري ووزير الصناعة العسكرية، الذي قيل عنه إنه يقوم بمهمة في البصرة، زاد من شكوكنا. شعرت أن كارثة جديدة تلوح في الأفق.

في 15 تموز 1990 نشر العراق مذكّرة دبلوماسية موجّهة إلى الجامعة العربية تنتقد بعنفٍ الحكومة الكويتية، وتتهمها علانية بالتلاعب بالتعرفات النفطية. ازداد التوتر درجة أخرى.

ازدادت حركة رؤساء الدول في المنطقة من حملة رسائل التهدئة، نشاطاً. الرئيس المصري حسني مبارك والملك حسين عاهل الأردن والرئيس ياسر عرفات تدخلوا كلهم، رغم أن ما من أحدٍ منهم صرّح رسمياً. كنا نعلم جميعاً أن هذه الشخصيات تسعى لتهدئة التوتّرات بين العراق والكويت.

الأمير بندر بن سلطان، وهو حالياً سفير المملكة العربية السعودية في واشنطن، حضر بدوره إلى بغداد على متن طائرتين خاصّتين واحدة له وأخرى لحاشيته - قبل وقت قليل من غزو الكويت. سرتُ به إلى القصر... فشرح لصدام أن العالم بكامله قلق لرؤيته مهدّداً باستخدام أسلحة غير تقليدية ضد إسرائيل والغرب. رجاه صدام أن يقول لأبي فيصل، ويعني به الملك فهد، أنّه لا يأخذ الأمر على محمل الجدِّ. لكن لماذا تصاغ مثل هذه التهديدات؟ تساءل السفير.

استاء صدام من هذه الانتقادات. وخلال الأيام التالية ما فتئ يطلق التهديد والوعيد على «العائلات الملكية الفاسدة في الخليج العربي» الذين سيعرفون يوماً قيمة العراق الحقيقية.

من جهتها قامت رئيسة الوزراء الباكستانية بنازير بوتو بزيارة لياسر عرفات ترجوه أن يستخدم نفوذه لإقناع صدام بالعدول عن نزاعه الدموي، وسحب قوّاته من الكويت، لكن الزعيم الفلسطيني رفض، وكشف لها عن رسالة تلقّاها من صدّام يشرح له فيها أن كليهما يحلمان بدخول القدس جنباً إلى جنب ويمتطيان صهوتي خيل ناصعة البياض... كيف نأمل عقلنة كاتب تلك الرسالة؟

قضى صدام الأسبوع الأخير من شهر تموز 1990 في البصرة، بينما كنا نحن الآخرين بحالة استنفار في بغداد، داخل القصر الرئاسي. التحق بنا في أوّل آب 1990.

صباح اليوم التالي استيقظنا على صيحات ورنين الهاتف. علمنا مرتعبين أن قواتنا غزت الكويت. طوال مدة

العملية رفض صدام الرد على اتصالات القادة والمسؤولين العرب.

تم الغزو بسرية تامة: حتى وزير الدفاع نفسه ورئيس الحرس الحكومي علما بشن هجومه عن طريق الراديو! لمرة واحدة، ذلك لا يعني وجود أزمة ثقة بل يعني العمل على هواه.

في ذلك الهجوم وجب أن يحتفظ صدام بأسف حقيقي واحد: لم يفلح في اقتناص وأسر عائلة الصباح المُنقذة في آخر لحظة بطائرة هيلوكوبتر أمريكية نقلتهم إلى السعودية.

أثير غالباً الدور المشبوه الذي لعبته أبريل غلاسبي، سفيرة الولايات المتحدة في العراق، في الأيام التي سبقت شنّ الهجوم في حرب الخليج الأولى، حيث استنتج صدام من الحديث مع السفيرة بأن أميركا ستغمض عينيها إن قام بغزو الكويت، بل إنها ستدعمه في عمله. الأمر الذي يبدو متناقضاً عندما يصدر عن رجل أكد علناً للرئيس الأميركي بوش (الأب) بأنه لن يغزو الكويت، وأنه لن يدعم الإرهاب أبداً في الشرق الأوسط...

الواقع، أن السفيرة الأمريكية أُخذت على حين غرة. فقد كانت تتهيأ للمغادرة إلى بلادها في العطلة السنوية، وبينما كانت على وشك مغادرة مقرها في حيّ الجادريّة المترف لتصل إلى المطار استدعاها صدام إلى القصر. عُقِد الاجتماع في قاعة السفراء حيث يُستقبَل الضيوف الأكثر أهمية. ليس أمامها طبعاً أي وقت لتهيئة مداخلتها، أو لتتصل بحكومة بلادها. اقتصرت على إجابات مبهمة، وفسّر صدام كلامها على أنه موافقة ضمنية.

كان معظم الشعب العراقي معارضاً لغزو الكويت. فالعلاقات التي تربط بين الشعبين متينة. مع الانتباه: إن هذا لا يعني مطلقاً القبول بالنظرية المقترحة من صدّام، والتي تشير إلى أن الكويت تشكّل تاريخياً جزءاً من العراق. لماذا لا نؤكد إذن أن الألزاس تنتمي إلى ألمانيا؟ في الحالة هذه قلائل هم الأشخاص الذين يهضمون هذه الكذبة.

فكاهة شهيرة تصوّر جيداً هذه الروابط. قال كويتي لجاره:

- بلد أجنبي يغزونا لكنني لا أبالي: فصدّام حسين سيحضر لمساعدتنا.

- أيها الأحمق المسكين، أشار الآخر، إن صدام حسين هو الذي يغزونا.

هذا يعني مدى وجود العراقيين في الكويت قبل الغزو.

حتى المقرّبون من صدام لم يصدقوا أنه سينجح في مشروعه. عندما نصحه أحد المقربين بإلغاء قرار الحرب غضب الرئيس وأمره بمغادرة القاعة فوراً. لم يكن الرئيس بكامل قدرته العقلية في تلك الفترة. إلى جانب الحشيش الذي كان يدخنه في أيام شبابه القاهرية، غدا الآن يتعاطي الكوكايين (منذ دخوله الحكومة في العام 1968) والهيروين. من المعروف حالياً أنه كان تحت وطأة المخدّر عندما أمر بغزو الكويت.

* * *

لم يدهش أحد مثل صدام عندما انقلب العالم كله ضد

العراق. «ولكن أخيراً، ماذا يريدون؟ هتف. ماذا دهاهم؟ إنني أعرض عليهم النفط الأقل سعراً في العالم!». يجب القول إن حاشيته لم تجرؤ على إعلامه الحالة الحقيقية حول توجهات الرأي العام العالمي، مفضلين أن ينقلوا إليه تقارير خادعة، تاركين له المجال للافتراض أو التوهم بأن اجتياح الكويت سيُدعم بعد فترة استنكار شكلية. سفراؤه أنفسهم التزموا الصمت الحذر، والنتيجة: كان يعتقد حتى اللحظة الأخيرة، ومثل العادة، مستمعاً إلى أركان حربه يقولون له: إن رؤيته للأمور سابقة لعصرها وإن بقية القادة لا يستطيعون إدراكها.

في الواقع كنا نعرف مستقبلنا القاتم، لأن الحروب الحديثة لا تُكتَسَب بعدد الجنود ولكن بأسباب النجاح التقنية، ونحن نملك أقل بكثير من الغرب. لكن كيف السبيل إلى إفهام رجل يسأل:

ـ ما هذه التقنية التي تحدثونني عنها كلكم؟ إن راعياً عراقياً مجهزاً بعصاه يمكن أن يعلق أنف طائرة «فانتوم» بعكازه!

عندما نصحه أحد القادة بسحب قواته قبل فوات الأوان، حمل عليه صدام:

ـ أعتقد أنك قد سئمت القتال، يا رفيق، أما نحن فلا. غادِرْ هذه القاعة على الفور.

رفض اللواء بريك الحاج هِنتا استخدام الأسلحة الكيماوية ضد الكويت. فدعي إلى القصر مع عشرين لواء آخر بعد انسحاب القوات العراقية. أمام الجموع، كلها بصق صدام في وجه بريق ووصفه بالجبن. «كلا، أجاب اللواء،

الجبان رجل يسير ومعه مئتان وخمسون عسكرياً لزيارة مدرسة للأطفال». ملمحاً بذلك إلى زيارة حدثت خلال الحرب مع إيران. استشاط صدام غيظاً واستعار خنجر أحد الحراس لقتله.

قُصِف القصر الرئاسي خلال أوّل يوم من هجوم قوات التحالف؛ لحسن الحظ، كنا قد انثنينا إلى ملجأ في حي اليرموك. وفي يوم الثالث من آذار 1991، كانت القوات العراقية قد وقّعت استسلامها الرسمي.

استغلّ شيعة جنوب العراق هزيمة قوات صدّام فثاروا ضد الطاغية. لكن الدعم الأمريكي المؤمل لم يصل. عندها تمكّن صدام وولداه، قصيٌ على رأسهم، من سحق العصيان بالدم. تبعت هذه الثورة، في شهر حزيران، ثورة أخرى من عرب الاهوار الغاضبين من صدام، لأنه جفّف منطقتهم ليخلق منها نهراً ثالثاً سمي بكل بساطة «نهر صدام». وسُحقت بدورها بدون شفقة.

خلال ذلك الوقت، وبتاريخ 18 نيسان 1991 كُلفت الأونسكوم(*) بالتحقيق في البرنامج العراقي لأسلحة الدمار الشامل والصواريخ الباليستية.

بدا أنّ الطلاق بين العراق والغرب قد أُنجِزَ.

إنما بعد انتخاب بيل كلينتون في العام 1993، حاول الأخير مد اليد إلى العراق. وأرسل أحد أصدقائه بشكل خاص

(*) لجنة المراقبة والتحقُّق والتفقُّد في الأمم المتحدة.

للقاء صدام وسلّمه رسالة يقترح فيها فتح صفحة جديدة من العلاقات بين البلدين، معلناً أنّه منفتح على جميع إمكانات تحسين الأوضاع. إنّها بلا ريب رسالة سلام، ومحاولة لإشادة حوار. لكن صداماً لم يكن يرى إلّا شيئاً واحداً: لا يوجد في رسالة كلينتون أي ذكر لرفع العقوبات الاقتصادية. إن قبول التعهُّد بمداولات دبلوماسية في هذه الشروط يشكّل في نظره استسلاماً للولايات المتحدة. شرفه يمنعه عن قبول هذا اللغم المعاكس. ماذا تعني إذاً صورته زعيماً لا يهادن. مرة أخرى أيضاً وضع غروره الشخصي قبل مصلحة العراق، دون مبالاة بمصلحة العراقيين.

بدر منه التصرف نفسه عندما حاول الفاتيكان التوسّط، محاولاً إقناعه الاعتراف بحقوق دولة إسرائيل. كبديل يَعِدُ به الكرسي الرسولي لاستخدام نفوذه لرفع العقوبات ضد العراق، لمساعدة البلاد في حصولها على مكان لائق في الحلبة العالمية. «ما تطلبونه معاكس للشرف!» تعاظم مهدداً. إذا كان المُرسَل من الفاتيكان قد حصل على معلوماته قبل المجيء إليه، لقيل له إنه يتوجّه «إلى رجل مبادئ» يدافع عن شرفه حتى القبر. لكن هذه القسوة البدوية المفرطة كبّدت للأسف خسارة مليون طفل عراقي حرموا من الادوية، والعناية الصحية والماء الصالح للشرب بسبب الحظر المفروض على العراق.

باختصار اختلف الطاغية الدموي شيئاً فشيئاً مع أصحابه القدامى، ومنهم فرنسا وقد حافظ معها على علاقات جيدة تقريباً حتى بعد حرب الخليج. لكنها بلغت

نقطة اللارجوع في آذار 1998. فقد حضر وفد من الدبلوماسيين الفرنسيين يحمل إلى صدام رسالة من جاك شيراك. بدأت الزيارة بشكل مزعج، لأن رئيس الوفد أعلن أنه يرغب حضور مترجمة الإليزيه. بينما جرت العادة، لأسباب أمنية وسريّة أن تسمح الإجراءات البروتوكولية العراقية بحضور مترجمي صدام حسين فقط. في النهاية اقتنعت بغداد بأن يكون لكل وفد مترجمه.

غضب صدام وكلّف طارق عزيز باستقبال الفرنسيين؛ ولم يقابلهم بعد ذلك، إلا فيما بعد ولأقل فترة ممكنة. قرئت رسالة جاك شيراك من قِبل طارق عزيز لصدام على الهاتف. فلم يستسغ الأخير مضمونها الحازم.

عندما استقبل أخيراً الوفد الفرنسي بدا الرئيس بمزاج لا يطاق. من عادته أن يتأنّق على الطريقة الأوروبية تقريباً، لكنه حرص على الظهور بالزي التقليدي. أنعم على مدعويه بالجلوس بلهجة جافة: «تفضلوا» - دون توجيه السلام أو التهنئة بسلامة الوصول. لمرة واحدة لم يتمكن هذا الممثل البارع أن يخفي غيظه. أخيراً تناول الكلام: «أيّها السادة، أحرص على القول لكم إن رسالة الرئيس شيراك أغاظتني بشكل كبير وعملت على إغضابي. لم أكن أتوقّع أن يوجه لي كلام بمثل هذه اللهجة».

وجب أن يقول لنا بعد ذلك، إن هذه الرسالة ذكّرته بتوبيخ أستاذ لتلميذه أكثر منها رسالة بين رؤساء دول. رأى صدام خزياً شديداً، خاصّة وأنه يتباهى بتعاونه مع فرنسا على دول المنطقة، فقد اشترى منها كمية من الطائرات والمروحيات

والصواريخ الذاتية الاندفاع. «فتحتُ لهم أبواب الشرق الأوسط»، قالها بغضب متصوّراً أن الفضل يعود لتدخّله باعتماد كل من الأردن والبحرين والإمارات العربية المتحدة شراء معدات عسكرية فرنسية. لم يرضَ أن يعامل مثل حاكم أفريقي، وهو رئيس دولة هامة...

هكذا، على درجات، انتقل صدام من صف صديق للغرب، وسور ضد التهديد الإسلامي المتجسّد من قبل إيران الخميني وأتباعه، إلى عنصر من «محور الشر» الذي ندّد به الرئيس جورج. دبل يو. بوش.

لم يكن صدام القائد العربي الوحيد الذي لم يستنكر أحداث 11 أيلول 2001؟ فقد صرّح: «حصدت الولايات المتحدة الأشواك المزروعة من قادتها في العالم كله». لم يتأسف التلفزيون العراقي على (الدرس) الذي تلقته (أمريكا المتعجرفة)، ولكن لم يؤكد أحد على احتمال اشتراك الرئيس في التحضير لهذه الهجمات.

12

ملايين صدام

وفقاً للمجلة الأمريكية فوربس، يُعَدُّ صدام حسين قبل سقوطه من أكبر أغنياء العالم. كيف أمكن لفلّاح العوجة، الذي كان يركض حافي القدمين لعدم توافر الأحذية، أن يصل إلى هذه الثروة الضخمة؟

بدأ كل شيء مع البترول. المموّل الأرمني غولبنكيان حصل من السلاطين العثمانيين على حق التنقيب، ثم على رخصة للتحري عن البترول العراقي لصالح شركة بريتش بتروليوم وشركة رويال دوتش شل، اللتين تعملان على استثمار المكامن. لقاء اقتطاع 5% على كل برميل مصدّر، مما مكنه، رغم أن البترول أرخص سعراً في تلك الأيام، من الحصول على أرباح ضخمة. مقابل الشكر على الثروة التي حصل عليها، عمل على بناء بعض الملاعب والمدارس.

عندما وصل صدام إلى السلطة، صرّح أن حزب البعث سيبقى على رأس العراِق لثلاثة قرون. للاحتفاظ بسلطته لهذه المرحلة الطويلة يلزمه موارد كبيرة يحتفظ بها خارج العراق، في حال تغيّر الأوضاع. في الواقع لا يتعلق الوضع بتجديد

أخطاء الماضي وترك حزب البعث عرضة للانقلاب مرة أخرى بسبب عدم وجود الدعم المالي كما حدث في العام 1963.

قرّر تأميم حصة غولبنكيان 5%، حيث أصبحت تودع في حساب خاص وباسمه شخصياً. حُسِبَت في العام 1990 عند غزو الكويت حيث بلغت العائدات وحدها ثروة تقدر بـ 31 مليار دولار مع فائدتها.

بين أعوام 1968 و 1972 جرت عملية واسعة لوضع اليد على أموال المصارف العراقية العائدة للدولة. إضافة إلى ذلك مارس صدام ضغوطاً على الدول الأجنبية، للحصول على قروض، بضمانة أن العراق يستطيع تسديد المبالغ المقترضة مع فوائدها دون مشاكل، وخلال عدة سنوات من الموارد الطبيعية التي تملكها البلاد.

بعد أن هُيِءَ الشعب العراقي سيكولوجياً لهذا الإجراء، بفضل حملة الدعاية المنظّمة بشكل متقن، أمّم صدام في العام 1973 البترول العراقي. العلاقات الطيبة ملزمة، استثني من ذلك الحصة الفرنسية من الاستثمار شمال البلاد.

كان صدام يعلم أن تأميم النفط لابد أن يُحدث قفزة هائلة إلى الأمام في مجال الدخل العام. غير أن سؤالاً كبيراً أثار الخواطر حتى في حزب البعث. لمن تعود هذه الأرباح؟

«حانت الساعة للحصول مجدّداً على حقوقكم» أكّد صدام... أطلق حملة حماسية بين الجماهير، بذريعة دعم جهود التأميم، تدعو العراقيين إلى تقديم إعانات من الذهب... إلخ. وكذلك مبالغ مالية كبيرة. حصيلة تلك الحملة، كما يقال،

حُفِظَت كليّاً في عنابر تعود إلى عائلته، وحوّلت بسرعة إلى الحسابات الشخصية لأنسبائه خارج البلاد، وكذلك إلى بعض الأجانب الذين يتمتعون بثقته.

منذ العام 1972، ظهرت شبكة من الشركات المالية، العمل فيها مدى الحياة، وكل ضعف إرادة يؤدي إلى عدم الأمانة أو إلى الاستقالة عقوبته الموت. بعضهم حاول تحويل بعض الأموال لمصلحتهم ولم ينقذ جلدهم سوى إعادتها على آخر فلس... حتى المستشارون الماليون الشرفاء لم يكونوا بمنأى عن وقوعهم في المشاكل، إعدام دون محاكمة، أو إقامة طويلة في السجن: إنهم يعرفون جيداً ومنذ زمن طويل الوضع المالي لصدام ولأفراد عائلته.

لم تتوقَّف المشاريع المالية على حساب كتلة الشعب العراقي على صدام فقط، بالتأكيد هناك الحاشية المباشرة للطاغية ـ العائلة والعشيرة ـ اغتنت سريعاً. تلقى كل منها عشرة ملايين دولار «لتوظيفها في الخارج». مما سمح لهم بشراء منازل في سويسرا وفرنسا وانكلترا: تقريباً جميع مقرّات ساوث أودلي ستريت في لندن تعود إلى عراقيين. وفوروم أوتيل بقي طويلاً من العقارات الثابتة لبَرَزان التكريتي، إلى أن باعه مجدداً في نهاية الثمانينيات.

نظرياً، يجب أن تعود أرباح هذه الاستثمارات بعد فترة محدّدة إلى الشعب العراقي، أعلن صدّام بنفسه أنه سيضاعفها بعد تأميم الآبار البترولية.

في النهاية نجح في اقتطاع 10% من العائدات البترولية

للبلاد: 5% حصة غولبنكيان و 5% «حصة الحزب». هل لكم أن تتصوّروا هذه المبالغ؟

كان يأخذ أيضاً نصيبه من مجموعة العقود، وخاصة العسكرية منها. فهكذا اكتشف أن عقداً (يتعلّق بعدة مئات من ملايين الدولارات) أجري بين شركة فيلبينية والإدارة العسكرية العراقية بهدف إنشاء مبان عراقية لأهداف عسكرية على طول الحدود مع إيران يخفي في الواقع تفاهماً شخصياً بين صدام والديكتاتور فرديناند ماركوس، لتقاسم الأرباح والتعويضات التي حصلت عليها الشركة الفيلبينية بسبب عدم الحاجة إلى إنجاز العمل بعد وقف إطلاق النار بين العراق وإيران في العام 1988.

لم يتردد صدام في اللجوء إلى طرق أخرى لجمع الثروات. فقبل رحيله من إيران تفاوض الشاه مع صدام سرّاً ليطلب منه أن يحتفظ له بمكان آمن لملياري دولار، تكون في مأمن من قبضة الخميني، وهو يستطيع الوصول إليها بما يملكه من إمكانات في أوروبا والولايات المتحدة. رضي صدام و.... زيادة في الأمان وضع المال باسمه الشخصي. هكذا لن يتمكن أحدٌ من لمسه. أترك لكم تصوّر بقية الأحداث الجارية. لنقل فقط إن هذا المال اختفى من أجل جميع الناس.

* * *

في العام 1988 بدا لي أن صدّاماً وأولاده قد اجتازوا مرحلة جديدة من الفساد. في المساء كنا نصادف رجالاً غرباء في ممرّات القصر؛ ضباطاً برتب عالية في المخابرات

كلّهم من أولاد العمومة لصدام، يرافقونه. عرفت منهم عدداً من المجرمين ذائعي الصيت، مما لا يشكل استثناءً في الحاشية الرئاسية... حدث أن طُلب مني مرافقتهم حتى القاعات السرية في القصر، حيث يتداولون مع صدّام، وأولاده وضباطه الرئيسيين. سمعت أيضاً أن عملاء مخابرات تقنّعوا بالزي البدوي يقدّمون تقاريرهم له أو لأبنائه.

شيئاً فشيئاً، أدركت ما يجري داخل القصر الرئاسي: مخبر مخبوء في القبو يعالج القنب الهندي من الصنف الأول، ليستخلص منه الكوكايين والهيروين بنقاوة نادرة. مزارع مموّهة ومخفية قرب الحدود الإيرانية والتركية والأردنية تزرع الأفيون والماريجوانا، بينما يقوم الفنيون الكولومبيون أو البيرويون ـ وبشكل رسمي هم أطباء كوبيون مفترضون جاءوا بصفة تعاون طبي، مكلفون بتشكيل فريق طبي محلي.

كان يعهد بتجهيز المعبر على الحدود للشرطة السرية ورجالها، الذين يرتدون الثياب البدوية: غطاء كامل لإدخال المنتجات إلى المملكة العربية السعودية والكويت والإمارات العربية المتحدة. في جميع الأحوال، الفضوليون يزالون من الوجود دون رحمة أو شفقة. في العام 1989 قتل أربعون ضابطاً من الجمارك العراقية يعودون في أصولهم إلى البصرة وهلكوا في كمين نصبه مهربو صدام بين المملكة العربية السعودية والكويت. أعجب صدام بالعمل، وهنّأ مثينية التكريتي رئيس عصابة التهريب بهذه العبارات: «هذا دليل على مدى التنظيم».

تجارة المخدرات هذه جلبت الملايين التي كان يتم

تبييضها بوساطة شبكة من الشركات العائدة لعُدي وقصيّ. باختصار قسم من ثروة صدام وأنسبائه تأتي من تهريب المخدرات، ويُعد العمل ويشرف عليه صدام وولداه. إنه نوع من: «احتكار بغدادي».

هدف اللعبة، عدا الفائدة التي تستجرُّها العائلة الرئاسية: إفساد البلدان المجاورة بتهديم شبابهم. عدي وقصي مغرمان بمناقشة مشاكل المخدرات في الكويت. أعينهم تشعُّ فرحاً عند التعرّض لهذا الموضوع... تملّكني الرعب وأنا أكتشف ضخامة جرائمهما.

انتهت الصحافة في الكويت والمملكة العربية السعودية إلى الكشف عن أن المخدّر كان يصل من العراق، لكنهم كانوا يجهلون المورِّد بالضبط، حتى استطاعوا تخمينه؟ جميع البلدان المجاورة ابتليت به، ولكن الكويت عانت منه كثيراً.

وصول مفتشي الأمم المتحدة قرع أجراس الخطر في مخابر القصر السرية، فقام عدي وقصي بنقلها إلى مصانع المعلبات وإلى مستودعات المواد الغذائية، وعندما اشتدت المراقبة في العام 1996، قاما بتفكيك المعامل. المسألة هامة، أن يفقد صدام احترام العالم العربي عندما نتركه يكتشف أنه قام بأعمال بمثل هذه الخسة، لذلك لن يُسمح بأن يتعرض لخطر تصويره في التاريخ عرّاباً للمافيا.

* * *

لم يكن صدام بالطبع العضوَ الوحيد الذي يغتني على حساب الشعب العراقي. ساجدة، مثلاً، كانت مثل سائر أفراد الأسرة وطالت يدها تموين اللحوم والدجاج الوارد من

البرازيل، بوساطة شركة كانت تساهم بقسم كبير من رأسمالها إلى جانب مموّلين برازيليين وفلسطينيين. بلغت أرباحها من هذا المشروع نحو ملياري ونصف مليار دولار سنوياً.

أهدى صدام أيضاً لساجدة مئات الآلاف من هكتارات الأراضي المصادرة من معارضي النظام. زرعت فيها البقول الثمار والأزهار وباعتها إلى فنادق ومكاتب البلاد. بالطبع كان زوجها ساهراً على عدم ظهور أي منافس لها.

ساجدة ورغد ورنا يملكن بدورهن 36% من رأسمال شركة ڤولكس ڤاغن في البرازيل. ولعدي وقصي أيضاً أسطول صيد هام في موريتانيا، يتاجران بوساطته بالقريدس في السوق الأوروبية المشتركة بوساطة عملاء لبنانيين. من المعلوم أيضاً أن الرئيس يملك ملكيات واسعة في جمهورية بيلوروسيا.

بفضل مركزي الدبلوماسي كنت غالباً مكلفاً بنقل حقائب أوراق مالية من بنك في بلد إلى آخر. وهكذا حملت في أحد الأيام مليون دولار نقداً لخير الله طلفاح، خال صدام، لنفقاته الشخصية. وجدته يستريح خلي البال في جناح فخم في فندق إنتركونتيننتال في جنيف بصحبة صديقة رائعة الجمال. وعندما طلبت منه أن يوقّع لي وصلاً بالاستلام، استدارت عيناه دهشة: «كيف تريد مني أن أَعُدَّ كل هذه الأموال؟».

لا نعلم حتى الآن تفاصيل توظيفات عائلة صدام؛ رغم أن التحريات حول هذا الموضوع بدأت بمبادرة من الكويت بعد انتهاء حرب الخليج في العام 1992 مباشرة. على أية حال،

هناك على الأقل أربعمئة وخمسة وتسعين مليون دولار أودعت في لبنان الملقّب بـ «سويسرا الشرق الأوسط» لأنه يحافظ على السرية المصرفيّة. حاولت الحكومة المؤقتة الاستيلاء على تلك الثروة لإنفاقها على إعادة بناء العراق لكن المصرف المركزي اللبناني أبلغ أنّه لن يُفرِج عن هذه الملكيات إلا لصالح الحكومة الشرعية، وليس لصالح «حكومة معينة من قبل الأمريكيين».

* * *

لعب برزان التكريتي، الأخ غير الشقيق لصدام، دوراً رئيسياً في تحريك الأموال العائلية. فقد كُلِّف بمفاوضة الملياردير الأمريكي مارك ريتش عن مبيعات غير مشروعة للنفط العراقي، بالرغم من الحظر المفروض في العام 2000. حصل ريتش عند ذلك على عفو من حكومته. واهتم برزان عندها بشراء أسلحة الدمار الشامل.

مبالغ هائلة من المال وضعت في سويسرا باسم برزان، وهو مسؤول الاستثمارات الأجنبية للأموال المودعة باسم ساجدة وبناتها الثلاثة وولديها.

انتهى دور برزان بنزاع عائلي، اتهمه صدام باختلاس قسم من الأملاك لمصلحته. باع حديثاً ملكيته في سويسرا بمبلغ زهيد لا يتجاوز خمسة ملايين وستمائة وخمسة وسبعين ألف دولار. من سخرية القدر أن المشتري كان الجمهورية الإيرانية!

من بين ممولي صدام تبرز عائلة رئيس وزراء إيران

السابق شهبور بختيار والإمبراطورة السابقة ثريا. عمل الأخوة بختيار، وأصفنديار، وبهمان، وماي كامل، زوجة أصفنديار وابن عمهم فرهد؛ على تأسيس جزء من شبكة شركات مالية تدار من قِبل برزان خاصة عبر «Jaraco SA» (حلت في العام 1995) وشركات مختلفة أخرى أكثر أو أقل ديمومة، حيث يتقاسمون الأعمال الإدارية. يعود 50% من رساميل Jaraco إلى «مستفيدين عراقيين» بدون تحديد أكثر. يتمتع أصفنديار وبهمان بالجنسية السويسرية إضافة إلى الجنسية العراقية. استقر الأول في بغداد في العام 1984 بعد أن أنهى دراساته في سويسرا واحتفظ بقصره هناك.

اتهم الجميع في قضايا تبييض الأموال، وخاصة العراقية، فرهد بختيار نفسه قضى عدة سنوات في السجن قبل أن يتم تسليمه إلى الولايات المتحدة الأمريكية، حيث أمضى فترة خلف القضبان. ينسبون إليه ملكية عقارات مدهشة، منها أوتيل في جستاد وآخر في بوش، وكلاهما في سويسرا.

حوسام ب. رسّام، كان يدير من جهته استثمارات عائلة صدام في البورصة منذ العام 1989، حيث قدرت بنحو واحد وأربعين مليار دولار في العام 1990.

غير أن التحقيق الجاري من وكالة كرول، بعد حرب الخليج، بيّن بداهة في تشرين الثاني 1991 أن هناك ثروة من الذهب: سبع مئة طن من هذا المعدن الثمين موزعة إلى عشرة أقسام تزن كل منها خمسة وستين طناً، إضافة إلى قسم آخر

يزن خمسين طناً. في ذلك التاريخ، نُقِلَ خمسة وستون طناً إلى سويسرا.

أكد تاجر ذهب، لديه علاقات تجارية مع برزان التكريتي وأتباعه؛ بأنه شاهد حاوية بطول سبعة أمتار ملأى بالأوراق النقدية في أحد المستودعات في سويسرا. تم تخزين أربع حاويات مماثلة في الأراضي السويسرية. كل منها تحتوي على ما يقدر بمليون أو مليون ونصف دولار، إنها بدون شك عمولات مبيع أسلحة. طُلب من ذلك التاجر تبييض هذه الأموال بشراء قطع فنية (حيث يفكر العراقيون ببيعها مجدداً وبدون متاعب إلى جامعي التحف اليابانيين) أو بتحويلها إلى شيكات مصدقة محررة بالفرنك السويسري أو الفرنك الفرنسي أو المارك الألماني.

بهاهيشير، طارق عزيز أو عبد حمود أمين سرّه، يُعدُّون من المقربين إلى صدّام المكلّفين بإجراء معاملات نفطية غير مشروعة مع «أصدقاء العراق»، من رجال الأعمال، وصحافيين وكتّاب منصرفين لدراسات عن الديكتاتور، أو من الأصدقاء السياسيين.

صفقات البترول النظامية ضمن إطار قرار الأمم المتحدة 986 المسمى «النفط مقابل الغذاء» أعطت المجال لصفقات أخرى لم يُصرح عنها.

تجلّت الفضيحة في أحد أيام ربيع 2003 جليّة بقضية غالاوي. فقد كشف مراسل صحيفة الديلي تلغراف في بغداد أن قوّات التحالف وجدت وثائق عراقية تشير إلى أن النائب

العمالي السكوتلاندي جورج غالاوي تلقى من صدّام عمولة على مبيعات تصل إلى ثلاثمئة وخمسة وسبعين ألف جنيه استرليني (أي نحو خمسمئة وثلاثين ألف يورو) سنوياً، وأماطت اللثام أيضاً عن مذكّرة سريّة من غالاوي يطلب فيها من صدّام زيادة نسبة عمولته. أكّد غالاوي أن الوثيقة مزيّفة، لكنني أصرُّ على أنني فحصتها، وأن توقيع طاهر خليل حبوش التكريتي رئيس المخابرات الظاهر على تلك الوثائق حقيقي. طاهر خليل يملك في الواقع خطاً مميزّاً جداً، إضافة إلى أن استخدام الحرف الأجنبي، وهو في هذه الحالة فارسي، وهو حرف «G» ـ نموذجي في وثائق المخابرات السريّة العراقية. مترجم صدام السابق، وهو حالياً لاجئ في الأردن، أكّد فوق ذلك، خلال المداولات الأخيرة الجارية بين الرئيس السابق والنائب العمالي السكوتلاندي في شهر كانون الثاني 2003، طلب صدام منه مغادرة القاعة خلال ربع ساعة. بماذا تناقش الرجلان خلال غيابه؟

* * *

سحب صدام حسين قبل سقوط نظامه بثلاثة أشهر ما يعادل ثلاثة مليارات وسبعمئة مليون دولار من حساباته المصرفية في البنوك العراقية، وقد وزّعها على مختلف أعضاء عائلته، مع تعليمات للاستثمار في الأردن وبلدان أخرى أكثر استقراراً في المنطقة. لهذا السبب فإنَّ أقارب صدام عديدون في عمّان، وقد اشتروا سيّارات لنقل التحف وبيعها للأجانب.

أخيراً وجد أن عديّاً وقصياً، مهددان بالقتل، وكذلك فإن

ساجدة مصابة بالسرطان، لذلك قرّر دعوة الشابتين رغد ورنا لإعطائهما الأرقام السرية للحسابات المصرفية للعائلة.

عائلة صدام بمنأى لمدة طويلة عن الحاجة، إلا إذا توصّل الشعب العراقي إلى استرداد الأموال المسروقة منه.

لذلك نحن نعمل بشكل فعّال، بمساعدة محامين وهيئات لتحديد أموال صدام والعثور عليها لمنع أتباعه من الوصول إليها، وبالطبع، لإعادتها إلى مالكيها الأصليين: العراقيين، فهم في أشدّ الحاجة إليها.

13

الأيام الأخيرة لمرتكب جرائم ضد الإنسانية

هل أحس صدام أن قوات التحالف ستقضي على نظامه بسهولة؟ كلا بدون شك، لأن النظام العراقي وصل إلى درجة من السخف والعبثية بشكل لا يتمكن أحد، وخاصة صدام، من فرز الحقائق عن الأوهام، مما يرد من الإعلام أو من التضليل... حتى لو توقع هزيمته، في حال انتصار أمريكا، وحتى لو توقع أن قواته لن تستطيع الصمود إطلاقاً أمام تلك التي تحاصرها، لم يخطر ببال صدام إطلاقاً بأنه سيضيع وطنه. حتى النهاية كان ينتظر العصا السحرية التي تنقذه.

لم يطّلع كثيراً على الأحداث الدولية، بل اعتمد بشكل واسع على مطالعات الصحف التي تصله في الساعة السابعة مساء، من أمين سرّه المختص بالغطاء الإعلامي - الجيد والرديء - المتعلّق بالعراق ورئيسه.

هذا دون شكّ ما دفعه إلى رفض جميع عروض الوساطة المقدّمة إليه؛ ليس دون غطرسة أحياناً كما فعل مع وسيط الفاتيكان الكاردينال أتشيغاري عند حضوره إلى بغداد في

شباط 2003. فبدلاً من أن يستفيد من الزيارة ويجري حواراً بنّاءاً حول تحريّات الأمم المتحدة، أطرى مظهره الجميل. «لو أنّك لست كاهناً، أضاف بمزاح رصين، لوجدت لك زوجة عراقية جميلة».

هذا يشرح بكل تأكيد أيضاً أن الأمريكيين عثروا على كثير من الوثائق في مكتبه. كان مقتنعاً أن بوش لن يستولي على بغداد ووجد أن لا ضرورة لتفريغ القاعة.

كانت الفوضى سيدة الموقف داخل الإدارة، وفي حكومة صدام فجر الهزيمة أمام قوات التحالف. رجال قُتلوا لأنهم اعترفوا للرئيس بأن برنامج التسلُّح متأخر جداً. في الحقيقة لن يغير أي عمل مصيرهم.

لوقاية حياتهم أكّد له علماء عديدون أن جيشه يمتلك أسلحة بيولوجية وكيميائية عديدة لم يتوصَّل أحد للكشف عنها. انتابت صدام الدهشة لأن مراقبي الأمم المتحدة لم يجدوا شيئاً.

في الواقع، لا أحد يعلم ما هي الأسلحة الموجودة فعلاً، وجميع أولئك الذين يؤكدون معرفة مكانها ومخابئها كانوا يتبادلون المعلومات المضللة، حتى لو كانوا يعتقدون أنها صحيحة. هل غدا صدام بطريقة ما رهينة نظامه؟

لاشكّ أن صدّاماً تصوّر استخدام أسلحة غير تقليدية وفقاً لما يشهد به وجود «سالي الكيماوية» إلى جانب الرئيس، خلال مؤتمر متلفز خلال النصف الثاني من شهر أيار 2003.

المستغرب، على الأقل، الأمر الذي لم يكن منطقياً، أن

يصرح صدام بأكاذيب. هل أصبح صدام يصدق ما يقال له بسذاجة؟ عمل على صرف مبالغ هائلة ثمناً لأسلحة لا توجد إلا في مخيلة بائعها، وفي أوهام الحروب لدى شاريها. لنذكر أن حماه والد زوجته الخامسة إيمان مولى حويش حصل منه على عدة ملايين ثمناً لسلاح ليزر ثوري - ثوريّ لدرجة غير متصورة - قادر على التصدي أو ضرب أيّة مقاتلة عدوة تخترق المجال الجوي العراقي. رئيس كوريا الشمالية من جهته قبض عشرة ملايين دولار لقاء صواريخ ذات مدى متوسط (ثمانمئة كم)، لم تُسلَّم إلى العراق على الإطلاق.

ثم حصلت الخيانات في أوّل مناسبة غالباً. لهذا فإن اللواء ماهر عبد الرشيد والد زوجة قصي، حاول أن يُقنع الحرس الجمهوري بالاستسلام دون قتال.

عديدون من أفراد عائلة صدام أولئك الذين قدموا معلومات إلى الأمريكيين، ولم ينتظروا إلا توافر فُرصةٍ للعمل. ومنهم خادم الرئيس، الذي أرسل الإشارة الشهيرة المسجّلة على شريط مغناطيسي، والتي ترشد قوات التحالف إلى أين يجب توجيه الضربة للوصول إلى صدام منذ أول عاصفة قذائف.

يمكن أيضاً الحديث عن خيانة قادة الجيش الذين تركوا القيادة إلى قصي وأعطوه التفويض المطلق، رغم أنه لا يعلم شيئاً عن الاستراتيجية العسكرية، لإدارة الهجوم المعاكس.

على منوال أحد أبطال خياله، وينستون تشرشل، صرح صدام أن العراقيين سيحاربون الأميركيين «على الشواطئ وفي الشوارع، بالسكاكين، بالسيف، وبالعصي»...

العراقيون، ربما، أما هو؟ حتى كتابه الأخير المنجز قبل سقوطه هو عبارة عن مختارات من كتب هوشي منه المتعلقة بخطط حرب عصابات الفيتكونغ، وعندما استوعب أن بغداد ستسقط لم يكن لديه سوى هذه الكلمات: «ضاع كل شيء، انتهى كل شيء».

قبل بدء القتال وضع صدام نساء عائلته ومعظم أحفاده في مأمن مع ستين من حرّاسه الخاصين، وثلاث شاحنات تحمل حوائجهم، ثم أرسلهم إلى سورية، لكن حكومة دمشق أرجعتهم إلى موطنهم تحت ضغط الحكومة الأميركية، حيث ضمن لهم شيخ قبيلة شمَّر من الموصل حمايتهم واستخدم نفوذه ليجد لهم ملجأً آمناً في بلد آخر في المنطقة. التقاليد العربية تفرض حماية النساء والأطفال وإن كان أبوهم أو أخوهم أو زوجهم قاتلاً أو عدوّاً للعشيرة. وجب للمجموعة الصغيرة فيما بعد أن تلتحق مجدّداً بأحد البلدان المجاورة...

على مثال كثير من أصحاب المناصب العالية في النظام انتهت ابنتي صدام البكريتين إلى الإقامة رسمياً في الأردن، حيث حظيَتا باستقبال طيب. تذكّر كل شخص أنّهما كانتا من ضحايا الديكتاتور العراقي. أعدَّت إقامتهما من قبل ابن عمهما برزان أخ صدام غير الشقيق محمد الوافد من جنيف خصيصاً لمساعدتهما.

بقيت ساجدة في أحد البلاد المجاورة برفقة ابنتها الصغرى حلا، التي أوقفت القوات الأمريكية زوجها مع بعض أفراد العائلة الآخرين.

رغد ورنا وأولادهما يعيشون في الأردن، حيث العائلة المالكة تعاملهم بروح الصداقة وتُسكنهم في قصر الندوة. ووفقاً لما ذكرته صحيفة الشرق الأوسط يدّعون نقص المال. مع ذلك يبقى لهم الكنز المودع في الخارج قبل موت زوجيهما المرحومين حسين وصدام كامل أي ما يقرب من ستة مليارات دولار، دون اعتبار لحليهما ذات القيمة العالية، مما يكفيهما عن العوز على ما يمكن الاعتقاد.

وفقاً لما ذكره أحد أبناء عمومتهما فكّرتا بطلب اللجوء السياسي إلى إحدى البلدان العربية، الأمر لا يرتب عليهما أية مشكلة بعد الأخذ بعين الاعتبار أموالهما وكنوزهما. لكنّه سيعدُّ شتيمة لآلام الشعب العراقي.

يجب ألّا نهمل الناحية الماليّة لوضع صدّام وأتباعه. يُقدَّر بالفعل أن ثروة الرئيس العراقي السابق تصل إلى نحو أربعين مليار دولار مسروقة من الشعب العراقي. في هذا ما يهزُّ أيّة حكومة يمكن أن توجد في العراق - وفي هذا، على الغالب، تمويل لحرب العصابات المضادة للأمريكيين، تلك التي مسرحها شمال البلاد. وبمثل هذا المبلغ يمكن شراء كثير من المنظمات... والحكّام.

بقيت سميرة الشهبندر زوجة صدام الثانية مع ابنها علي في بغداد حتى قدوم القوات الأمريكية. ثم أقاما عند عم كان يسكن في حي المنصور. تجولت في بغداد برفقة عدد من الحراس، بين بيوت عديدة في المدينة والمناطق المجاورة لها.

رأت سميرة زوجها للمرة الأخيرة بعد سقوط بغداد في قرية بجوار العاصمة. قيل لي إنّها وجدته منهكاً يكاد يفقد وعيه. سار بها إلى غرفة بمنأى عن الناس وذرف الدموع مثل طفل. وفقاً لمعلوماتي، توسَّل إليها أن تغادر العراق على الفور، ومنحها خمسة ملايين دولار نقداً وعلبة مملوءة بسبائك ذهبية (تصل قيمتها إلى مليون ومئتي ألف يورو)، وجوازي سفر ممهورين باسم خديجة وحسن. استقلا سيارة وشاحنة لنقلهما ونقل الكنوز المخبوءة إلى إحدى البلدان المجاورة. ذُعِر عليّ واضطرب كثيراً للتشويش الناتج عن هذه الرحلة. لم يفهم كيف أمكن لابن صدام حسين - وهو بالأمس في منتهى القوّة - أن يسافر الآن بمثل هذه الحالة، وأن يغادر البلاد بتلك الطريقة المخزية. بقيت سميرة مع عليٍّ بعض الوقت في البلد المجاور قبل استقرارهما في لبنان، وحديثاً غادرا إلى باريس حيث يملكان منزلين في الجادتين الخامسة عشرة والسادسة عشرة.

* * *

لكن أين يختبئ صدّام؟ الشائعات الأكثر جنوناً جارية: إنه مختبئ في كولومبيا، على جزيرة صغيرة في البرازيل، في هيملايا، في السفارة الروسية في بغداد، في اليمن. يجب القول إن رجاله تجوَّلوا قبل الحرب في كل بقاع الاتحاد السوفييتي السابق حتى حدود التيبت، بحثاً عن مَعْلمٍ آمن يمكن لمعلمهم اللجوء إليه في ساعة الشدّة. عدا ذلك يعلمون أن طائرة جاهزة على مدار أربع وعشرين ساعة بقيادة رعد التكريتي، ابن وزير الدفاع السابق، تنتظر لتقلَّ صداماً وقادته للالتحاق بعائلاتهم في أحد البلاد المجاورة.

شوهد في تكريت وفي كركوك... لكن أهو صدام أم أحد نسخه؟ هل يريد خداع الجواسيس بإظهار الشبيه بينما هو يختبئ تحت الأرض؟ يقال إن أشباهه يسافرون معه، وهذا يبدو لي بعيد الاحتمال، إلا إن أراد بأي ثمن أن ينكشف. لماذا يجذب الانتباه الرجل الأكثر ملاحقة في العالم؟ إنها مجازفة على مثل هذا الثلاثي أن يكونوا غير مرئيين! من جهتي كنت أقرب إلى التفكير أن نُسخَه لن تجديه نفعاً، وأنهم قُتِلوا بداعي الحَذَر والحيطة.

الواقع أن صدّاماً لم يبتعد عن منطقة نشأته الأولى بعد رحيله عن بغداد. في الأيام التي تَلَت دخول القوات الأمريكية إلى المدينة. اختبأ بعض الوقت في ملجأ تحت الأرض، قريباً من دجلة على بُعد بضع عشرات من الأمتار عن جامع الإمام الأدهم، حيث أُشير إلى القوات الأمريكية أنّه يختبئ مع ولديه البكرين. في 10 نيسان 2003، حاول اقتحام المدينة مع عديٍّ وقصيٍّ على عربة مصفحة يقودها أمين سرّه عبد حمود. عندما أجرى الأخير نصف دورة ملتفاً على نفسه قرب جسر «إيّما»، فتح الجنود الاميركيون النار بالرشاشات. نجا الرجال الأربعة بأُعجوبة دون أن يصابوا بأذى. كادت هذه المجموعة أن تقع في قبضة قوات التحالف، وبضربة واحدة لصيد أربعة مطلوبين في أوراق لعبة البنتاغون الشهيرة(*).

عندما عاد إلى الملجأ المحصن تحت الأرض، قرر صدام

(*) إشارة إلى رموزهم كمطلوبين في «ورق اللعب» الذي وزعته القوات الأمريكية.

ضرورة فراقه عن ولديه، لم يتسنَ له رؤيتهما حيين أبداً... في اليوم التالي بدأ رحلته عبر نهر دجلة، وعلى متن قارب مجهز بالأشرعة، محملاً بالبطيخ الأحمر، مختبئاً في مكان آمن خلف صناديق الفواكه. وصل إلى تكريت بلد الطفولة التي لم تسقط بعد في أيدي قوات التحالف. فكر أن يستعيد العراق من حصنه. ولكن توجب عليه سريعاً الإقلاع عن غروره وأوهامه عند اكتشاف عدم ولاء الشعب له.

من بين المعلومات التي تروى من العراق أن طبيباً رآه بعد شهر مرهقاً ويشكو من الأرق؛ وصف له منقوعاً تقليدياً مهدئاً يسمّى كوجارات كانت أمه تعطيه له سابقاً. كان صدام على الدوام نصيراً متحمساً للأدوية الطبيعية. سكن في تلك الفترة مزرعة صغيرة؛ ولكن الطبيب المذكور، لا يعلم أين تقع تلك المزرعة، لأنه أُحضر إليها بسيارة ذات زجاج عاتم. نظر الرئيس الخائر القوى إلى محطة عربية عن طريق الأقمار الصناعية «انظر ماذا يقول هؤلاء الإمبرياليون عني وعن العراق». لم يصرح الطبيب عن هذه الزيارة: لأنه كان يخاف كثيراً من جواسيس صدام.

بدءاً من ذلك اليوم كان الطاغية الخائر القوى مقيماً على الدوام في شمال العراق. يغامر أحياناً بالسفر إلى جيورجيا أو أذربيجان. وفقاً للمخبرين الأكراد، كاد رئيس تلك الجمهورية الصغيرة أن يرضى، مقابل «تعويض» مئة مليون دولار (نصفها نقداً)، مساعدة صدام على مغادرة العراق عن طريق المثلث العراقي - التركي - الإيراني، غير بعيد عن السليمانية المنطقة الجبلية المزروعة بالمغائر، والمتمرسة

منذ تاريخ طويل بتقنيات التهريب والأسلحة والمخدرات والأشخاص المتسرّبين عبر تلك العقدة الحدودية.

أكدت المصادر نفسها أن صداماً لجأ لوقت ما إلى أذربيجان، ووضع نفسه تحت حماية حيدر علييف وابنه ولي العهد إلهام. وحاول الأخير التفاوض مع ڤلاديمير بوتين للسماح للزعيم العراقي الهارب الاستقرار في موسكو، أو في بطرسبرج مع فرقة صغيرة للحراسة. بالطبع رفض الرئيس الروسي تلبية هذا الطلب.

فكر بعد ذاك بإجراء مساومات مع العصاة الشيشانيين. لكن هؤلاء كانت لديهم كل الأسباب للإزدراء بطلبه، لأنّه رئيس أول دولة أجنبية دعمت غزو الشيشان من قبل قوات بوتين. كانوا بحاجة ماسّة إلى المال، إنّما لامجال لإضاعة الوقت معه فقد تنصّل منه العالم كله. اقترح صدّام على العصاة تمويل حركتهم إن وافقوا على تأمين الملجأ له. يقال إنّهم دعموا تلك المفاوضات من الشيشانيين المتمركزين في الأردن، فهم أكثر عدداً مما يُعتقد.

لم يناقض الديكتاتور التائه نفسه عندما حاول أن يطلب اللجوء السياسي في إيران، مدعيّاً أن الولايات المتحدة بالذات سعت إلى تدمير العراق وإيران... لماذا لا توحدا قواهما؟ نقلت دوائر الاستخبارات الإيرانية الطلب إلى زملائهم الأمريكيين. الواقع يمكن الافتراض أن الرئيس الهارب كان مستعداً للتعاون مع أيٍّ كان شريطة مساعدته على زرع الفوضى في العراق... وإنقاذ جلده.

* * *

في بداية شهر كانون الأوّل 2003 علمت من قريب لصدّام، يقيم حالياً في تركيا، أن الرئيس السابق كان عائداً إلى العراق مختفياً عند عشيرته، وهو يتجوّل في شبكة من نحو خمسمئة منزل مشتراة أو مستأجرة له في تركيا قبل الحرب من قِبل رجال شرطته.

مخبري، المصوّر الفوتوغرافي للرئيس السابق، يُعَدُّ دون شك من الأشخاص الذين يعرفون جيّداً وجه صدّام حسين. إنّه أحد أفراد الحاشية الرئاسية الذين حصلوا على جواز سفر جديد، وعلى مئتي ألف دولار للهرب من العراق قبل دخول القوات الأمريكية. قصّ عليّ فيصل العديبي أنه أجرى زيارة لأحد أبناء عمومته القاطنين في العوجة، غير بعيد عن تكريت. في وقت العشاء دخل رجل في ثوب تقليديٍّ نظيف، كان له منظر مألوف. تفرّس فيصل بالشخص محاولاً النفاذ إلى سرّ اللحية الكثة والحاجبين المشعَثين التي تأكل وجهه. هل يتعلّق الأمر بلمّةٍ صدّاميّة؟ ابتسم نسيبي:

- لا تنظر إليه هكذا، إنّه هو. تصرف بشكل طبيعي.

الكلام أسهل من الفعل عندما نجد أنفسنا دون توقُّع وجهاً لوجهٍ مع أحد الأشخاص الأكثر ملاحقة في العالم! مع انتهاء العشاء بقي الأشخاص الثلاثة بمفردهم. بدت الدهشة على وجه صدّام لرؤية مصوّره السابق سليماً معافى، لكنه أوصاه بعدم التأخّر في العراق، لأنه يشكُّ بصواعق الجيش الأمريكي.

شرح أنّه يتجوّل من الآن وصاعداً مع حارسين شخصيين فقط (يغيّرهما بانتظام)، وأن الثلاثة لا يبقون

أبداً لمدة طويلة في المكان نفسه. ينتقلون في شاحنة قديمة مهتزّة تختلف تماماً عن الليموزينات الفاخرة للزعيم السابق. على شاكلتي في العام 1993، وجب عليه الرحيل وتبليغ تحياته إلى العشيرة.

أقسم فيصل بشرفه على إخفاء مخبأ الرئيس السابق، مع إعلام العالم كلّه أن صدّاماً موجود على الدوام في العراق، على مرأى ومسمع من قوات التحالف... في 2 كانون الأوّل 2003 اتصل بصحيفة الشرق الأوسط في لندن، وبيّن لها أنّه تناول العشاء مع صدام في العوجة... في نيسان من العام 2003! أصبحت القضية غير معقولة.

لم يلبث صدام أن تعرّض للعقاب لعدم حذره، قبضت القوات الأمريكية عليه بعد أسبوعين. وُجِد تماماً بمثل ما وصفه فيصل العديبي. فقد وجد لنفسه ملجأً في المنطقة التي يعرفها تماماً، لأنّه نشأ وشبّ على ضفّة دجلة، قرب تكريت. قربه من النهر يهدّئه بالتأكيد؛ لقد قال دائماً عن نفسه إن قربه من النهر يشعره بالهدوء. جميع قصوره، كما قلت، تشهد له بهذه الشهادة. في الفترة الأخيرة من هربه، كان يتحرك كل ثلاث أو أربع ساعات ويتنقل بين مكان وآخر بدون انقطاع؛ بين الدور، مسقط رأس مساعده عزت إبراهيم الدوري، أو في القرى المجاورة للعوجة (حيث التقى به فيصل العديبي). الشرقاط، سامراء، البلد، هي المرحلة النهائية للهرب، كان ينتقل على ظهر شاحنة، أو في سيارة أجرة قديمة، وأحياناً بقارب صغير. لم يغامر على الإطلاق بسلوك شوارع تكريت. هذه الرحلات المتوالية قد تشرح ما بدا عليه من إنهاك

وضعف عند استجوابه وما كان واضحاً على مظهره من استسلام. المزرعة التي كانت تؤويه تعود لعائلة ناموق أحد مساعديه السابقين. أوقف خاييف الموقوف مع اثنين من أخوته عند إلقاء القبض على الرئيس السابق، أما الأخ الرابع زياد فمن المحتمل أنه هارب مع عزت إبراهيم الدوري الفار بدوره.

* * *

يوم الأحد 14 كانون الأول 2003 أعلنت هيئة الإذاعة البريطانية (BBC) توقيف صدام حسين من قِبل القوّات الأمريكية.

كان صدّام يقول دائماً إنه سينتحر قبل أن يُقْبَض عليه حيّاً. على الأقل هل أمر حراسه الشخصيين بصرعه في حال وقوعه في الأسر. في النهاية وُجِدَ إلى جانبه رشاشا كلاشينكوف، لكن الرئيس السابق لم يستعملهما مطلقاً. ولم أكن بذلك مفاجئاً، لأنني لاحظت عدَّة مرات جبنه.

إحدى الوسائل التي سمحت للأمريكيين العثور على أثر صدّام كان الحنوّ الذي يكنُّه لزوجة الثانية سميرة الشهبندر وابنهما علي، وهو في الحادية والعشرين من العمر، والوريث الوحيد الذكر الحي للرئيس السابق. فعلى مدى هربه كان يستدعي زوجته كل أسبوع، وإن تعذّر الأمر كان يوصل لها رسالة.

عدا ذلك تمّ التوقُّع بلجوئه إلى منطقة ولادته، حيث كان يأمل بمساندته. التحقيقات الجارية مع عدد من أفراد عائلته

أتت ثمارها. أشار أحدهم إلى الأماكن التي يمكن للرئيس السابق الاختباء فيها. مع التأكيد المسبق على عدم الكشف على الإطلاق عن هوية الشخص المتكلّم.

الولاء للعشيرة، التي استمرَّت في ذعرها، لم يترك لقروي أن يفكّر بتناول سمّاعة الهاتف ليحظى بمبلغ خمسة وعشرين مليون دولار قدّمتها الحكومة الأمريكية للقبض على صدّام حسين، لكن ليس ثمة مانع من أن تكون هناك خيانة قد دبّرت لصدّام...

* * *

أخيراً أوقف صدام حسين. نقلته مروحية إلى مطار بغداد الدولي الذي حمل اسمه مدة طويلة. هناك سجَنَ خلال حكمه جميع معارضي النظام. مع انتهاء المعاينات الطبية واختبارات تحديد الشخصية، أتي بطارق عزيز ليحدّد شخصية معلمه السابق: جاء بعد ذلك عضو من مجلس الحكم المؤقت، واكتشف سريعاً أن صدّاماً سيبقى على الدوام صدّام. في الواقع عندما سُئِلَ عن سبب قتله للإمام الصدر تظاهرً صدام بأنه لم يفهم السؤال. كلمة الصدر تعني أيضاً الجذع. سأل لماذا ينشغل مخاطبه بجذعه بدلاً من أن يهتم بساقيه على سبيل المثال... باختصار كان يسخر من محدثه مرة أخرى أيضاً.

اليوم يحاذي صدام في سجنه بعض الرجال الذي سبق له تعذيبهم أو حبسهم، وللتدليل عن وضعه الحالي فإنَّ سجانيه الأمريكيين يلزمونه بأن ينظّف بنفسه «مرحاض» سجنه. أيُّ تباين مع العيش المذهّب لزوجته الثانية سميرة، التي قدم لها عند لقائهما الأخير، المال اللازم للحياة الصحيحة...

خاتمة

العراق بعد صدام

بعد سقوط صدام، انتظرت توقيفه، وأخيراً عقوبته. القسم الأوّل من أمنيتي قد تحقق، والثاني غدا قضية وقت. حتى إذا أمكن نسيان أضراري الشخصية، فإنني أعتقد أن ما من إنسان أحدث ضرراً للعراق مثل صدام حسين.

في طفولتي كان التلاميذ يتعلمون أن بلادنا صعبة الترويض: جنكيز خان نفسه لم ينجح في إخضاع أسلافنا. فقد دافع هؤلاء ببسالة وضحوا بحياتهم بدون حساب. يقال إنَّه عند استيلائه على بغداد غدت مياه نهر الدجلة على التعاقب زرقاء بسبب حبر آلاف الكتب التي رماها البربري في النهر، ثم حمراء، بسبب دماء العراقيين.

نجح صدام في أن يفعل ما هو أسوأ. بسببه مات أربعة ملايين ونصف مليون عراقي، وهُجِّر أربعة ملايين آخرون.

عدا عن أنّه دمر بلاد ما بين النهرين القديمة، إحدى أغنى مناطق العالم التي تمتلك أكثر من 10% من احتياطي النفط على الكرة الأرضية. بلاد كانت تعتبر في نهاية

السبعينات من القرن الماضي الأكثر تقدّماً بين البلدان النامية، مع دخل قومي (PIB) سنوي يصل إلى سبعة آلاف دولار للفرد، فجعل منها بلداً مدمّراً خراباً. لا يتجاوز دخل المواطن السنوي خلال العشر سنوات أو الخمس عشرة سنة المنصرمة ثلاثة آلاف وخمسمئة دولار سنوياً، (مقابل ستة وعشرين ألفاً في قطر، وثلاثة عشر ألفاً في الكويت وتسعة آلاف في المملكة العربية السعودية)، مع ارتفاع عدد العاطلين عن العمل إلى سبعة ملايين فرد قبل إعلان الحرب.

بعد ثلاثة حروب وثلاثين سنة إدارة رديئة جدّاً وفرض خوّة على البلاد، بقي وضع البلاد فقيراً. حتى مع مزيد من الدعم العالمي، وإلغاء ديونه الخارجية، واعتماد التعرفة النفطية المرتفعة... يلزم خمسة وثلاثون مليار دولار لإعادة بناء البلاد. وترتب على الشعب النازف الاستمرار في دفع تعويضات حرب الكويت، إحدى بلدان الأرض الأكثر غنىً! مع الابتعاد عن فكرة تصغير حجم أخطاء العراق تجاه جاره، لكن لماذا يتحمل الشعب العراقي ذلك الآن وهو، الذي تألّم كثيراً من نتائج الاختيارات السياسية الضارة لديكتاتوره السابق؟

على الأقل توقّف هذا أخيراً!

مع ذلك بقي علينا الكثير مما يجب عمله: يلزمنا في الوقت الحاضر إعادة بناء العراق ـ اقتصاده، زراعته، صناعته، خدماته الصحية، نظام تربيته الخ. من أجل ذلك يُرحَّب بجميع النوايا الطيّبة. على سبيل المثال، بعد سنوات الظلام، فإن العشائر التي اعتبرها صدام بقايا من الماضي، جاهزة

ليستخدمها أداة للتقسيم والمناحرة، حيث يوجه بعضها ضد بعضها الآخر، هذه العشائر تنهض الآن من جديد، كإحدى القوى السياسية الأكثر تنظيماً في البلد، وإلى جانبها تعمل الأحزاب الجديدة على ملء الفراغ.

من جهتي نذرت نفسي للمساعدة في نهضة بلادي، وعمدت إلى تقدير الأضرار الناجمة عن ثلاثة حروب، وأسّست حزباً بيئياً أطلقت عليه اسم حزب الخضر العراقي الجديد، وكذلك مشروع الحزب الإنساني الجديد. أناضل أيضاً منذ شهر آذار 2003 لإلغاء ديون العراق الخارجية، وهي الأكثر ثقلاً في العالم، والمقدّرة بمئة وأربعة وثلاثين مليار دولار أي 400% من الدخل القومي العام. لا أعلم لماذا يكون الشعب العراقي، أول ضحية لنير صدّام حسين، عليه إضافة إلى ذلك، أن يسدّد فاتورة سيّئاته وهو لم يستفد منها على الإطلاق. إنّها ديون مترتبة على صدام، ولا شأن للعراق أو للعراقيين بها.

أرأس منظمة أخرى أيضاً هي المنظمة العراقية الجديدة للعدالة والتنمية، وهي متمسكة بملاحقة المجرمين ضد الإنسانية على الأرض العراقية. نحن نرفض أن يحتفظ هؤلاء القتلة بالمال الذي اختلسوه.

أخيراً نحن نُعِدُّ مؤتمراً كبيراً سيجري في شهر شباط من العام 2004 لينهض العراق وينفض الغبار عنه مثل طائر الفينيق. لن يكون إلا مؤتمراً، لكنه بداية مشروع.

من أجل جميع ضحايا صدام حسين.

من أجل جميع الذين تألموا وسجنوا وعذبوا أو قتلوا لتحرير وطنهم، وحتى لا يُنسوا.

من أجل الشعب العراقي بعون الله.

من جهتي، عمدت إلى إعانة شعبي، وأخصّه بنصف نتاج هذا الكتاب، للمساهمة في بناء مشفى، أو لتحسين مصير يتامى الحرب.

الفهرس